مجلة فكرية ثقافية فصلية جامعة تصدر عن مركز الدراسات و الأبحاث الإنسانية - مدى -

مجلة رهانات

العدد 65
2026

حوار العدد

مع د. محمد عبد الوهاب العلالي

في حوار خص به مجلة رهانات

«مع ظهور الإنترنت وشبكات التواصل الاجتماعي، بدا كأننا أمام لحظة تحرر اتصالي غير مسبوقة. فقد كُسر احتكار الدولة للمعلومة، وبرز المواطن بمثابة فاعل إخباري، وظهرت أشكال أولية من المجال العمومي الافتراضي».

ملف العدد

المجتمع وتحولات الفضاء الرقمي

افتتاحية العدد

«لا شك أن عالم اليوم أصبح يعيش 'واقعا رقميا' جديديتطلب مناهج وأدوات تحليل جديدة ومغايرة. ذلك أن التفاعل عبر هذه الشبكات، وفيها أيضا، ينتج ظواهر تتراوح بين إعادة بناء الهوية الشخصية في أوساط اجتماعية هشة، يكاد يغيب فيها الإرشاد والتوجيه، مرورا بإعادة تعريف القيم والأخلاق في الفضاءات العمومية الافتراضية، وصولا إلى ظهور أشكال جديدة من الفعل الاحتجاجي والسياسي».

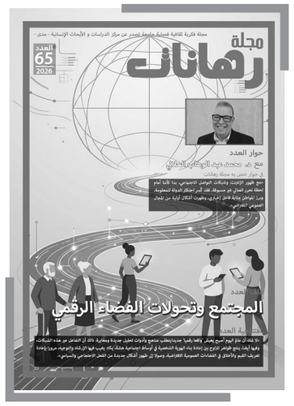

مجلة رهانات

عدد 65 . 2026

محتويات العدد

افتتاحية العدد 2

• المجتمع وتحولات الفضاء الرقمي 2

ملف العدد : المجتمع وتحولات الفضاء الرقمي 4

• الذكاء الاصطناعي والصحة الرقمية: بين التطور التقني والمسؤولية الأخلاقية والقانونية - إحسان غازي 4

• الفضاء الرقمي: آليات تسليع العلاقات الأسرية والجندرية - سمية العنابي 9

• الفضاء العمومي: من إثيقا الفعل إلى اثيقا التواصل والاعتراف - مونية وكيل 24

• الفعل الاحتجاجي في المجتمع الرقمي: محاولة للفهم في ضوء النظريات السوسيولوجية المعاصرة - عبد الواحد اتلموت 35

• شبكات التواصل الاجتماعي وتأثيرها في بناءالهوية الشخصية لدى المراهقين المقيمين بمؤسسات الرعاية الاجتماعية: دار الطالب بتنغير نموذجاً - نافع أبو عبد الله 45

• وسائط التواصل الاجتماعي والتحولات الاجتماعية والثقافية: سياقات وآليات الترافع والممانعة - عبد العزيز أجدي 58

• القيم الاجتماعية في الفيسبوك بين تقديم الذات وتحقيق رأسمال اجتماعي - مونية المنصور 68

• حرية التعبير الافتراضي بمنظار المجلس الوطني لحقوق الإنسان - سفيان الكمري 79

حوار العدد 90

• حوار مع "د.محمد عبد الوهاب العلالي " حول : «شبكات التواصل الاجتماعي والتحولات القيمية» 90

نافذة فكرية 98

• من كهف أفلاطون إلى الكهف الرقمي - عبد الرجاء لهديلي 98

دراسات 108

• اتجاهات البحث الأجنبية و العربية في منصات السوشيل ميديا: منصة أنستغرام نموذجا- روضة القدري 108

ترجمات 118

• كيف يمكن توصيف العلاقات بين وسائل التواصل الاجتماعي وسيرورات الراديكالية المؤدية إلى العنف ؟ - عبد العالي صابر 118

إبداعات 127

• قصة قصيرة : "الهامسة" - ليلى بارع 127

شروط النشر في مجلة رهانات

1. المجلة لا تنشر بحوثا سبق نشرها أو أنها معروضة للنشر في مكان آخر.
2. ضرورة اعتماد الأصول العلمية المتعارف عليها في كتابة الأبحاث و خاصة فيها يتعلق بالتوثيق و الإشارة إلى المصادر و المراجع.
3. يجب ألا يتجاوز عدد كلمات الدراسة 3000 كلمة.
4. على الباحث أن يرفق ببحثه نبذة مختصرة عن سيرته العلمية، إلى جانب صورته الشخصية.
5. البحوث و الدراسات التي تقترح هيئة التحرير إجراء تعديلات عليها أو إضافات إليها تعاد إلى أصحابها لإجراء التعديلات المطلوبة قبل نشرها.

مجلة رهانات

مجلة فكرية ثقافية فصلية جامعة تصدر عن
مركز الدراسات والأبحاث الإنسانية · مدى ·
ملف الصحافة: 45 ص 05
رقم الإيداع القانوني 2006-142

عنوان المراسلة:
مركز الدراسات و الأبحاث الإنسانية
29 زنقة عمر السلاوي - الدار البيضاء
الهاتف: 27 42 22 22 05
rihanatmada98@gmail.com
www.madacenter.ma

المدير
محمد جليد
رئيس التحرير
زكرياء أكضيض
أعضاء هيئة التحرير
حياة الدرعي
عبد الإله الكلخة
عبد العالي صابر
إبراهيم الهيباوي
حسن الإدريسي
مصطفى إنشاء الله
عبد الكريم بحر
الغلاف و الإخراج الفني
محمد أمين نجمي
خديجة أكنو
الطبع
VIVA print
0522505696
التوزيع
سابريس - الدار البيضاء

جميع الآراء الواردة في هذه المجلة تعبر عن وجهة نظر أصحابها و لا تعكس بالضرورة رأي المجلة

افتتاحية العدد

المجتمع وتحولات الفضاء الرقمي

محمد جليد
أستاذ باحث في الدراسات الإنجليزية
جامعة السلطان مولاي سليمان بني ملال

من تابع احتجاجات جيل 'ز' الأخيرة التي شهدتها مدن مغربية كثيرة، سيدرك أهمية أدوار الفضاء الرقمي، وفي مقدمته شبكات التواصل الاجتماعي. مما لا شك فيه أن هذه الاحتجاجات اكتسبت زخما متزايدا بفضل سهولة التواصل عبر هذه الشبكات، تنسيقا وتنظيما. ولأن هذه الأدوار تتزايد أهميتها، وخطورتها أيضا، يوما بعد يوم، فقد صار لزاما على ذوي الاختصاص الوقوف عند الظاهرة ودراستها ومعرفة التحولات التي تنشأ عنها في الفضاء العمومي، وتفرضها في الوقت نفسه على المثقف والفاعل السياسي، وتقدير تأثيراتها في المجتمع عموما، والفضاء العمومي خصوصا. ومن هنا، كان مركز الدراسات والأبحاث الإنسانية- مدى قد ارتأى تنظيم ندوة في الموضوع، أقامها في مدينة بني ملال، بشراكة مع ماستر التميز في الصحافة والإعلام، التابع لكلية الآداب والعلوم الإنسانية، يوم 10 أبريل 2025.

يتضمن هذا العدد من مجلة 'رهانات' مداخلات المشاركين في ندوة بني ملال هذه. وهو يصدر في سياق سياسي واجتماعي، ومعرفي أيضا، سمته الأساس تسارع وتيرة الأحداث، التي هي نتاج تحولات اجتماعية وثقافية تفرضها شبكات التواصل الاجتماعي على بنى المجتمع التقليدية. من الواضح أن هذه المنصات لم تعد مجرد أدوات تحقق التواصل، أو الترفيه كما شائع عند عامة الناس، بل تحولت إلى بنى فوقية تعيد صياغة مفاهيمنا ومنظوراتنا إلى الذات، والمجتمع، والأخلاق، والسياسة، والتواصل، الخ.

يسعى هذا العدد إذا إلى مقاربة إشكالية مركزية قوامها أدوار شبكات التواصل الاجتماعي في تأطير المجتمع المغربي الراهن. كما يروم مقاربتها من خلال الإجابة عن الأسئلة الفرعيةالتالية: ما هي الأنساق الاجتماعية والثقافية الجديدة التي تفرزها ديناميات التفاعل الرقمي؟ وكيف يمكن للمقاربة السوسيولوجية النقدية أن تفكك آليات تشكل الهوية؟ وهل تستطيع منصات التواصل الاجتماعي أن تعيد تعريف الفضاء العمومي؟ وما تأثيراتها في تسليع العلاقات الإنسانية في ظل سياقات رقمية معولمة ومحلية؟

لا شك أن عالم اليوم أصبح يعيش 'واقعا رقميا' جديدا يتطلب مناهج وأدوات تحليل جديدة ومغايرة. ذلك أن التفاعل عبر هذه الشبكات، وفيها أيضا، ينتج ظواهر تتراوح بين إعادة بناء الهوية الشخصية في أوساط اجتماعية هشة، يكاد يغيب فيها الإرشاد والتوجيه، مرورا بإعادة تعريف القيم والأخلاق في الفضاءات العمومية الافتراضية، وصولا إلى ظهور أشكال جديدة من الفعل الاحتجاجي والسياسي.

من هنا، يروم هذا العدد أن يدرس تأثيرات هذه المنصات العميقة في بناء الـذات. مما لا شك فيه أن شبكات التواصل الاجتماعي تؤثر في بناء هوية المراهقين وتشكيل شخصياتهم، لا سيما أولئك البعيدين عن رعاية آبائهم وأوليائهم. يستثمر هؤلاء المراهقون، الذين يعانون من نقص في الرأسمال الاجتماعي وهشاشة الهوية، في الفضاء الرقمي، بوصفه 'مختبرا' لتجريب نسخ مختلفة ومثالية من ذواتهم، أو بوصفه بديلا عن حياتهم الواقعية، الخ. وفي هذا الصدد، قد يلهمنا مفهوم 'الهوية السائلة' عند 'زيغمونت باومان' أو 'عرض الذات' عن 'إيرفينغ غوفمان'، لتحليل آليات التمثل والتقمص والانتقاء التي يمارسها هؤلاء الشباب، وهم يسعون إلى تكوين هويات مقبولة اجتماعيا.

من ناحية ثانية، يرتبط هذا الموضوع ارتباطا وثيقا بـ'القيم الاجتماعية'، وما تشهده من تحولات قيمية واجتماعية ناتجة عن تأثيرات المنصات ذاتها في مسألة 'عرض الذات' أو في تحقيق الرأسمال الاجتماعي (Social Capital). ذلك أن العلاقة بين الأداء الاجتماعي (Social Performance) عبر هذه المنصات والسعي الدؤوب لتحقيق تراكم الرأسمال الاجتماعي هي علاقة جدلية. لا بد هنا من مناقشة كيفية تحول التفاعل اليومي إلى استثمار رمزي، حيث تصبح 'الإعجابات' و'التعليقات' و'المشاركات' وباقي أشكال التفاعل الرقمي عملة رمزية تترجم إلى 'اعتراف'، فيكتسي بذلك 'الفرد الرقمي' قيمة اجتماعية تزكيه على باقي الأفراد الرقميين. يمثل التحول من قيم التواصل الحميمي إلى قيم الاستعراض جوهر التحليل في هذا العدد من 'رهانات'.

انطلاقا من مستوى الذات، قد ينتقل الدارس أو المحلل إلى تفكيك تحولات الفضاء العمومي (Public Sphere). في هذا السياق، لا بد أن نتساءل: هل ينبغي مراجعة المنطلقات الفلسفية، لا سيما تلك التي أتى بها الفيلسوف الألماني 'يورغن هابرماس'، حول الفضاء العمومي في ضوء هذه التحولات الرقمية، وفي ضوء عدِّه فضاءا عموميا موازيا؟ ألا يمكن القول إن الفضاء العمومي، كما نظّرت له هذه المنطلقات، آخذ في الأفول أمام هذا الفضاء الموازي؟ لا شك أن الفضاء الرقمي لامادي ولامركزي. سمته الأساس التخفي والاحتجاب، لكنه يعمل على تيسير رواج الخطابات وانتشارها على نطاق أكبر، وبحرية أوسع. كما يتسم بديمقراطية أرحب، وإن كانت فكرة العقلانية تتراجع فيه أمام سيولة التفاهة والابتذال. كما تبرز فيه قيم مضادة للنسق الاجتماعي والأخلاقي الموروث، بعيدا عن غرابيل الرقابة التقليدية وسردياتها البانية وخطاباتها الموازية. فهل يمكن أن يدفع هذا الأمر إلى فتح النقاش، من جديد، حول العلاقة المعقدة بين القانون، الأخلاق، وقيم الفضاء الرقمي الجديدة؟ أم أن هذا الفضاء سيفرض شرعيته ومشروعيته على الجميع مع مرور الوقت؟

لا يقتصر تأثير شبكات التواصل الاجتماعي على مستوى القيم والأخلاق وإعادة بنائها من خلال الفضاء الرقمي، بل يمتد ليشمل بنية الفعل المجتمعي نفسه. فعلى سبيل المثال، بدأ الفعل الاحتجاجي، منذ انتشار هذه الشبكات، ينحو نحو أن يتأطر داخل الفضاء الرقمي، وليس في المؤسسات التقليدية والدوائر المعروفة، مثل الأحزاب والنقابات والجمعيات، الخ. ذلك أن هذه الشبكات تعيد صياغة شروط التعبئة والتنظيم، مثلما تعيد مناقشة آليات المماتعة والترافع وتسمح للفئات المحرومة منها، لا سيما الأقليات والجماعات المهمشة أو النائية، إما بالدفاع عن قضاياها وطرح أسئلتها، وإما بمواجهة الخطابات المهيمنة ومقاومتها وتقويضها. من هنا، فهي تعيد بناء أسس الصراع الاجتماعي وآلياته وطرائقه ونتائجه.

في المقابل، يجب ألا نغفل عن أدوار الفضاء الرقمي السلبية في إعادة هيكلة وتوجيه العلاقات الاجتماعية، مثل الأسرة والعلاقات بين الرجل والمرأة عموما. في الواقع، تعيد المنصات، خاصة تلك التي تعتمد على البث المباشر والمحتوى المصور، إنتاج آليات الأبوية وتشييء العلاقات الإنسانية عموما. والملاحظ في هذا السياق أن العلاقات الخاصة، مثل الحياة الأسرية والحياة الخاصة والحميمية، باتت تتحول إلى رأسمال يدر الربح والشهرة.

ختاما، هل ينبغي أن نضع إطارا قانونيا وحقوقيا ينظم مسألة حرية التعبير في الفضاء الافتراضي؟ هنا، لا بد من مناقشة التوتر القائم بين حماية حق الفرد في الرأي والتعبير عبر هذا الفضاء وكيفية تنظيم هذا الحق. ولا بد أيضا من النظر في ضرورة مواجهة خطابات التضليل والكراهية وانتهاك الحياة الخاصة، الخ. لطالما رافق هذا التوتر مستجدات حوامل التعبير والكتابة، إذ يكاد يكون مماثلا لما رافق ظهور وسائل الإعلام التقليدية. إن مجمل الدراسات التي يتضمنها هذا العدد تمثل مقاربات علمية محكمة تساهم في تعميق فهمنا لمستجدات الفضاءات الرقمية وتطوراته وآثاره. وهي في الآن ذاته دعوة للبحث الرصين الذي يتجاوز وصف الظواهر وصفا سطحيا، والذي يرمي إلى الغوص في آليات التحول الذهنية والنفسية والثقافية؛ ومن ثمة، السياسية والاجتماعية والاقتصادية. ■

الذكاء الاصطناعي والصحة الرقمية : بين التطور التقني والمسؤولية الأخلاقية والقانونية

إحسان غازي
باحثة في الدراسات القانونية
مختبرالدراسات القانونية والمدنية والعقارية
كلية العلوم القانونية والاقتصادية
والاجتماعية مراكش

الملخص

يشكل الذكاء الاصطناعي (Artificial Intelligence) أحد أبرز التحولات التي يشهدها الحقل الصحي في الزمن الرقمي، حيث أصبح أداة مركزية في تشخيص الأمراض، وتحليل البيانات، وتدبير العلاج. غير أن هذا التطور التكنولوجي السريع يثير إشكالات قانونية وأخلاقية عميقة تتعلق بالمسؤولية الطبية، وحماية المعطيات الشخصية، واحـترام القيم الإنسانية في الممارسة الصحية.

يسعى هذا المقال إلى تحليل الإطار القانوني والأخـلاقـي لاستخدام الذكاء الاصطناعي في الصحة الرقمية (Digital Health) من خلال مقاربة تحليلية تجمع بين النظر القانوني والممارسة العملية، مع التركيز على ضرورة وضع تشريعات متوازنة تضمن حماية حقوق المرضى دون إعاقة الابتكار العلمي.

الكلمات المفتاحية:الذكاء الاصطناعي – الصحة الرقمية – المسؤولية القانونية – الأخلاقيات الطبية – حماية المعطيات الشخصية.

المقدمة

شهد العالم في السنوات الأخيرة ثورة رقمية غـير مسبوقة أعـادت تشكيل ملامح العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والقانونية. ولم يكن القطاع الصحي بمنأى عن هذا التحول، إذ أصبح من أكثر المجالات تأثرا بتطور التكنولوجيا الرقمية وظهور أنظمة الذكاء الاصطناعي (Artificial Intelligence) التي باتت تساهم في تشخيص الأمـراض، وتقديم العلاجات، وتحليل المعطيات الصحية بدقة وسرعة غير مسبوقتين.

هذا الواقع الجديد خلق دينامية تكنولوجية غير مسبوقة في المجال الصحي، حيث تحول الطبيب من فاعل وحيد في القرار الطبي إلى جزء من منظومة رقمية معقدة تتقاطع فيها الخوارزميات والبيانات الطبية الكبرى (Big Data) مع القيم الأخلاقية والمسؤوليات القانونية. فالتقنية لم تعد مجرد وسيلة مساعدة، بل أصبحت شريكا فعليا في اتخاذ القرار العلاجي، وهو ما يثير تحديات عميقة حول حدود تدخل الإنسان ومسؤولية الآلة.

مع أن الذكاء الاصطناعي في الصحة الرقمية (Digital Health) قد أحدث طفرة نوعية في تحسين الخدمات الطبية وتخفيض الأخطاء البشرية، فإنه في المقابل أثار قضايا قانونية وأخلاقية جوهرية تتعلق أساسا بمسؤولية الأطراف المتدخلة، وحماية المعطيات الشخصية الحساسة، وضـمان احـترام كرامة المريض. فكيف يمكن للقانون أن يستوعب كيانا غير بشري قادرا على اتخاذ قرارات علاجية؟ ومن يتحمل الخطأ عندما يؤدي تشخيص

آلي إلى ضرر بالمريض؟

إن الغاية من هـذه الـدراسـة هي محاولة الإحاطة بالإشكالات القانونية والأخلاقية التي يطرحها الذكاء الاصطناعي في المجال الصحي، من خـلال مقاربة تحليلية تجمع بين النظرية والتطبيق، وتـوازن بين متطلبات التطور التقني وضرورة صون القيم الإنسانية. وسنعتمد في ذلـك على تقسيم ثنائي، يتناول في المبحث الأول التحول الرقمي ودور الذكاء الاصطناعي في الصحة، وفي المبحث الثاني المسؤولية القانونية والأخلاقية المرتبطة باستعماله.

التحول الرقمي في المجال الصحي ودور الذكاء الاصطناعي

1- الإطـار المفاهيمي للذكاء الاصطناعي والصحة الرقمية

يعد الذكاء الاصطناعي (Artificial Intelligence) من أبـرز الابتكارات التقنية التي أعـادت رسم العلاقة بين الإنسان والآلـة. فهو عبارة عن قدرة الأنظمة الحاسوبية على محاكاة الذكاء البشري في التحليل والتعلم واتخاذ القرار. ويستخدم هذا المفهوم في مجالات متعددة، غير أن أهميته في القطاع الصحي تبرز من خلال إمكاناته في تحليل البيانات الضخمة واستنتاج الأنماط المرضية التي قد يعجز الإنسان عن رصدها بنفس الدقة والسرعة.

أمـا الصحة الرقمية (Digital Health) فهي منظومة شاملة تجمع بين التكنولوجيا والطب، وتشمل استعمال التطبيقات الذكية، وأجهزة الاستشعار الطبية، والمنصات الإلكترونية لإدارة المعلومات الصحية. وقد أدى هذا الدمج بين التكنولوجيا والطب إلى بروز نموذج جديد للممارسة الصحية يقوم على البيانات (Data-Driven Healthcare)، حيث أصبحت المعلومة الطبية الدقيقة أساسا لاتخاذ القرار العلاجي.

يتميز الـذكـاء الاصطناعي الطبي بقدرته على التعلم الذاتي (Machine Learning) والتطور المستمر، ما يجعله قـادرا على تحسين دقته بمرور الوقت، خصوصا في مجالات مثل الأشعة، التحاليل الجينية، والتشخيص المبكر للأورام. إلا أن هذا التطور يثير تساؤلات قانونية عميقة حول مدى خضوعه لرقابة بشرية، وحول هوية الجهة المسؤولة عن أخطائه، خاصة عندما يصبح النظام قـادرا على اتخاذ قرارات شبه مستقلة عن الإشراف الطبي المباشر.

ومن زاويـة قانونية، يندرج الذكاء الاصطناعي ضمن فئة الأدوات التقنية التي تثير إشكالية تعريف المسؤولية، إذ لا يمكن اعتباره شخصا قانونيا مستقلا، ولا يمكن أيضا معاملته كـأداة جامدة خالية من الإرادة. ومن هنا ينبع الإشكال القانوني المركزي: هل المسؤولية تقع على مطور النظام، أم على الطبيب الذي استعمله، أم على المؤسسة الصحية التي اعتمدته؟

2- التطبيقات العملية للذكاء الاصطناعي في القطاع الصحي

تظهر التجارب الدولية أن الذكاء الاصطناعي أصبح عنصرا حاسما في تطور المنظومات الصحية الحديثة. ففي الولايات المتحدة، تعتمد العديد من المستشفيات على أنظمة تحليل الصور الطبية القائمة على الخوارزميات للكشف المبكر عن الأورام السرطانية، وقد بلغت نسبة الدقة في بعض التطبيقات أكثر من 90%. وفي فرنسا، تستعمل المؤسسات الصحية الذكاء الاصطناعي لتتبع المؤشرات الحيوية للمرضى عن بعد، خصوصا المصابين بالأمراض المزمنة، مما ساهم في تقليل عدد حالات الاستشفاء.

أما في العالم العربي، فقد بدأ الاعتماد على حلول رقمية متقدمة في المغرب والإمارات والسعودية، حيث يتم تطوير أنظمة لإدارة الملفات الطبية الإلكترونية، ومراقبة صرف الأدوية، وتنظيم المواعيد الطبية إلكترونيا. هذه المبادرات ساهمت في تسهيل الولوج إلى الخدمات الصحية ورفع كفاءتها، غير أنها طرحت في المقابل تساؤلات حـول أمـن البيانات الطبية (Medical Data Security) وإمكانية اختراقها أو إساءة استخدامها.

تتجلى أهمية هذه التطبيقات في قدرتها على دعم القرار الطبي، وليس استبداله، فهي تمنح الطبيب أدوات تحليل قوية تساعده على التشخيص والعلاج بشكل أسرع وأدق. ومـع ذلـك، فإن الاعتماد المفرط على الذكاء الاصطناعي قد يؤدي إلى تراجع الحس الإنساني في العلاقة بين الطبيب والمريض، وهو ما يمثل أحد التحديات الأخلاقية الجوهرية التي يطرحها الطب الرقمي.

إضافة إلى ذلـك، فـإن العديد من الأنظمة الصحية أصبحت تعتمد على ما يعرف بالطب التنبئي (Predictive Medicine)، القائم على تحليل البيانات الجينية والسلوكية للتنبؤ بالأمراض قبل ظهورها. ورغم القيمة العلمية العالية لهذا النموذج، فإنه يثير إشكالات قانونية دقيقة حول حدود استعمال المعلومات

الجينية، واحـترام الخصوصية الفردية، ومنع التمييز الصحي أو المهني بناء على بيانات وراثية.

إن هذه التجارب التطبيقية تبرز أن الذكاء الاصطناعي في الصحة الرقمية ليس مجرد خيار تقني، بل هو تحول بنيوي في فلسفة الممارسة الطبية. وهو تحول يفرض إعادة صياغة المفاهيم القانونية الكلاسيكية للمسؤولية، والرضا المستنير، وحماية المعطيات، بما يتلاءم مع طبيعة الأنظمة الذكية القائمة على الخوارزميات الذاتية التعلم.

المسؤولية القانونية والأخلاقية عن أنظمة الذكاء الاصطناعي الصحية

3- حـدود المسؤولية القانونية عـن أخـطـاء الـذكـاء الاصطناعي الطبي

تعتبر المسؤولية القانونية إحدى أبرز الإشكاليات التي أثارها إدمـاج الذكاء الاصطناعي في القطاع الصحي، لأن العلاقة التقليدية بين الطبيب والمريض كانت تقوم على ركيزة أساسية هي وجود فاعل بشري واحد يتحمل تبعات قراراته. أما في ظل الأنظمة الذكية، فقد تعدد الفاعلون، وتشعبت المسؤوليات بين الطبيب والمطور والمؤسسة الصحية والآلة ذاتها.

إن طبيعة عمل الذكاء الاصطناعي الطبي تختلف جوهريا عن الأدوات الطبية الكلاسيكية، فهو لا يقتصر على تنفيذ الأوامر، بل يتعلم ويتطور ويتخذ قرارات مبنية على تحليل ضخم للمعطيات. وهذا ما يجعل من الصعب تحديد المسؤولية عند وقوع خطأ، لأن الضرر قد ينتج عن خلل في الخوارزمية (Algorithm Error) أو عن خطأ في إدخال البيانات، أو عن اعتماد الطبيب المفرط على نتائج النظام دون تحقق بشري.

من الناحية القانونية، لا يمكن إسناد المسؤولية مباشرة إلى النظام الذكي، لأنه لا يتمتع بالشخصية القانونية (Legal Personality)، ولا بإرادة مستقلة يمكن مساءلتها. وبالتالي تبقى المسؤولية منوطة بالأشخاص الطبيعيين أو الاعتباريين الذين طوروا أو استخدموا هذه الأنظمة. غير أن توزيع هذه المسؤولية ليس أمرا بسيطا، لأنه يرتبط بعدة مستويات من التدخل.

إذا كان الخطأ ناتجا عن خلل تقني في تصميم النظام، تتحمل الشركة المطورة جزءا من المسؤولية، باعتبارها مسؤولة عن عيوب المنتج (Product Liability) وفق القواعد العامة في القانون المدني. أما إذا استعمل الطبيب النظام بطريقة غير سليمة، فإن الخطأ ينسب إليه باعتباره لم يتخذ الاحتياطات اللازمة للتأكد من صحة النتائج. وفي حالات أخرى، قد تقع المسؤولية على عاتق المؤسسة الصحية التي سمحت باستخدام نظام غير مرخص أو لم توفر التكوين الكافي لمستخدميه.

ويثار هنا أيضا النقاش حول طبيعة الخطأ الطبي في عصر الذكاء الاصطناعي. فهل الخطأ هنا هو عدم التحقق من توصيات النظام، أم مجرد الاعتماد عليه؟ لأن المعايير التقليدية التي اعتمدها القضاء في تحديد الخطأ الطبي لم تعد كافية، لأن الذكاء الاصطناعي يغير طبيعة العلاقة بين الطبيب والأداة، ويجعل من الضروري تطوير مفهوم جديد للمسؤولية يأخذ في الاعتبار الطبيعة التشاركية للقرار الطبي بين الإنسان والآلة.

4- الإشكالات الأخلاقية وحماية المعطيات الشخصية في الصحة الرقمية

إلى جانب المسؤولية القانونية، تطرح أنظمة الذكاء الاصطناعي في المجال الصحي إشكالات أخلاقية عميقة تتعلق بحدود العلاقة بين الإنسان والتكنولوجيا. فالطب، في جوهره، مهنة إنسانية قائمة على الثقة والرحمة، بينما الذكاء الاصطناعي يستند إلى الحساب والمنطق الـريـاضي. هذا التباين الجوهري يخلق توترا بين الكفاءة التقنية والبعد الإنساني، ويعيد طرح سؤال أسـاسي: هل يمكن للآلة أن تحل محل الضمير المهني للطبيب؟

إن استعمال الذكاء الاصطناعي في تحليل بيانات المـرضى يفرض التعامل مـع كميات هائلة مـن المعلومات الحساسة، تشمل السجلات الطبية، والعادات الصحية، والمعطيات الجينية. هذه البيانات تمثل جوهر الخصوصية الشخصية، وأي اخـتراق أو تسريب لها يشكل انتهاكا خطيرا لحقوق الإنسان في الحياة الخاصة. لذلك، أصبح مفهوم Data Protectionمـن الركائز الأساسية للأمن الصحي الرقمي.

وقـد أصـدرت العديد مـن الـدول تشريعات لحماية البيانات الشخصية، مثل اللائحة الأوروبية العامة لحماية المعطيات (GDPR)، التي تفرض شروطا صارمة على جمع ومعالجة المعلومات الطبية. كما تبنى المشرع المغربي القانون رقم 09-08 المتعلق بحماية المعطيات ذات الطابع الشخصي، الذي يشمل المعطيات الصحية ضمن الفئات الحساسة. غير أن هذه النصوص القانونية تظل بحاجة إلى تحديث لتستوعب الخصوصيات التقنية للذكاء الاصطناعي، الـذي يتعامل مع البيانات بأساليب معقدة لا يمكن ضبطها بالوسائل التقليدية.

على المستوى الأخلاقي، يواجه الذكاء الاصطناعي الطبي تحديا يتمثل في

ضمان مبدأ "العدالة الصحية" (Health Equity)، أي المساواة في الاستفادة من الخدمات الذكية دون تمييز على أساس الجنس أو الوضع الاجتماعي أو المنطقة الجغرافية. فأنظمة الذكاء الاصطناعي قد تتأثر بانحيازات البيانات (Algorithmic Bias) التي تم تدريبها عليها، مما يؤدي إلى نتائج غير عادلة تمس فئات معينة من المرضى.

ومن جهة أخرى، يثير استعمال الذكاء الاصطناعي مسألة "الموافقة المستنيرة" (Informed Consent) في الطب الرقمي، حيث يصبح المريض في كثير من الأحيان غير مدرك لطبيعة تدخل النظام الـذكي في عملية التشخيص أو العلاج. وهو ما يستدعي تطوير نماذج جديدة من الموافقة تراعي فهم المريض للتقنيات المستخدمة وحدودها.

إن حماية المعطيات الصحية لا تنحصر في الجانب التقني فحسب، بل تمتد إلى البعد الأخلاقي المرتبط بواجب السرية (Confidentiality Duty)، الذي يعد من أقدم وأقدس القيم في المهنة الطبية. فالتقنيات الحديثة تتيح مشاركة البيانات عبر شبكات مفتوحة ومنصات سحابية (Cloud Platforms)، ما يضاعف من مخاطر الاخـتراق أو الاستعمال غير المشروع للمعلومات الطبية. لذلك، أصبح من الـضروري فرض التزامات جديدة على مقدمي الخدمات الصحية الرقمية لضمان أمن البيانات واحترام خصوصية المرضى.

الخاتمة

لقد أظهر تحليل موضوع الذكاء الاصطناعي والصحة الرقمية أن الثورة التقنية الحالية تفرض على القانون والأخلاق الطبية إعادة تعريف الحدود التقليدية للمسؤولية والضمير المهني. فالذكاء الاصطناعي لا يمثل خطرا في ذاتـه، بل في غياب التنظيم القانوني الكافي لمواكبته. ومن هنا تبرز الحاجة إلى وضع تشريعات دقيقة تحدد نطاق المسؤولية عن أخطائه، وتضمن حماية صارمة للبيانات الصحية، وتؤطر استعماله وفق مبادئ العدالة والمساواة واحترام الإنسان.

كما أن تطوير ودمج أنظمة الذكاء الاصطناعي في المجال الصحي يجب أن يتم ضمن رؤية أخلاقية وإنسانية شاملة تضع مصلحة المريض فوق كل اعتبار. فالتكنولوجيا، مهما بلغت من تطور، يجب أن تبقى خاضعة للقيم الإنسانية، وأن تكون وسيلة لتحقيق العدالة الصحية لا مدخلا لإعـادة إنتاج التفاوتات أو التمييز.

إن مستقبل الطب الرقمي يتوقف على قدرة المجتمعات على صياغة توازن جديد بين التقدم التقني والكرامة الإنسانية. وهذا التوازن لا يمكن أن يتحقق إلا من خلال تعاون وثيق بين المشرع والأطباء والمهندسين وخـبراء الأخـلاق، من أجل بناء نموذج قانوني وأخلاقي يجعل الذكاء الاصطناعي في خدمة الإنسان، لا على حسابه. ■

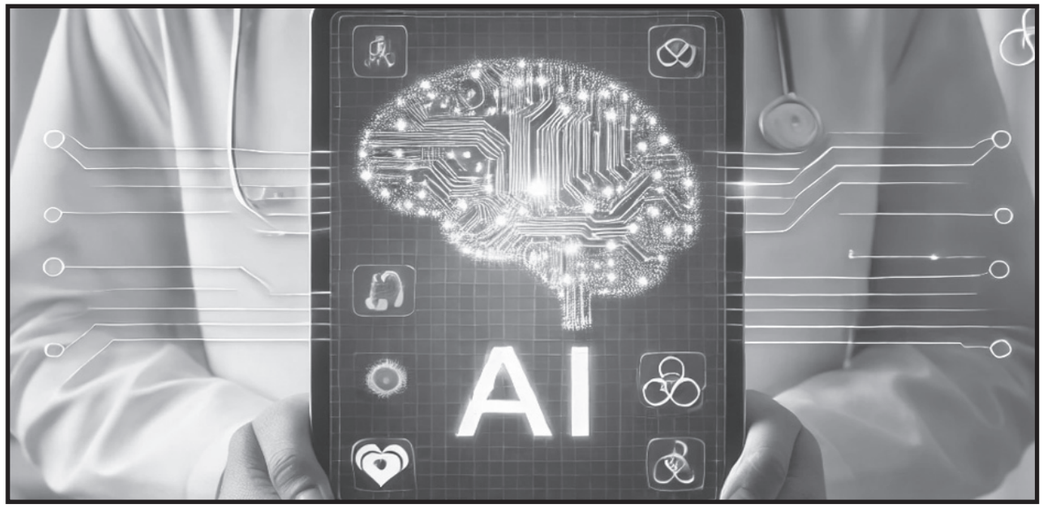

المراجع و المصادر

الخراز، عبد الكريم. (2022). الذكاء الاصطناعي والمسؤولية القانونية: دراسة مقارنة. مجلة القانون والتكنولوجيا، العدد 14، جامعة محمد الخامس، الرباط.

الصديقي، فاطمة الزهراء. (2023). حماية المعطيات الشخصية في المجال الصحي الرقمي بين القانون والأخلاق. مجلة الدراسات القانونية المعاصرة، المجلد 7، العدد 2.

بوزوبع، عبد السلام. (2021). المسؤولية المدنية عن أخطاء الذكاء الاصطناعي في المجال الطبي. مجلة الحقوق والعلوم القانونية، العدد 19، جامعة القاضي عياض.

أبو غزالة، منى. (2020). الأخلاقيات الطبية في عصر الذكاء الاصطناعي. المركز العربي للبحوث القانونية، القاهرة.

بنسعيد، هشام. (2019). التحول الرقمي في القطاع الصحي المغربي بين التشريع والممارسة. مجلة القانون والمجتمع، العدد 11، الرباط.

European Commission. (2020). White Paper on Artificial Intelligence: A European Approach to Excellence and Trust. Brussels: European Union.

Floridi, L., & Cowls, J. (2019). A Unified Framework of Five Principles for AI in Society. Harvard Data Science Review, 1(1).

Price, W. N., & Cohen, I. G. (2019). Privacy in the Age of Medical Big Data. Nature Medicine, 25(1),

World Health Organization. (2021). Ethics and Governance of Artificial Intelligence for Health. Geneva: WHO Press.

Mittelstadt, B. (2022). Principles Alone Cannot Guarantee Ethical AI. Nature Machine Intelligence, 4(2),

OECD. (2019). Recommendation of the Council on Artificial Intelligence. Paris: OECD Publishing.

Goodman, B., & Flaxman, S. (2018). European Union Regulations on Algorithmic Decision-Making and a Right to Explanation. AI Magazine, 38(3).

London, A. J. (2021). Artificial Intelligence and the Human Doctor: Redefining the Medical Relationship. The Lancet Digital Health, 3(6),

مواقع إلكترونية

UNESCO. (2021). Recommendation on the Ethics of Artificial Intelligence. Retrieved from https://unesdoc.unesco.org

European Parliament. (2023). Report on Artificial Intelligence in a Digital Age. Retrieved from https://www.europarl.europa.eu

CNDP Maroc. (2022). Guide de la Protection des Données Personnelles dans le Secteur de la Santé au Maroc.

الفضاء الرقمي: آليات تسليع العلاقات الأسرية والجندرية

سومية العناني
باحثة في علم الاجتماع
جامعة محمد الخامس الرباط

ملخص

يهدف هذا المقال إلى طرح إشكالية استثمار العلاقات الأسرية عبر الوسائط الرقمية، وتسليع الجندر في العلاقات الزوجية لتحقيق الربح المـادي. كما يتطرق لأهمية منهجية "إثنوغرافيا الواب"، المعتمدة في مقاربة وفهم أشكال التفاعلات النسوية في الثقافة الرقمية، والكيفية التي يتم من خلالها الاستثمار في العلاقات الجندرية والأسرية. ليبحث هـذا العمل في أمرين أساسيين: أولًا، تسليع الجندر في العلاقات الزوجية، إذ تُظهر التغيرات الثقافية، والاقتصادية، والاجـتـماعـيـة في الـوسـائـل الرقمية "كاليوتوب" و"الانستغرام"، الحركية التي تعرفها النساء كمؤثرات اجتماعيات على مستوى الأدوار والوضعيات الاجتماعية، باعتبارهن فاعلات في الثقافة السيبرانية. وفي مستوى ثـانٍ، يبحث هـذا العمل في الحميمية الأسريـة العابرة للحدود، والقائمة على الهيمنة الاقتصادية كمحدد أسـاسي في إعـادة تشكيل العلاقات الجندرية وفق التمايز الجنساني، بمعنى أن القوة الاقتصادية التي تمارسها الوسائط الرقمية، تعمل كقوة إكراهية في تحديد الخيارات الشخصية والمهنية، وبالتالي إلـحـاق مجموعة مـن التحولات على الأدوار الأسرية وفق التقاليد المرقمنة. كما يتم عرض أهم النتائج المستخلصة من الدراسة الميدانية، لأشكال هذه الممارسات الاستثمارية عبر الفضاءات الرقمية "كاليوتوب" و"الإنستغرام".

الكلمات المفتاحية: التسليع، العلاقات الاسرية، الجندر، التمايز الجنساني، الثقافة الرقمية.

Abstract

This article aims to raise the issue of investment in family relationships through digital media and the commodification of gender in marital relationships for financial gain. It also addresses the importance of the "web ethnography" methodology, adopted to approach and understand the forms of feminist interactions within digital culture, and the ways in which gender and family relations are invested in.This work explores two main axes:Firstly, thecommodification of gender in marital relationships. The cultural, economic, and socialtransformations brought about by digital platforms such as YouTube and Instagram reveal thegrowing mobility of women as social influencers in terms of roles and social positions,positioning them as active agents within cyberculture.Secondly, it examines cross-borderfamily intimacy, shaped by economic domination as a key factor in redefining genderrelations according to gender-based distinctions. In this context, the economic power exertedby digital media functions as a coercive force in determining personal and professionalchoices, thereby generating a series of transformations in family roles in line with digitizedtraditions.The article also

presents the main findings from the fieldwork study on how thesein-vestment practices manifest across digital platforms such as YouTube and Instagram.

مقدمة

شكل تسليع العلاقات الأسرية والجندرية من قبل بعض النساء المغربيات، من خلال إنتاج محتوى رقمي عبر القنوات الرقمية، آلية لتحقيق الربح المادي في سياق الثقافة الرقمية الاستهلاكية، وذلك بالسعي إلى جلب أعلى نسبة من المشاهدة والمتتبعين. حيث شكلت الفضاءات الرقمية، بفضل الأنترنت في المجتمعات ما بعد الحداثة، ساحة جديدة وفضاء مفتوحا لجميع العلاقات والتفاعلات الاجتماعية، بحيث لا يشترط في تأسيس هذه القنوات الرقمية بيئة جغرافية محددة أو بناء محدد لها كما هو معلوم في الجماعات التقليدية (إيناس محمود1). ولكن تتم هذه الجماعات الرقمية عن طريق صناعة محتوى معين للفرد التفاعلي باستخدام تقنية العبور إلى الجماعة المشتركة، والتي يُطلق عليها الجماعات الافتراضية.ومع تطور هذه الأخيرة أدرك الباحثون في مجال علم الاجتماع بضرورة تأسيس فرع سوسيولوجيجديد يهتم بدراسة هذه المجتمعات الرقمية، والذي سُمي بعلم الاجتماع السيبراني)رحومة 22(.وبتطور هذا الأخير ظهرت مصطلحات جديدة كالثقافة الرقمية والفضاء السيبراني نتيجة الاستخدام المكثف للتكنولوجيا الإلكترونية)سنوسي 309(. إن انتشار مفهوم الثقافة الرقمية في المجتمعات الحديثة قد ارتبطبالربح المادي عبر الأنترنت، وذلك بصناعة محتوى معين ومشاركته مع جمهور واسع لتحقيق دخل مادي، حيث أصبح هذا الأمر واقعا لا يمكن إنكاره، وبسط نفوذه على جميع المجتمعات وألقى بظلاله على كل مناحي الحياة. لقد أضحت الثقافة الرقمية في سياق تحقيق الربح المادي توجها يوجه سلوك الانسان ووعيهبذاته ومحيطه الاجتماعي) رحومة 26(.

إن إنتاج المحتوى الرقمي كجزء من الثقافة الرقمية هو من أبرز مظاهر هذه الأخيرة في يومنا هذا، حيث يمتلك الأفراد القدرة على إنتاج ومشاركة محتوى رقمي بثقة في مختلف المجالات، مثل مقاطع الفيديو، المدونات، المحتوى الصوتي) سنوسي 310(. فهذه القدرة على الإنتاج والمشاركة تعكس التحول من الفرد المتلقي إلى الفرد المتفاعل النشط،وذلك بتحقيق الاستقلالية في نشر ومشاركة الحياة الخاصة وتشجيع التفاعل الفوري بين صناع المحتوى والجمهور، حيث أصبح كل فرد قادراً على أن يكون منتجا للمحتوى عبر منصات عابرة للحدود،مثل "اليوتوب" و"الإنستغرام" و"التيك توك" وليس مجرد متلقي فقط. ويمكن للمتتبعين التفاعل مع المحتوى من خلال الإعجاب، التعليقات، والمشاركة، وهذه التفاعلات التي تشكل جزءاً من الثقافة السيبرانية تجلب لصانع المحتوى ربحاً مادياً، ما يجعله يستمر في صناعة المزيد من مقاطع الفيديو حتى إن كان ذلك على حساب علاقاته الشخصية والأسرية.

الإشكالية:

في القرن الواحد والعشرين، عرفت الأسرة المغربية بارتباطها بالوسائط الرقمية مجموعة من التغيرات، على مستوى الأدوار والوضعيات الاجتماعية. حيث تسعى مجموعة من النساء إلى نقل الحياة الخاصة من مجال خاص إلى مجال عام رقمي، قابل للفرجة، وذلك عبر مواقع التواصل الاجتماعي، من أجل الاستثمار في العلاقات الأسرية والجندرية لكسب الربح المادي.

يعد الفضاء الرقمي مجالاً ممتداًللأدوار الجندرية ضمن العلاقات الأسرية، لذلك يعتبر جانباً مهما لدراسة القضايا الاتصالية المرتبطة بالأسرة والجندر. فقد ظهرت في الآونة الأخيرة مجموعة من النساء على مواقع التواصل الاجتماعي،يستعرضن علاقاتهن الأسرية بصفة عامة والزوجية بصفة خاصة عبر قنوات رقمية مرئية ومسموعة أُعدت لهذا الغرض، من أجل تحقيق ربح مالي. وذلك من خلال محاولاتهن في كسب أكبر عدد ممكن من المتابعين والمشاهدين، حيث تقوم هؤلاء النساء اللواتي يُدْعَيْنَ"باليوتوبرز"[1]بصناعة 1بصناعة محتوى ينقل قيما، واتجاهات، ومعتقدات، ترتبط بأسرهن وحياتهن الخاصة إلى عالم الانترنت، بهدف التأثير في المتلقي وكسب متابعته، ما جعلهن فاعلات في الثقافة الرقمية.

إن مجموع التغيرات الثقافية، والاجتماعية، والاقتصادية في فضاءات "اليوتوب" و"الإنستغرام" و"التيك توك"، تؤكد على الحركية التي تعرفها النساء "اليوتوبرز" على مستوى الأدوار الأسرية والوضعيات الاجتماعية، باعتبارهن فاعلات في الثقافة الرقمية. وبهذا، نتساءل من خلال هذا المقال حول إشكالية أساسية مفادها:**أهمية الاستثمار الرقميفي تعزيز تسليع العلاقات الجندرية والأسرية عبر الوسائط الرقمية؟**

الفرضيات:

1. انتشار القنوات الرقمية في مواقع التواصل الاجتماعي ارتبط بالاستثمار في العلاقات الأسرية والجندرية من أجل الربح المادي.

2. الحركية التي تعرفها هويات العديد من النساء وأدوارهن الجديدة تشير إلى جنسانية معاصرة قائمة على التقسيم الجنسي للعمل والتمايز الجنساني.

الهدف: تهدف هذه الدراسة إلى معرفة مدى إمكانية الحديث عن أسرة عابرة للحدود من خلال حركية النساء عبر القنوات الرقمية. كما يهدف من جهة ثانية إلى إبراز استراتيجيات المؤثرات الاجتماعيات عبر الوسائط الرقمية في عملية الاستثمار في العلاقات الجندرية والأسرية.

الأهمية: تتجلى أهمية هذه الدراسة في تسليط الضوء على دور الكسب المادي عبر القنوات الرقمية في تغيير الأدوار الأسرية والوضعيات الاجتماعية.

المنهجية والمنهج: تفرض علينا طبيعة الموضوع تبني منهجية "إثنوغرافيا الواب"، إذ نتوخى مقاربة كيفية بالاعتماد على المنهج التحليلي الوصفي، وهي طريقة كيفية تعتمد على أداة الملاحظة وتحليل المحتوى.

الدراسات السابقة:

على الرغم من تعدد الدراسات حول دور المؤثرين الاجتماعيين في تسليع العلاقات الجندرية عبر الوسائط الرقمية، إلا أنها لم تعر اهتماما خاصا بالكيفية التي تؤدي بها عملية تسليع العلاقات الجندرية إلى تغييرات في العلاقات الأسرية ودور المرأة في تعزيز هذه الديناميكيات، في سياق الثقافة الرقمية الاستهلاكية. حيث ركزت دراسة"Freberg"وآخرون (2011) على فهم الكيفية التي يتم بها إدراك الجمهور للشخصيات المؤثرة وأهمية سماتهم الشخصية في بناء الثقة مع الجمهور. بينما وسعت دراسة"Abidin"(2015) النقاش حول ذلك، مبرزة كيف يعزز المؤثرون علاقاتهم بمتابعيهم من خلال مشاركة حياتهم الشخصية والتفاعل عبر مواقع التواصل الاجتماعي، مع تحليل دور "الإعلانات التحريرية" كوسيلة تسويق صادقة مقابل رسوم.

من جهة أخرى، ناقشت كل من"Dawn" و"Collins"(2017)استهلاك الإيديولوجيات الأبوية وتسليع العنف ضد المرأة في ظل النيوليبرالية، موضحتين دور النساء في تعزيز النظام الأبوي، من خلال استهلاك منتجات وخدمات مسلعة. أما دراسة "Duffy"(2020)، فقد ركزت على التباينات الجندرية في مجالات الاقتصاد الرقمي، حيث هيمنت النساء على مجالات مثل الموضة والجمال، بينما سيطر الرجال على الكوميديا والتكنولوجيا، مما يعكس استمرار الأدوار الجندرية التقليدية في الاقتصاد الرقمي.

رغم أن الدراستين الأخيرتين اهتمتا بالثقافة الاستهلاكية ودورهافي تعزيز تسليع الأدوار الجندرية، فإنهما لم تستكشفا كيف يمكن أن تكون العلاقاتداخل الأسرة نفسها موضوعًا للتسليع الرقمي. حيث يمكن تناول تسليع الحميميةالأسرية والأدوار التقليدية للمرأة التي يتم تقديمها عبر القنوات الرقمية كمحتويات رقمية،والتي تعكس نماذج تنشئوية للأسرة.

المقاربة المنهجية للدراسة:

1. أهمية منهجية "إثنوجرافيا الواب"في المقاربة السوسيولوجيةعبر القنوات الرقمية

عندما أصبح الاقتصاد الرقمي يكتسي أهمية بالغة لدى الأسرة المعاصرة، بات التفاعل الرقمي والسعي لجلب أعلى نسبة من المشاهدات والمتتبعين للقنوات الرقمية أمراً ضرورياً لنجاح الاستثمار الرقمي،وقد مهد انتشار الأنترنت بشكل واسع في حياة الأفراد في مجتمع ما بعد الحداثة الأرضية للمستخدم للاستثمار عبر الإنترنت(2 Brodowicz). وبالتالي، من الضروريإعتماد مناهج بحثية تتماشى مع الظواهر الاجتماعية عبر الفضاء الرقمي، ومن المناهج الأكثر اعتمادا لدراسة المجتمع السيبراني هي منهجية "إثنوغرافيا الواب"(48 Hine)، التي تُعد من المقاربات البحثية الرائدة في تحليل الثقافة السيبرانية في العالم الرقمي (59).

تُشير منهجية "إثنوغرافيا الواب"، في سياق السوسيولوجيا السيبرانية، إلى دراسة الممارسات، والسلوكيات الاجتماعية، والثقافية للأفراد والجماعات في الفضاء

الهوامش

1- يُطلق هذا الاسم على الشخص صانع المحتوى في موقع "اليوتوب"، والذي يكتسب شعبية من خلال مقاطع الفيديو الخاصة به.

الرقمي(Leavy 49). فهي عملية بحثية تهدف إلى فهم الأنشطة والرموز الثقافية التي تنتج عن التفاعلات البشرية في البيئات الرقمية، من خلال المشاركة المباشرة، الملاحظة المستمرة، والتحليل العميق للبيانات الرقمية المتاحة (Hine 65).

وفي هذا السياق، تعد هذه المنهجية مناسبة لمقاربة الإشكالية الأساسية لدراستنا الحالية، لكون هذه المقاربة تساعد الباحثة في تتبّع الأنشطة الاجتماعية في بيئات رقمية، وفهم كيفية تَشَكّل وتبادل المعاني المتعلقة بالعلاقات الأسرية والجندرية في سياقات تسويقية، حيث تصبح الزوجة،كفاعلة رقمية وهويتها في حد ذاتها سلعة ضمن الاستهلاك الرقمي. وبهذا تكمن أهمية "الإثنوغرافيا" الرقمية في إتاحة تحليل السلوكيات والأنماط الرقمية بعمق، من خلال التفاعل مع هذه البيئة. مما يسهم في فهم أعمق لكيفية تأثير الوسائط الرقمية على العلاقات الأسرية والجندرية في ظل الضغوطاتالاستثمارية الربحية الحديثة.

قمنا في هـذا الصدد باعتماد هذه المنهجية لفهم الكيفية التي تستعرض بها النساء المغربيات علاقاتهن الأسرية والأدوار الجندرية عبر القنوات الرقمية. بملاحظة عملية تسليع هذه الديناميكيات من خلال وضعيات مختلفة وذلك لمدة35 يوماً عبر موقعي"اليوتوب" و"الإنستغرام"، حيث مكنتنا من معرفة توجهاتهن وغاياتهن من عرض الحميمية الأسرية والأدوار التقليدية للنساء، وعلاقتها بالهوية التي تستخدمنها في عملية التشهير بمقاطع الفيديو الخاصة بهن.

1.1. مفاهيم الدراسة:

اعتمدنا في دراسة الإشكالية الأساسية في هذا العمل على ثلاثة مفاهيم رئيسية، وذلك وفق أبعاد سوسيولوجية لكشف الغموض عن العنوان الرئيسي لهذا المقال، بغية استثمارها بشكل فعال في ثنايا التحليل، وهي كالتالي:

أ. السلعنة: وهي تلك العملية التي تحول شيئا ما غير تجاري من قبل، إلى شيء استثماري له قيمة اقتصادية. وفي سياق هذا العمل، نقصد بهذا المفهوم الكيفية التي تُستعرض بها العلاقات الأسرية والجندرية عبر الوسائط الرقمية كمنتجات استهلاكية. ووفقا للباحثتين "Dawn" و"Collins" في دراستهما السابقة)4(، نُعرف هذا المفهوم كظاهرة نقدية، تعمل على تعزيز النظام الأبوي كمعيار تجاري عن طريق إعلانات تقوم بتقديم أدوار نمطية للجنسين بطريقة مرغوبة ومحبذة، وذلك باستغلال الهويات والتوقعات المرتبطة بالنوع الاجتماعي لصالح الكسب المادي.

ب. إعادة الإنتاج: يتناول الدارسون في سوسيولوجيا النوع الاجتماعي كلمة إعادة الإنتاج لدلالة على فكرة الجنسانية، وهي بهذا المعنى تتعلق بالتمايز الجنساني القائم على إعادة إنتاج مجموعة من القيم الذكورية. وفي صدد هذه الدراسة، نركز على هذا المفهوم من خلال فهم ما تقوم به النساء عبر القنوات الرقمية، والذي يتجلى في تكريس هذا التمايز الجنساني. وفي هذا الإطار، يعرّف "David Gauntlett" هذا المفهوم بأنه نظام يقوم على استمرارية التفاوتات بين الجنسين عن طريق وسائل الاعـلام)5(. وفي نفس التوجه واستنادًا على ما قدمته الباحثة "Dawn" وآخرون، يعرّف هذا المفهوم على أنه نظام قائم على الترابط القوي بين النظام الذكوري والنظام الاستهلاكي عبر الوسائط الرقمية (1).

ت. الأسرة العابرة للحدود: نحاول من خلال هذا المفهوم مناقشة إمكانية التفكير في الأسرة العابرة للحدود[2] في سياق الثقافة الرقمية، وذلك من خلال الاستهلاك الثقافي الرقمي (Harry et al. 4-5)، المقترن بالوسائط الرقمية التي تعمل كأدوات ترويجية. واستنادًا إلى رؤية مفادها أن الأسرة تستميل لتقديس مهنتها كمشروع مهني، يَعبُر هذا المفهوم حدود كفاءته ويتحول إلى علاقات بين الأفراد عن طريق إنشاء قنوات رقمية ترويجية ثقافية تعبر الحدود الجغرافية والثقافية، مما يجعل العلاقات الأسرية مكشوفة من قبل الجميع. فهذا التعريف يمكننا من القول بإعادة تشكيل مفهوم الأسرة عن طريق انتقالها من مجال خاص ومغلق إلى مجال عام وشفاف عبر الفضاء الرقمي، والذي يعمل على تجديد مفهوم الاسرة من خلال آليات أساسية تتجلى في تعزيز الحرية، والانفتاح التواصلي، والتعرية الطوعية لخصوصيات الأسرة. ومن هنا نستحضر مفهوم الأسرة العابرة للحدود للدلالة على الأسرة المكشوفة عبر مواقع التواصل الاجتماعي.

وفي دراستنا للإشكالية الأساسية، ساعدتنا المقاربة الكيفية على رصد أهم التحولات الثقافية، والاجتماعية، والاقتصادية التي عرفتها المرأة والأسرة المغربية في ارتباطها بالثقافة الاستهلاكية الرقمية، تلك الثقافة التي ظلت عبر الفضاء الرقمي ملحوظة وصـارت تتجه أكثر نحو الأسرة والأدوار الجندرية.

2.1. المرأة فاعلة في الثقافة الرقمية: الأدوار الجندرية والأسرية

استنادًا إلى الملاحظة الميدانية ومراقبة التفاعلات في المنصات الرقمية، وفرت هذه الأخيرة فرصًا واسعة للتعبير عن الذات ومشاركة الأفكار والتجارب الشخصية، "كاليوتوب" و"الإنستغرام"، حيث أصبح بإمكان المـرأة إنشاء قناة رقمية يعكس محتواها هويتها الشخصية، والثقافية، وتجاربها الشخصية)245 (Herman. فقد أصبحت العديد من النساء المغربيات يقمن بنشر مقاطع فيديو عن حياتهن اليومية والمهنية، وحتى تجاربهن الشخصية في الزواج والعلاقة مع الزوج وباقي أفراد الأسرة.

ضمن هذا الإطار، تسعى العديد من النساء "اليوتوبرز" إلى نقل الحياة الزوجية والأسريـة من مجال خاص إلى مجال عام مرقمنا، والاستثمار في أدوارهن التقليدية والحميمة الأسريـة، من أجل التأثير في المتلقي وجلب مشاهدته وتتبعه للقناة. وبالتالي الـوصـول إلى "الطوندونس"[3]. ويشير هذا الأخير إلى المواضيع والأحداث الاجتماعية المتكررة التي تكتسي شعبية كبيرة أو تحظى باهتمام كبير على منصات الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي boyd and Ellison 220)، بتصرف(على سبيل المثال، عندما يبدأ مستخدم الإنترنت في التفاعل مع فيديو معين بشكل جماعي، أو عندما يكتسب تحدي ما شهرة واسعة في مواقع مثل "اليوتوب"، فإن هذا يمثل "طوندونس".

وفي هذا السياق، نستحضر "اليوتوبر" المدعوة ب "أمي نعيمة" وهي من أبرز الشخصيات المغربية على منصة "اليوتوب"، حيث استطاعت هذه السيدة أن تبني قاعدة جماهيرية واسعة من خلال محتوى يومي عفوي، يعكس نمط الحياة التقليدي المغربي بقالب بسيط. ما جعلنا نختار هذه القناة كدراسة استكشافية هو كونها تركز على القيم الأسرية وروح العائلة، والأدوار التقليدية للمرأة. كما أن هذا الأمر جعلها

الهوامش

2 -للمزيد من التفاصيل حول سياق بداية تشكل مفهوم "العبر وطنية" المرجو الاطلاع على الكتاب التالي:

Glick Schiller, Nina, Linda Basch, and Cristina Szanton Blanc. Towards a Transnational Perspective on Migration: Race, Class, Ethnicity, and Nationalism Reconsidered, New York Academy of Sciences, 1992.

3- ارتبط هذا المفهوم بموقع "اليوتوب"، حيث تقوم المنصة بالبحث على الفيديوهات الأكثر تفاعلًا والتي تحقق نسب مشاهدة مرتفعة، وترتيبها تلقائيا في قائمة تُظهر للمستخدمين جميع فيديوهات الأحداث العالمية الأكثر مشاهدة.

قريبة من جمهورها، خاصة في العالم العربي. وتملك حوالي 898,000 مشترك منذ انطلاقها في عام 2019، حققت القناة أكثر من 214 مليون مشاهدة عبر 907 فيديو، وهو عدد مهم.

وعليه، السؤال المطروح هنا هو: ما الذي تقوم به هذه المرأة في قناتها عبر "اليوتوب"؟، فمن خلال العودة إلى قناتها الخاصة ومشاهدة مقاطع الفيديو التي تقوم بنشرها، تبين أنها تقدم محتوى متنوعًا ضمن أجواء البادية، محتوى يجمع بين الطبخ المغربي التقليدي، الحرف اليدوية، والتجارب اليومية التي تعيشها مع أسرتها. يَبرز في مقاطع الفيديو الخاصة بها الاستخدام البسيط للغة المغربية عن حياتها الواقعية. علاوة على ذلك، يلاحظ رغبتها في الحفاظ على الموروث الثقافي المغربي، ويتجلى ذلك في إعداد الأطباق المغربية الأصيلة والتحدث عن تقاليد الأسر المغربية. وعليه، تظهر هذه السيدة كشخصية منفتحة تسعى إلى إنجاح قناتها عن طريق التنوع والتعبير عن الثقافة)جودي 103(، وكما تشير الباحثة "جودي"، فهذا الأمر هو ما يؤكد أن المرأة أصبحت تهتم بكيفية بنائها لهويتها وإدارتها كعملية تنطوي على إعلان الهوية ثم تثبيتها من طرف المتتبعين في البيئة الافتراضية) 102؛ بتصرف(. وبهذا، فالهوية الرقمية التي تقوم "اليوتوبر" ببنائها عبر قناتها الرقمية وفق المعايير التي تختارها لتقديم نفسها عبر الفضاء الرقمي، جعل هذه الهوية تتخذ أشكالاً متعددة وتكتسب طابعًا يعكس البيئة الاجتماعية السيبرانية المحيطة بها. هذه البيئة تؤثر على الممارسات الافتراضية بشكل أو بآخر (Adhiarso et al. 36-37)، مما أدى إلى ظهور رموز تعكس الالتزام الجندري في الفضاء الافتراضي، ويأتي ذلك ضمن مسعى لتقديم صورة مقبولة اجتماعيًا.

من السمات المميزة لقناة "أمي نعيمة" هي ظهور الزوج في العديد من أشرطة الفيديو، حيث يعكس تواجده علاقة ودية مليئة بالحب والاحترام المتبادل. وغالبًا ما يظهر في مواقف عفوية وطريفة، مما يضفي على المحتوى جانبًا ترفيهيا يلقى استحسان المتابعين. وفي بعض الفيديوهات، يظهر الزوج كذلك وهو يساعد زوجته في الأعمال المنزلية، وقضاء الأنشطة اليومية البدوية، مما يعكس صورة شراكة متكاملة. ليتضح هنا، ان هذه "اليوتوبر" تقوم بتسليع سمعتها كزوجة وربة بيت، لتصبح هذه السلوكيات الشخصية وسيلة فعالة لجذب الجمهور واستقطاب الطوائف المختلفة) جودي 108(. هذا الجانب يجعل الجمهور يشعر بالقرب من حياتهم اليومية ويعطي رسالة إيجابية حول أهمية التعاون داخل الأسرة، مما يساهم في تفاعل الجمهور بشكل كبير مع حضور الزوج في مقاطع الفيديو.

يعتبر هذا التفاعل مصدر إلهام للكثيرين حول كيفية الحفاظ على علاقات إيجابية داخل الأسرة، رغم بساطة الإمكانيات. إلى جانب ذلك، تساهم هذه العلاقة في كسب ثقة المتابعين، حيث يشعرون أن المحتوى حقيقي وعفوي بعيدًا عن التصنع، مما يعزز من شعبية القناة وانتشارها، وكما ذكر "فريبيرج" وآخرون في دراسة حول "من هم المؤثرون على مواقع التواصل الاجتماعية"، إن مستخدمي الإنترنت يبنون ثقة الجمهور من خلال إظهار السمعة الطيبة عبر قنواتهم)2(. ومن جهة ثانية، يلاحظ أنه على الرغم من التفاعل الإيجابي الكبير، فقد واجه ظهور "اليوتوبر" "أمي نعيمة" رفقة زوجها بعض الانتقادات من قبل من يرون أن الحياة الشخصية يجب أن تبقى بعيدة عن أعين المتابعين. ففي مقال نشر سنة 2019 على موقع "إيلاف" بعنوان "مشاركة تفاصيل يومياتنا الخاصة على مواقع التواصل الاجتماعي"، تؤكد الكاتبة على أن مشاركة الحياة اليومية بكل تفاصيلها يؤدي إلى عواقب وخيمة، ومنها فقدان الخصوصية)شلبى(. وبالتالي، جعل الحياة الأسرية والعلاقات الزوجية شفافة بحيث يمكن لكل شخص مشاهدتها. وفي هذا الصدد تصبح الأدوار الجندرية داخل الأسرة منتجات استهلاكية في الاقتصاد الرقمي؛ تعمل صاحبة القناة على جعل هويتها وتوقعاتها المرتبطة بالأدوار الجندرية ضمن العلاقات الزوجية كمشروع أسري في سياق الثقافة الاستهلاكية الرقمية. ومن جهة ثانية، تشير بعض الدراسات إلى أن مشاركة الفرد للجوانب الإيجابية للحياة الخاصة تسهم في تعزيز الروابط الاجتماعية، ليؤكد مقال منشور سنة 2023 على أن مواقع التواصل الاجتماعي تساهم في حصول الفرد على الدعم والمشاركة وكذلك النقد)إيجابيات وسلبيات استخدام وسائل التواصل الاجتماعي للأغراض الشخصية(. حيث تعمل كل هذه التفاعلات من قبل المتلقي، على نجاح المقطع ووصوله إلى أعلى نسبة من المشاهدة والتفاعل. يؤكد الثنائي بقناة "أمي نعيمة" في العديد من المناسبات أن هدفهما هو مشاركة الإيجابية والتقاليد المغربية مع العالم. وفي هذا السياق يتضح أن ما تقوم به هذه السيدة عبر قناتها يجعل منها فاعلة في الثقافة السيبرانية.

3.1. البعد الاستعراضي للعلاقات الأسريـــة والجـنـدريـة في العالم الافتراضي

هناك مجموعة من الاستراتيجيات التي تسعى من خلالها النساء "اليوتوبرز" كفاعلات في الثقافة الرقمية في إنجاح قنواتهن، ويمكن إجمالها في استراتيجيتين أساسيتين: أولًا، عرض الجندر ضمن العلاقة الزوجية وفق مجموعة من التقاليد المرقمنة، كما اتضح لنا من خلال قناة "أمي نعيمة" فقد ظهرت في العديد من مقاطع الفيديو كمسؤولة عن الأعمال المنزلية مثل الطهي، والتنظيف، ما يعني تحويل الأدوار الجندرية التقليدية إلى منتجات أو صور تسويقية تستخدم لجذب الانتباه.

ثانيًا، نقل الأسرة من حميمية أسرية إلى حميمية عابرة للحدود. فالقنوات الرقمية لم تعد مجرد فضاءات للتسلية، بل هي قوة إكراهية على الافراد نجدهم يتأثرون ويأثرون بكل ما يتلقونه عبر هذه الوسائط الرقمية، وفي كثير من الأحيان نجد هؤلاء النساء تبحث عن هوية جديدة ضمن مشاريع أسرية تجارية تعمل على تسليع الجندر والعلاقات الاسرية من أجل الربح المالي.

وفي هذا السياق، نستحضر "اليوتوبر" "أسماء بيوتي"، التي لا تعمل فقط على مشاركة الحياة الزوجية عبر قناتها وإنما

تتعدى ذلك بعرض مختلف الروابط الاجتماعية التي تجمعها بعائلة الزوج. وهي مؤثرة اجتماعية مغربية تكتسي شعبية كبيرة على موقع "اليوتيوب"، حيث تُقدم محتوى متنوعًا يتعلق بالجمال، الموضة، ونمط الحياة، والعلاقات الأسرية. وقد بلغ عدد المتتبعين لقناتها أكثر من 2.54 مليون مشترك، وهو عدد لا يستهان به، وتضم أكثر من 965 مقطع فيديو.

تم اختيار قناة "أسماء بيوتي" في هذه الدراسة كنموذج لمحتوى رقمي يعمل على استعراض الحميمية الأسرية أمام الجمهور. وعليه، فإن هذا النوع من المحتوى يثير تساؤلات سوسيولوجية، تتجلى حول الحدود بين الحياة الخاصة والمحتوى العام، ما يوسع الجدال حول إدماج الخصوصية الأسرية كأداة لجذب المتتبعين واكتساب الشعبية. ويُبرز نجاح هذه القناة أهمية عرض محتوى شخصي أسري لبناء محتوى رقمي واسع ومتفاعل. غير أنه لابد من الانتباه إلى الآثار الاجتماعية، التي قد تترتب عن مثل هذا النوع من المحتوى، خصوصًا في ظل الانتقادات التي تُوجَّه لبعض الشخصيات المؤثرة بسبب العبء الذي تلقيه عليهم الشهرة.

النجاح الذي حققته القناتان معا عن طريق إظهار الأدوار التقليدية داخل الأسرة وعرض تفاصيل الحياة الأسرية في العديد من الفيديوهات عبر الفضاء الرقمي، يعكس عملية إعادة التمايز الجنساني، وهذا

ما أكدت عليه الدراسات حول المؤثرون على مواقع التواصل الاجتماعي، على أن هناك تباينات جندرية في مجال التأثير الرقمي "فالنساء تستثمرن في مجال الموضة والجمال، بينما الرجال حاضرون بقوة في مجالات الكوميديا والتكنولوجيا" (Duffy 2). لقد أصبحت المرأة تُعرف ليس فقط بدورها التقليدي كزوجة أو أم داخل الأسرة، ولكن أيضًا كصانعة محتوى رقمية قادرة على تسويق حياتها الشخصية عن طريق إعادة إنتاج الجندر وفق تقاليد مرقمنة. لتعمل "اليوتوبر" "أمي نعيمة" على إعادة إنتاج الأدوار الجندرية بشكل يتماشى مع ثقافة العصر الرقمي. وفي نفس السياق ساهمت "أسماء بيوتي" بدورها بعرض التفاوتات الجندرية بطريقة غير مباشرة في أغلب مقاطع الفيديو، وذلك بتقديم صورة المرأة الناجحة والمتميزة حيث ارتبط هذا النجاح بمجالات التجميل، والأمومة وهو مجال تقليدي للمرأة، لتُظهر بذلك أن المرأة تظل رغم كل نجاحاتها مسؤولة على البيت وتربية الأطفال، ما يعكس الصورة النمطية للأدوار الجندرية التقليدية.

وعليه، تُظهر هذه الحركية أن النساء في سياق الثقافة الرقمية تعملن على إعادة تقديم أدوارهن التقليدية ضمن قوالب جندرية جديدة، تتماشى مع منطق اقتصاد المشاهدات الرقمية. ويعود ذلك إلى التركيز الكبير على الحياة الشخصية في انتاج المحتوى، ما يؤدي إلى إعادة إنتاج الصورة التقليدية التي تربط النساء دائمًا بالأدوار العائلية والجندرية، وترسيخ التمايز الجندري ولكن بصيغة جديدة. ووفقا "لنانسي فريزر"، فيما يتعلق "بالمرأة في المجال العام"، فإن ظهور النساء في فضاءات عامة عبر الإنترنت يُظهر تحديا واضحا للحدود التقليدية بين الحياة الخاصة والعامة. ومع ذلك، فإن هذه المشاركة للحياة الخاصة تؤدي أحيانًا إلى استغلال جندري، حيث تُستخدم حياة النساء الخاصة كوسيلة تسويقية لجذب المشاهدين (Fraser 57).

عرض نتائج الدراسة وتحليلها:

2. الأسرة العابرة للحدود والجندر في سياق الاقتصاد الرقمي

سنعمل في هذا الجزء على تحليل الطريقة التي يتم بها خلق استثمارات ربحية رقمية عن طريق استغلال العلاقات الأسرية والجندرية كمنتجات اقتصادية، مع إدراك النسق الاجتماعي والثقافي للجنسانية ضمن هذه الاستثمارات، التي أصبحت تعمل على تنميط الاقتصاد الرقمي للنساء، وفق الجندر المبني على قوالب تقليدية مرتبطة بوظائفهن داخل الأسرة والمرتبط بالواقع السيبراني. ثم صناعة المحتوى الربحي الذي صار يؤسس في المجتمعات المعاصرة سلطة على الحضور النسوي عبر الفضاء الرقمي ما يدفعهن لتحقيق الربح ولو على حساب مشاركة خصوصية الأسرة، ما ساهم في طرق الباب حول مفهوم الأسرة العابرة للحدود، ولتوضيح هذا الجزء بشكل أفضل نعرضه وفق التقسيم التالي:

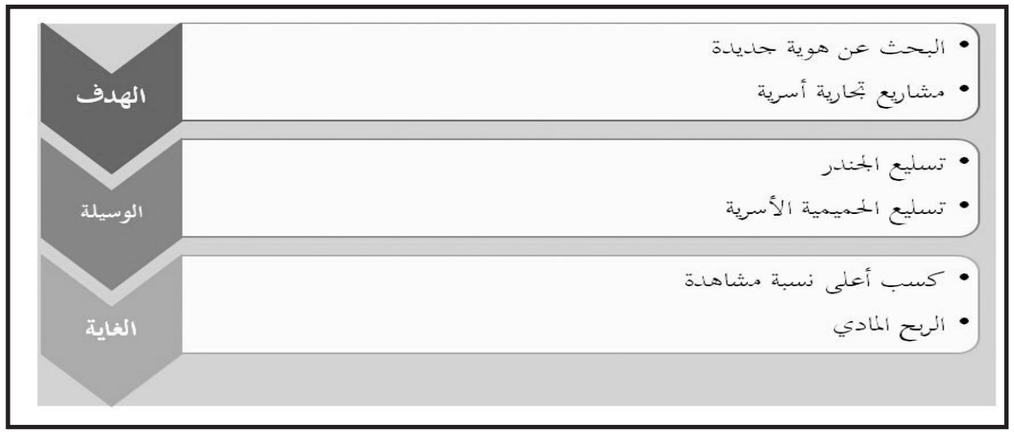

مخطط رقم 1: المحتوى الرقمي (نتائج الدراسة الاستكشافية)

1.2. تسليع العلاقات الجندرية والأسرية في سياق ثقافة صناعة المحتوى

في إطار العلاقات الاجتماعية والجندرية عبر الوسائط الرقمية يشير الرسم البياني التالي إلى مفهومين مترابطين يعكسان تأثير الثقافة الاستهلاكية الرقمية على الأسرة. أولًا، تسليع الجندر ويتجلى في تحويل الأدوار والهوية الجندرية ضمن العلاقات الأسرية إلى سلع قابلة للاستهلاك والتسويق، عبر قنوات رقمية أعدت في سياق مشاريع أسرية لجلب الأرباح المادية، ليتم عرض الصور النمطية وإعادة إنتاجها بطريقة تجذب المشاهدين، مثل التركيز على أدوار المرأة كزوجة وربّة بيت بطريقة تسويقية تعمل على بناء الشهرة وزيادة المتتبعين. ثانيًا، تسليع الحميمية الأسرية ويتمثل في عرض اللحظات الحميمية الأسرية وأحيانا الخلافات والصراعات داخل الأسرة كما سنوضح لاحقًا، كوسيلة لجذب المشاهدين من خلال نشر مقاطع فيديو حول التفاعلات اليومية بين أفراد الأسرة والأزواج بطريقة تثير عاطفة الجمهور وتدفعهم لمتابعة المحتوى، مما يحوّل الحميمية الأسرية إلى جزء من اقتصاد المحتوى الرقمي)المخطط رقم 1(.

كما أشرنا سابقًا، إن مجموع التغيرات الثقافية، والاجتماعية، والاقتصادية في فضاءات "اليوتوب" تؤكد على الحركية النسوية في الثقافة السيبرانية. وتعمل هذه الحركية الجديدة على تأجيج السؤال حول دلالات الأسرة في المجتمعات المعاصرة وحول الهويات الجندرية وحول الجنسانية بشكل عام، التي سارت محكومة بالوسائط الرقمية وفق مجموعة من التقاليد المرقمنة حيث يمكن القول إن انتشار العديد من القنوات الرقمية مرتبط بالاستثمار في العلاقات الزوجية وبالعلاقات الجندرية) المخطط 1(. إذا كانت الدراسات في القرن الماضي قد أكدت على دور الوسائط الرقمية في خلق المساواة بين الجنسين وزعزعة الهيمنة الذكورية)اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا إسكوا (27 ، فإن الحركية التي تعرفها هويات العديد من النساء وأدوارهن الجديدة تشير إلى جنسانية معاصرة قائمة على التقسيم الجنسي والتمايز الجنساني.

كمثال على ذلك نستحضر "اليوتوبر" "أمي نعيمة"، فبالرجوع إلى مجموعة من

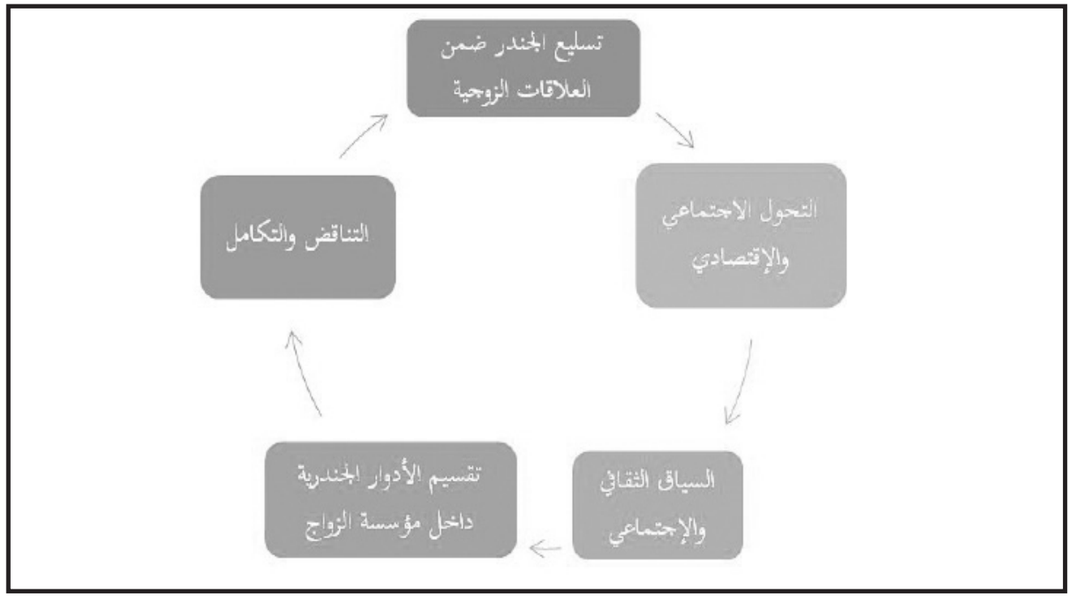

المخطط رقم 2 نتائج الدراسة الاستكشافية: إعادة إنتاج الأنماط الجندرية وفق منطق التناقض

مقاطع الفيديو المنشورة على قناتها، تبين لنا أن هذه السيدة استطاعت الانتقال من السكن في المجال القروي إلى المجال الحضري وشراء سيارة فخمة ومنزل راقي بعد كسب المال عن طريق مقاطع الفيديو الخاصة بها. ما تقوم به هذه السيدة هو مشاركة أدوارها الاجتماعية داخل مؤسسة الأسرة وفق تقسيم جماعي، حيث تظهر وفق مجموعة من شرائط الفيديو بتكليف زوجها بأن يقول: "أنا أرغب في أن تفعل جميع النساء لأزواجهن مثل ما تفعل زوجتي الآن"، حيث يظهر الزوج في مقطع الفيديو رفقة زوجته على سطح المنزل ليقول: "زوجتي قامت بغسل ملابسي وأنا صعدت لسطح المنزل حتى أساعدها في نشر الغسيل على الحبل"، إذن تعكس هذه "اليوتوبر" عبر هذا الفيديو تقسيم الأنوثة ضمن منطق التناقض الذي يقتضي التكامل داخل مؤسسة الزواج، ضمن مشاريع أسرية تجارية تعمل على تسليع الجندر بهدف الربح المادي.

يظهر هذا المخطط أن الرغبة في التحول الاجتماعي والاقتصادي عن طريق تسليع الجندر، أدت إلى التناقض بين تقسيم الأدوار التقليدية للمرأة وبين فكرة التكامل كرسالة في المحتوى. حيث أن هذا التناقض لا يسعى فقط إلى نقل صورة نمطية فقط، بل يعمل على تقديمها كإطار للتفاعل والربح. فالرسائل التي تم تقديمها عبر مقاطع الفيديو، مثل مساعدة الزوج في نشر الغسيل أو الإشادة بأفعال الزوجة، تُظهر أن المحتوى يعتمد على إبراز أدوار تقليدية يتم تقديمها في إطار متكامل ومتناقض، مما يُعيد إنتاج الأنماط الجندرية بشكل استثماري.

2.2. من الحميمية الأسرية إلى الأسرة العابرة للحدود: القنوات الرقمية كنماذج تنشئوية

تحولت القنوات الرقمية من عالم للتسلية والترفيه ومحاربة الفراغ الذي تعيشه بعض النساء المغربيات، إلى مشروع لجلب الأموال)أنظر المخطط رقم 3(. وذلك من خلال تصدر هذه القنوات مع مرور الوقت المراتب الأولى في نسبة المشاهدة، وبالتالي تربعها على "الطوندونس"2. فبعد دخول هؤلاء النساء عالم مواقع التواصل الاجتماعي أصبحن يقمن بإنشاء الفيديوهات اليومية ونشرها على حساب

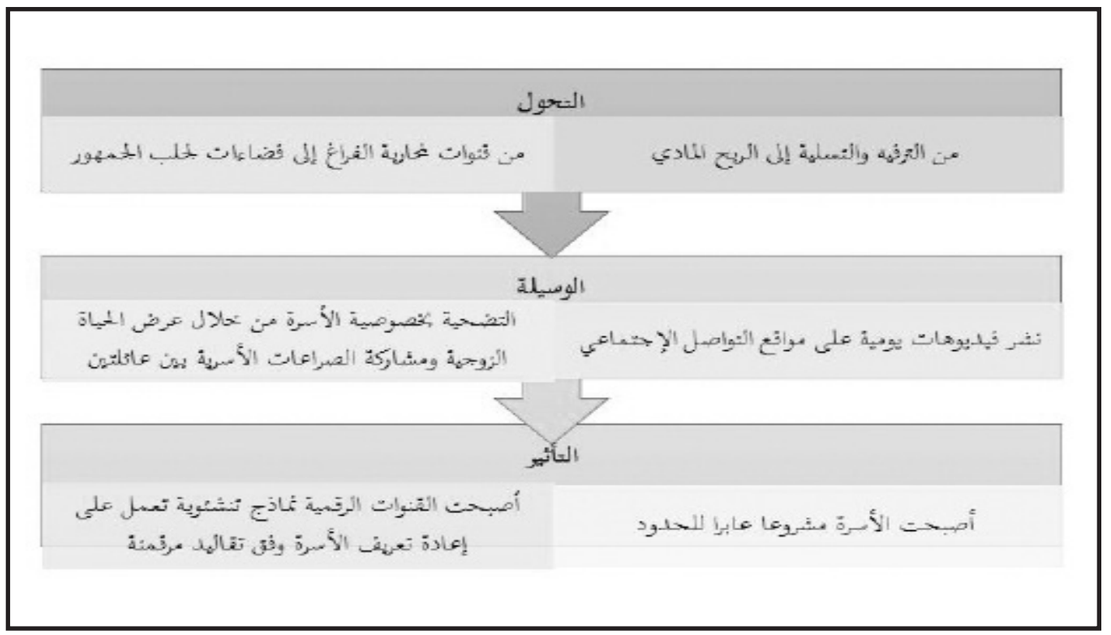

المخطط رقم 3: القنوات الرقمية كنماذج تنشئوية في إعادة تشكيل مفهوم الأسرة

العائلة التي لم تعد لديها خصوصية، فقد شوهدت أغلب لحظات حياتها على هذه القنوات الرقمية.

ضمن هذا الإطار، نستحضر قناة "اليوتوبر" "أسماء بيوتي"، حيث لم تكتفي هذه السيدة بعرض الحياة الزوجية وإنما تتعدى ذلك بمشاركة العلاقات الاجتماعية التي تربط بينها وبين عائلة الزوج. ليصبح الصراع القائم بين الأسرتين مرئي ضمن مجال ظهور مشترك عابر للحدود، يجعل منها موضوعا رئيسيا لكسب أعلى نسبة مشاهدة، وبالتالي مشروعا أسريا عابرا للحدود. فقد أضحت الفضاءات الرقمية نماذج تنشئوية تعمل على إعادة تحديد مفهوم الأسرة.

من ضمن مقاطع الفيديو المنشورة على هذه القناة، نستحضر الفيديو الذي يستعرض حفل عقيقة ابنة صاحبة القناة، بعنوان "الحمد لله اجتمعنا والفرحة صارت فرحتين أدامها الله علينا"، حيث يظهر المدعوون بوجوه مكشوفة وسط طقوس الاحتفال والرقص، لتتدخل أثناء الحفل إحدى الفنانات المغربيات وتقوم بالصلح بين "اليوتوبر" وعائلة الزوج، لتنتقل الصراعات العائلية من مجال خاص إلى فضاء عابر للحدود قابل للفرجة تصبح فيه العلاقات الأسرية والعاطفية استثمارًا من خلال مجموعة من الطقوس التي تعزز البعد الاستعراضي والاستهلاكي للحميمية.

وفي هذا السياق، تصبح الحميمية الأسرية شفافة ومكشوفة للجميع، وقائمة على حرية الاستعراض. وتُعد هذه الشفافية والحرية، حسب العديد من الدراسات جزءًا من نظام نيوليبرالي)ديفيد هارفي 8-9(. وتعمل هذه الشفافية على تفكيك مجموعة من المفاهيم مثل السرية والاختلاف سعيًا إلى التنميط وجعل الفرد مكشوفًا كالزجاج، حيث تمارس هذه الشفافية نوعًا من العنف من خلال آليات أساسية، تتمثل في تعزيز الحرية، والانفتاح التواصلي، والتعرية الطوعية للذات، والتخلي عن الخصوصية قيد السيطرة والمراقبة، وممارسة التوجيه الاجتماعي. وهكذا، وجدت الأسرة نفسها أمام سوق شغل، لتعمل على التمكين الاقتصادي الرقمي لهؤلاء النساء "اليوتوبرز" كمؤثّرات اجتماعيات.

وعليه، فانتقال العلاقات الأسرية من مجال خاص ومنغلق إلى مجال مرئي، أدى إلى إعادة تشكيل مفهوم الأسرة ضمن حقل اجتماعي عابر للحدود. فقد أضحت تُشكّل هذه القنوات الرقمية نماذج تنشئوية، وذلك بتكريس مجموعة من القيم، والأفكار، والمعايير، بطرق انسيابية لا تختلف عن النماذج التقليدية، ولكنها تصبح شفافة وقابلة للفرجة. فالعالم الافتراضي كنموذج تنشئوي ساهم بطريقة معينة في إنتاج الاستعدادات التي لها تأثيرًا عميقا على طرائق التفكير والفعل الاجتماعي؛ بمعنى أن العالم الرقمي يسهم بطريقة غير مباشرة في تكوين "الهابيتوس" الافتراضي. ويعد مفهوم "الهابيتوس" عنصرا أساسيا في فهم الكيفية التي تتطور بها الممارسة الاجتماعية في حقل معين، وكما حدده عالم الاجتماع "بيير بورديو" في كونه مجموع الاستعدادات القابلة للنقل والمنظمة لممارسات وتمثلات تتأقلم مع هدفها (Lyons 234). على الرغم من كون "بورديو" (Pierre Bourdieu) لم يستكشف العلاقة بين "الهابيتوس" والافتراضي إلا أنه في هذا السياق تظهر لنا جليا هذه العلاقة، في كون الوسائط الرقمية عبارة عن حقول اجتماعية، وكل من الحقل و"الهابيتوس" يسهمان في بناء الآخر، لهذا تعتبر هذه العلاقة كوسيلة لإدراك الثقافة الرقمية، التي تمارسها هؤلاء "اليوتوبرز" داخل المجتمعات الافتراضية بهدف الربح المالي.

تعتبر مواقع الفيديو التشاركي نقطة مهمّة في فهم السياق الاجتماعي للممارسات التي تؤثر على سلوكيات الأفراد. فالإقبال على هذه القنوات الرقمية، والبحث عن الربح المادي من خلالها لا يُعد ظاهرة اجتماعية فحسب، بل عبارة عن حركة ثقافية تتشكّل من خلال الممارسات الاجتماعية عبر الوسائط الرقمية)كريملي 7-6، بتصرف(والتي توجّه هؤلاء المؤثرات الاجتماعيات نحو ما يجب القيام به من أجل الربح المالي. ولهذا، ليس من مقدور هؤلاء النساء أن ينفصلن عن هذا العالم الرقمي، لأنهن ضمن حتمية تكنولوجية أفرزتها العائدات المالية لمقاطع الفيديو التي ينتجنها، لتصبح الثقافة الرقمية، بهذا المعنى ثقافة مادية سلطوية.

وعليه، يبين الرسم البياني التالي الكيفية التي تنتقل بها الثقافة الرقمية إلى ثقافة رقمية مادية من خلال مواقع الفيديو التشاركي وذلك بالتكيف بمعايير الربح والمتمثلة في انشاء محتوى شائع لجذب أكبر عدد ممكن من المشاهدين، ثم الالتزام بالاتجاهات الجديدة لضمان

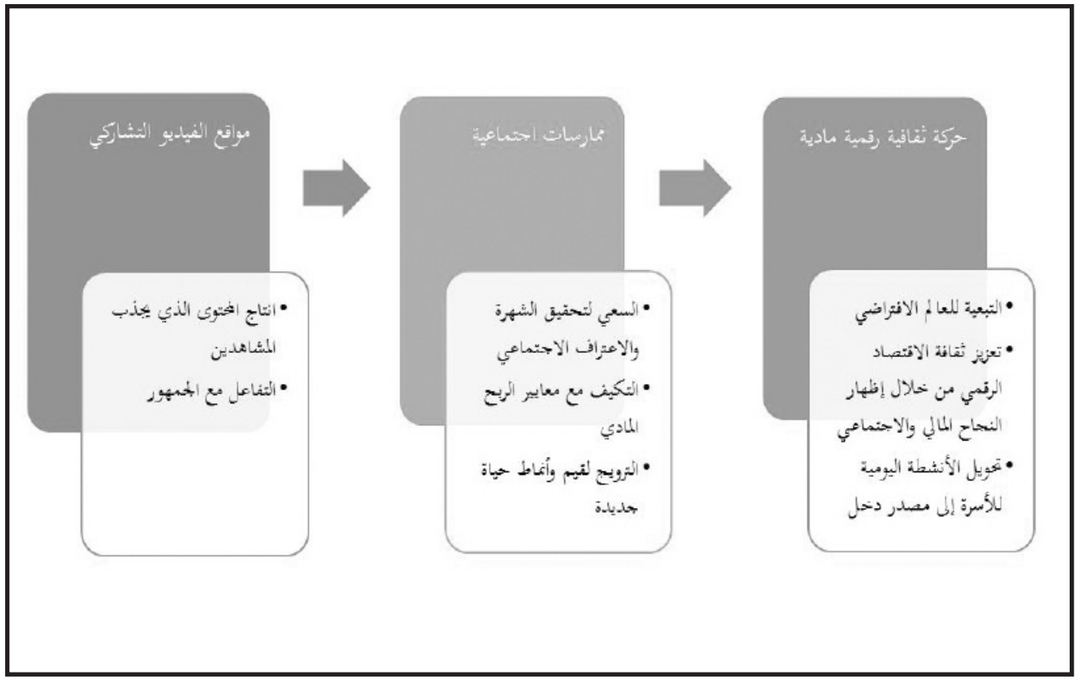

التفاعل.

مناقشة نتائج الدراسة:

إن دراسة استعمالات فضاءات التواصل الاجتماعي تدعونا اليوم إلى نقل النقاش من الأسرة إلى الأسرة العابرة للحدود، ومن الجندر إلى ما بعد الجندر، اللذان يظهران مع هذه الوسائل، دون أن يعني ذلك أي قطيعة مع البنيات التي تؤسس لأي اختلافات جندرية مثل الأسرة وغيرها من المؤسسات. اتضح مما سبق أن المرأة أصبحت تحتل مكانة محورية داخل الأسرة عن طريق الاستثمار في أدوارها التقليدية الجندرية)لمخطط رقم 1(، بمعنى أنها حظيت بدور جديد يتمثل في الاستثمار الرقمي، الذي منحها حرية التعبير عن نفسها والظهور عبر الشاشات الرقمية، دون أن يعني ذلك أي قطيعة مع أدوارها التقليدية المعتادة. وهذا يتجاوز النقاش المتعلق بالاستثمار الرقمي إلى مناقشة الاستهلاك اليومي للتمايز الجنساني. وهنا يتضح أن الخطاب المهيمن هو خطاب أبوي يتم استهلاكه وتحويله إلى سلعة مما يعيد إنتاج النظام الأبوي) Collins et al (11.. من جهة ثانية، وكما أبرزنا من خلال مثال قناة "أسماء بيوتي" يتم استهلاك العلاقات الأسرية من خلال نقل الحميمية والخلافات العائلية إلى فضاء عام عبر وسائط رقمية حتمت على "اليوتوبر" البحث عن الشهرة على حساب المشاركة الطوعية للعلاقات الأسريــة وفق تقاليد مرقمنة تمثلت في مفاهيم الانفتاح ومشاركة الغير في الحياة الأسريــة. وهــذا ما يسمح بالحديث عن أسرة عابرة للحدود؛ أسرة شوهدت أغلب لحظاتها على مواقع التواصل الاجتماعي في مختلف الدول العربية وغيرها.

بمعنى أن الاستثمار في العلاقة الحميمية الأسرية وإعادة إنتاج مجموعة من القيم الذكورية، التي تجعل من الحميمة ترى عبر الشاشات، يعتمد على تنميط مجموعة من العواطف والعلاقات الاجتماعية، من خلال مجموعة من الممارسات القائمة على ثقافة الاستهلاك والمرتبطة بالواقع المعروض على شاشة الوسائط الرقمية، وهــذا لا يقتصر فقط على الواقع الرقمي، بل يرتبط بمجموعة من البنيات والمستويات كالأسرة والجندر والتمايز الجنساني.

وعليه، يُنظر إلى الأسرة والجندر وفق التصور السيبراني كأداة استثمارية، الأمر الــذي يرمز ضمنيًا إلى تنميط وظيفي للنساء) Collins et al (10.، بهدف الحصول على محتوى رقمي يعيد إعادة إنتاج الصور النمطية المتعلقة بالعائلة والأدوار الجندرية، باعتباره سلطة رقمية

تتسلل عبر الحياة اليومية التفاعلية عبر النشاط الإدراكي، وعلى مستوى التمثيل والقيم ونسيج الدلالات.

وفي هذا السياق، يرتبط النقاش حول الجندر المنمّط برهانات الصورة، حيث يتموقع الجندر ضمن العلاقات الاسرية من خلال الصورة، دون أن ينحصر فيها، وذلك عبر الاشتغال المكتف على تنميط الأدوار التقليدية للمرأة، وفق إمكانيات تقنية متعددة تتدخل في الهندسة الاجتماعية للجنسين، القائمة على حصر النساء في مجالات معينة تُسهم في تكريس للنمطية التقليدية للأدوار الأسرية (Duf-fy 2)، ومن جهة ثانية، على المشاهدة والاستعراض كمحتويات تأسس لهوية جندرية تعتمد على ما يعرف بالتمثيل المحدود للتنوع الذي لا يتحدى القوالب النمطية الجندرية.

يتّصف التنميط الرقمي في المجتمعات المعاصرة بكونه يعمل على التعرية والشفافية، باعتبارهما تحولًا بارزا في العلاقات الأسرية والجندرية، من خلال الناظم الأساسي المتمثل في المحتوى الرقمي الربحي. وهو محتوى يتحدد بالتنميط التقني القائم على الاستثمار في نمذجة صورة النساء واختزالها في قوالب تقليدية)Noble (2. إن تجاوز الحدود بين الافتراضي، المرتبط بالتكنولوجيا، والعالم الواقعي، المرتبط بالتفاعلات الاجتماعية المباشرة، يؤدي إلى ربط الافتراضية بعوالم التمثلات، ضمن عملياتها المعقدة.

خلاصة:

يبقى الجندر والعلاقات الأسرية في المجتمع السيبراني خاضعين لهيمنة ذكورية، ولا يخرجان عن القيم التقليدية، رغم التحولات الاجتماعية الناتجة عن العولمة والتطورات التكنولوجية. فقد شكّلت هذه التطورات التكنولوجية تعزيزا للنظام الابوي وإعادة إنتاج للتمييز الجنسي، من خلال استعراض الأدوار الجندرية التقليدية داخل العلاقات الأسرية بوصفها وسائل استثمارية، تهدف إلى تحقيق الشهرة والربح المادي عبر الوسائط الرقمية.

كما ساهمت كذلك هذه التحولات التكنولوجية في تغيير طبيعة الأسرة، فإذا كانت الأسرة سابقا تقوم على مبدأ حرمة الخصوصية، والعزلة الاجتماعية، أصبحت اليوم تقوم على التعرية ومشاركة التفاصيل اليومية، بما في ذلك ظهور الزوجة بوجه مكشوف على مواقع التواصل الاجتماعي بهدف الاستثمار الرقمي، ما أكسبها دورًا جديدًا، دون أن يعني ذلك إحداث قطيعة مع الأدوار الجندرية التقليدية التي ما تزال تحكمها منظومة القيم والمبادئ السائدة. وهذا هو ما يشير إلى جنسانية جديدة معاصرة قائمة على التمييز الجنسي، وإن كانت تتجلى في سياقات تكنولوجية رقمية.

التوصيات:

بما أن الأسرة والعلاقات الجندرية في سياق الثقافة الاستهلاكية الرقمية، تعمل على تحقيق التمكين الاقتصادي، فإن هذا التمكين يُعد اليوم عاملًا أساسيًا لقياس مدى التحول الرقمي في العديد من الدول بما فيها الدول العربية. ومع ذلك فإن الاقتصار على المعطيات الكمية على الرغم من أهميتها، لا يكفي لفهم العلاقة القوية بين التمكين الاقتصادي وبين الواقعين الاجتماعي الثقافي.

إن دراسة التنميط الرقمي للنساء من خلال ثنائية الإنتاج وإعادة الإنتاج، التشكيل وإعادة التشكيل تبرز ضمن نسق لا يلغي دور المرأة كفاعل أساسي في بروز وضعيات ما بعد الجندر. ويُعد التنميط الرقمي للجنسانية هو منطلقًا مهمًا، كما أشرنا سابقًا، لفتح نقاش أوسع حول ما بعد الجندرية وتحليل مختلف إشكالاته. ومن هنا ينبع مطلب التجديد المنهجي في دراسة عالم الأنترنت لاسيما على مستوى "اثنوجرافية الواب" مع التأكيد على مراعات الأخلاقيات المرتبطة بأدوات البحث. ■

المراجع و المصادر

1. إيجابيات وسلبيات استخدام وسائل التواصل الاجتماعي للأغراض الشخصية والمهنية." عرب 48، 1 حزيران/يونيو 2023، تم الاطلاع عليه يوم 28 نونبر 2024، /ميديا/ميديا/2023/06/01/إيجابيات-وسلبيات-استخدام-وسائل-التواصل-الاجتماعي-للأغراض-الشخصية-والمهنية ،https://www.arab48.com

2. إيناس محمود، عبد الله. "سوسيولوجيا العالم الافتراضي: دراسة تحليلية في علم اجتماع الاتصال ."آداب الرافدين، العدد 76، 2019، الصفحات 693-730.

3. جودي، لامية. "الهوية الرقمية للمرأة على شبكات التواصل الاجتماعي: رؤية تحليلية نقدية." مجلة الدراسات الإعلامية والاتصالية، جامعة الجزائر 3 (الجزائر)، المجلد 20، العدد 20، ديسمبر 2020، الصفحات 121-110. EISSN 2830-8417، ISSN 2773-4285.

4. ديفيد، هارفي. الوجيز في تاريخ النيو ليبرالية. وليد شحادة، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، 2013، الصفحات 290.

5. رحومة، علي محمد. علم الاجتماع الآلي. سلسلة عالم المعرفة، العدد 347، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2008، الصفحات 255.

6. سنوسي، حياة. "الثقافة الرقمية: قراءة تحليلية في المفهوم وعوامل اكتسابها." مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية، المجلد 10، العدد 2، 2022، الصفحات 318-308.

7. شلبي، منى. "مشاركة تفاصيل يومياتنا الخاصة على مواقع التواصل الاجتماعي يهدد حياتنا." إيلاف، 2019، تم الاطلاع عليه يوم 28 نونبر 2024، https://elaph.com/Web/opinion/2019/12/1276268.html.

8. كريملي، هدى. "الثّقافة الرقمية ورهان الهويّة الدينية عند الشّباب المغربي." إنسانيات، العدد 95، 2022، الصفحات 100-77.

9. اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا (الإسكوا). تكنولوجيا المعلومات والاتصالات لتعزيز المساواة بين الجنسين في المنطقة العربية. 2021. الأمم المتحدة،

10. "مؤشر الاقتصاد الرقمي العربي للعام 2022م." الاتحاد العربي للاقتصاد الرقمي, 2022, https://taoqresearch.org/ مؤشر-الاقتصاد-الرقمي-العربي-للعام-2022 م-ت/.

11. Abidin, Crystal. "Communicative Intimacies: Influencers and Perceived Interconnectedness." Ada: A Journal of Gender, New Media, & Technology, no. 8, 2015. http://adanewmedia.org/2015/11/issue8-abidin/. Accessed 20 November 2022.

12. Adhiarso, Dendy Suseno, Prahastiwi Utari, and Sri Hastjarjo. "The Impact of Digital Technology to Change People's Behavior in Using the Media." Proceeding of The American Studies International Conference (ASIC) 2018, vol. 2, June 2019. Digital Press Social Sciences and Humanities. doi:10.29037/digitalpress.42256. Accessed under CC BY 4.0 License.

13. Duffy, Brooke Erin. "Social Media Influencers." The International Encyclopedia of Gender, Media, and Communication, 2020. Available on ResearchGate.

14. Eslit, Edgar R., and Salome L. Escalona. "Bytes and Beliefs: Understanding Cultural Dynamics through Digital Ethnography." Preprints, 4 Sept. 2023. doi:10.20944/preprints202308.2096.v2.

15. Freberg, Karen, and others. "Who Are the Social Media Influencers? A Study of Public Perceptions of Personality." Public Relations Review, vol. 37, no. 1, 2011, pp. 90–92.

16. Herman, Clem. "Becoming Digital: Empowerment, Identity, and Community ICTs." How Do We Make a Difference?: Information Technology, Transnational Democracy and Gender, edited by Christina M. Mortberg, Pirjo Elovaara, and Agneta Lundgren. Lulea University of Technology / Luleå Tekniska Universitet, 2003, pp. 237–251.

17. Hine, Christine. Virtual Ethnography. London: SAGE Publications, 2000. Book PDF.

18. Duffy, Brooke Erin. "Social Media Influencers." The International Encyclopedia of Gender, Media, and Communication, July 2020. doi:10.1002/9781119429128.iegmc219. https://www.researchgate.net/publication/342800736_Social_Media_. Accessed 20 November 2024.

19. Leavy, Patricia, editor. The Oxford Handbook of Qualitative Research. Oxford University Press.

20. Lyons, Andrew P. "Review of Outline of a Theory of Practice, by Pierre Bourdieu and Richard Nice." ASA Review of Books, vol. 6, 1980, pp. 232–235. African Studies Association, www.jstor.org/stable/532672.

21. Collins, Victoria E., and Dawn L. Rothe. "The Consumption of Patriarchy: Commodification to Facilitation and Reification." Contemporary Justice Review, 2017. doi:10.1080/10282580.2017.1307110.

22. Noble, Safiya Umoja. Algorithms of Oppression: How Search Engines Reinforce Racism. New York University Press, 2018.

23. "United Nations Economic and Social Commission for Western Asia (ESCWA)". Information and Communication Technologies: Prospects for Promoting Gender Equality in the Arab Region. ESCWA, 2019. www.unescwa.org/sites/default/files/pubs/pdf/information-communication-technologies-prospects-promoting-gender-equality-arabic.pdf.

الفضاء العمومي: من إثيقا الفعل إلى اثيقا التواصل والاعتراف

مونية وكيل

باحثة في الفلسفة

جامعة محمد الخامس الرباط

الملخص

يعد مفهوم الفضاء العمومي من المفاهيم المتداولة على نطاق واسع، وما يرتبط به من إشكالات الفعل والتواصل والاعتراف، إلى جانب التمييز الذي يقيمه بين حياة التأمل وحياة الكلام والفعل. كان لدعوة سقراط "اعرف نفسك بنفسك" الموجهة بفن التوليد القائم على الحوار؛ كما كان لأمثولة "الكهف" عند أفلاطون الأثر في ضرورة التخلص من الأوهام داخل الكهف إلى عالم المُثل، أو "الأنوار" عند كانط بخروج المرء من حالة القصور إلى حالة الرشد باتجاه الجمهور والعالم. وتأثير هذا العالم على شؤون الفرد ووجوده الذي بات في ظل الرقمنة مطلبا فكريا لا محيد عنه.

كلمات المفاتيح؛

الفضاء العمومي، الفعل، الشرط الإنساني، التواصل، الاعتراف.

Abstract

The concept of public space is one of the widely circulated concepts, and its associated problems of action, communication and recognition, in addition to the distinction it establishes between the life of contemplation and the life of speech and action. Socrates said to “know yourself” directed on the art of Maieutic by the dialogue, or Plato’s parable of “The Cave” also had an impact on the necessity of getting rid of illusions into the world of ideals, or Kant’s enlightenment, through the exit from a state of inadequacy to a state of maturity towards the public and the world, and the influence of this world on the individual’s affairs and existence, which has become an indispensable intellectual requirement in light of digitalization.

Keywords :Public space- action- human condition- communication- recognition.

تقديم

عندما نـتـداول في إثيقا الفعل والتواصل والاعـتراف؛ فإننا نكون أمام مفاهيم حظيت بنقاش طـويـل في الفلسفة السياسة والفلسفة المعاصرة، تجد مدخلها الأساس في فضاء عام يتسم بالتعدد والتنوع والاختلاف والبينذاتية Intersubjectivity*، فضاء يرتبط فيه الإنسان كذات فردية، مفكرة وعاقلة* ومسؤولة، بالآخرين والعالم. فإن كانت

المدينة – الدولة وكما عبّر عنها أرسطو، ليست سوى فضاء لظهور الديمقراطية، أو المواطن الفاضل عند سقراط، فإنها المدينة _ الدولة ذاتها تفرض التمييز بين المجال الخاص (Le domaine privé) والمجال العام (Le domaine public). وهو التمييز الذي كان محور انطلاق المفكرة الألمانية حنة ارندت Hannah Arendt، لفهم شرط الإنسان الحديث ضمن ما سمته ب "حياة الفعل" أو "الحياة النشيطة" في الحياة البرانية العامية، في مقابل "حياة التأمل" في الحياة الجوانية الخاصة. بينما استفاد يورغن هابرماس Jurgen Habermas من التوزيع الكانطي للعقل، ومن دعوته للتجرأ لاستخدام العقل الخاص في المجال العام في مقاله الشهير: "ما الأنوار؟ Qu’est ce que la lumière?"، ليؤسس للفضاء العمومي بشكل فعلي، إلى جانب ثلة من مفكرين وفلاسفة وسوسيولوجيين وانثروبولوجيين التي مثلت الشيء الكثير لا من الناحية الشكلية بل من الناحية الموضوعية كذلك.

ولا يقتصر الفضاء العام على إبراز إثيقا الفعل والتواصل، وإنما كذلك يسعى من خلاله الفرد إلى نزع الاعتراف، هذه الثيمة التي اكتسبت طابعا خاصا في فلسفة أكسيل هونيث Honneth Axel. وحضورا قويا داخل الفضاء العام الجديد الذي سمح

للناس ومن خلال التوسع من فضاء عيني مباشر إلى فضاء افتراضي، والتوفر على شبكات التواصل والرقمنة؛ من بروز ذواتهم وتحقيق غاياتهم، على اعتبار أن هذا الفضاء مطلبا أساسيا لنزع الاعتراف. إن ما يدفع الإنسان إلى الحرب عند توماس هوبز Thomas Hobbes وباقي فلاسفة التعاقد الاجتماعي هو "الصراع من أجل البقاء"، أما عند الفلاسفة المعاصرين ومن بينهم أكسيل هونيث "صراع من أجل الاعتراف".

انتقل الحديث إذن عـن فضاء اجتماعي عام، وما يطرحه من معضلات قيمية وأخلاقية واجتماعية وسياسية، تتعلق بمشكلة العدالة والحرية والحق والسلطة والـشرعـيـة...، وعـلى وجه الخصوص؛ الـسـؤال عن اثيقا الفعل والتواصل واثيقا الاعـتراف، في محاولة ترجمتها بنصوص فلسفية ثاوية للمجال العام، وأبرزها نصوص يورغن هابرماس وحنة ارندت وأكسيل هونيث.

فما موقع الفكر النقدي داخل الفضاء العمومي؟ وكيف يخدم هذا الفضاء مجال الفلسفة؟ هل يمكنه أن يُعبّر عن اثيقا الفعل والتواصل والاعـتراف؟ وهل نلجأ إليه لإبراز الفعل الإنساني أم تحقيق التواصل أم إلى نزع الاعتراف؟ ما حدود الصلة بينه وبين المفاهيم المؤطرة للوجود الإنساني الحديث؟ وإلى أيّ حد نستطيع أن نحتوي هذا التشابك الحاصل في المجال العمومي وتسخيره لمقاربة موضوعات الفلسفة؟

1. حنة أرنـدت: الفعل الـسـيـاسي والـفـضـاء العام.

كثيرا ما يبدو لنا أن طـرح بعض المفاهيم متجاوز بل ومبتذل، خاصة عندما نأخذ بالاعتبار الدراسات والأبحاث التي لها حضور وازن في هذا السّجال؛ لكن الأمر يختلف، إذا ما فكرنا فيها من جانب آخر؛ يتخذ بعدا اثيقيا نُعبّر به عن مفهوم الفعل L’action، وارتباطه بالفضاء العام الذي كان دوما محور نقاش في جل الخطابات الفلسفية والأخلاقية والسياسية، وبصورة خاصة، مع التطور الرقمي واكتشاف العالم الافتراضي، بحيث أصبحت "العمومية معيارا لكل تفكير يحكم أيّ فعل إنساني في الزمان والمكان. وكـل قضية من قضايا الشأن العام، كالعدالة والحق والسلطة والقوة والعنف والواجب والشرعية والمشروعية.. والفعل التواصلي ومـا يفرضه من أخلاقيات للمناقشة والتداول" [1].

الهوامش

- البينذاتية Intersujectivity تتألف من مقطعين: (Inter) وتحمل معنى (بين) أو (فيما بين)، و (Sujectivity) تحمل معنى الذاتية، ومع اجتماع هذين المقطعين يتكون لدينا مصطلح البينذاتية الذي يدل على ارتباط ما أو نوع من العلاقة بين الذات، وأمر آخر مغاير لها، مع الإشارة إلى أن هذه العلاقة تتضمن نوعا من التواصل، ولذلك يستخدم هذا المصطلح على النقيض من التجربة الفردية مؤكدا كياننا الاجتماعي بطبيعته. انظر؛ فرحة محمد، البينذاتية وأهميتها عن موريس ميرلوبونتي، مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية، سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (39) العدد 3، 2017، ص، 304.

* - ليس العقل بمعناه كجوهر قائم بالذات، بل العقل التداولي القادر على إنتاج الحجج ودعاوي الصلاحية داخل الفضاء العمومي.

1 - الرزاقي أحمد، تدبير الفضاء العمومي المعاصر: نحو إسهام في السلم الاجتماعي، دورية نماء لعلوم الوحي والدراسات الإنسانية، العدد 19، خريف 2022، ص، 118.

غير أن هذه العمومية لا تسلم من تحديات، تتمثل في ظهور مظهر جديد للعالم "الافتراضي"، والذي بقدر ما يمتاز بسرعة الانتشار ورخص التكلفة؛ بقدر ما يؤثر على الوجود الإنساني وقيم التواصل وحلول الصراع. فكيف يمكنه أن يخدم فاعلية الإنسان وشرطه الوجودي؟

يدل الفضاء العمومي على المجال أو المكان الذي يستخدمه الأفراد من أجل المطالبة بالحقوق، والنقاش في قضايا مجتمعية وتبادل للآراء والأفكار، باعتباره ركيزة لدراسة وبحث مجمل النظم السياسية والثقافية والتواصلية بمختلف مكوناتها المادية وغير المادية. إذ يتميز هذا الفضاء العمومي عند حنة ارندت كونه يمنح معنى للوجود الإنساني، عبر فاعلية الفرد ونشاطه السياسي واختباره للحرية وحق الاختلاف، على أن يسيطر على هذا الفضاء مظاهر العنف والظلم والهيمنة. بذلك تسعى ارندت إلى رد الاعتبار إلى الذات الإنسانية وجرها نحو الكمال السياسي، بتوجيه حياة التأمل والفكر الباطني إلى حياة الفعل الخارجي، على اعتبار الفعل وإن كان أهم مكوّن للإنسان الفاعل؛ فإنه لا بد من أن نبلغ به أوجه العمومية التي توضح تبادل الآراء والأفكار [2]، وهو في الآن ذاته تحديد ملامح الممارسة السياسية بعد طول عزلة الذات خلال القرون الحديثة.

وهي بذلك ترغب أرندت في نزع صورة الكائن المتفرج (le spectateur) وظهور الفاعل السياسي (l'acteur politique) في المجال العام، لأن الحياة التي يقضيها الفكر داخل ذاته هي حياة طوباوية لا تقبل الاختلاف، على عكس ما هو موجود في حياة الواقع والفعل.

مع العلم أن هذه العزلة المغرية للفكر قد تكون نتاج هوس جنوني بالذات، أو خشية أيّ انفلات على مستوى الهوية والقيم، أو في مقدار الإدراك والغفلة، فقد سبق لميرلوبونتي أن نبّه إلى مسألة ارتباط تجربة العزلة بالغفلة، وذلك بالقول: « لا نكون لوحدنا إلاّ عندما لا ندرك ذلك، إن وحدتنا هي هذا الجهل نفسه» [3]. » . وبالتالي يصبح شرط العزلة أو اللاوحدية ناهل من تجربة ذاتية محضة، يصل فيها المرء إلى بلوغ درجات من السعادة التي قد لن يجدها في العالم الخارجي، مما ينذر حتما إلى غياب الفكر في المجال العام، ووقوعه في الدوغمائية والمغالطة والأفكار الخطيرة، ولو أنه لا يوجد أية أفكار خطيرة، بل إن الخطير هو الفكر نفسه [4]. يشير هذا الانغلاق إلى انكشاف من نوع مغاير، عبّر به هايدغر عن حالة الإنس

ان الحديث الذي يظهر وجوده كانكشاف أمام الذات بعالمها المعنوي المنغلق المحدود، لدرجة قد يصل الإنسان الجديد وكما يرى فريدريك نيتشه، وبعد أن يفقد العالم سيعمل على اكتساح ذاته التي ستقوم مقام العالم الفعلي [5] .

1.1. الهوية والفعل السياسي داخل الفضاء العمومي.

من ضرورات الفعل السياسي عند ارندت تأسيس فضاء مدرك عيانيا، يصبح به كل فعل موجه إلى الجمهور، نابع من التزام الأفراد بمبادئ وقيم تنظم حياتهم وواقعهم، وهو ما يسعى إليه السياسي لتجديده في سلوكه، إذ أن الالتقاء مع السياسي وانسجام أفعال الأفراد مع ما يطلبه السياسي هو ما يرسم أُفقا وإطارا تتحد من خلاله الهوية الاجتماعية[6] . مع ضرورة التمييز بين الفعل السياسي (كوسيلة) والذي يسعى إلى تحقيق المنفعة الأداتية، والفعل السياسي (كفن وإبداع) يعمل على تكييف قدراته ومهاراته الفكرية والنظرية لتنظيم واقع اجتماعي يعمّ بالتناغم والاستقرار بالإضافة إلى مبادئ أخرى [7]. فبغض النظر من أن الغاية تبرر الوسيلة بتعبير ميكيافيلي؛ إلاّ أن الأخير احتاط من الحياة السياسية، لأننا بحسبه لسنا أمام سياسة مترابطة ومتناغمة، بقدر ما نحن أمام عدو يهدد وجودنا كل حين. وعلى هذا الأساس، يصبح حضور الوازع الأخلاقي في السياسة أمرا ضروريا، كما هو شأن قضية اللاجئين والمهاجرين عند ارندت، فبحكم انتمائها اليهودي* الذي كان هدفا مباشرا للنازية وأدّى إلى تهجيرها صوب أمريكا، دفعها إلى الدعوة إلى عدم طرد اللاجئين إلاّ في الحالة التي يصبح فيها وجودهم يشكل خطرا وتهديدا على أمن واستقرار المجتمع.

إن السياسي إذن وحيثما يحظى سلوكه بالوازع الأخلاقي؛ يكون فعله مثارا على نطاق واسع، ينطلق من فردية إلى تشارك جماعي؛ ومن إمكانات مخصوصة لينفتح على إمكانات لا حدود لها في فضاء عام، بينما أن ننظر إلى دلالة الانتماء في حد ذاتها؛ قد يوصلنا إلى واقع استبدادي يفقدنا دلالة الانتماء ذاتها. وهكذا، فإن الوعي بالحدود والقدرة على تجاوز القيود هو أساس الوعي بالحرية، وأنّ القدرة على التفكير يُمكننا من استخلاص فهم دقيق لواقع التعددية داخل العمومية.

1.1. الأنظمة الشمولية وسؤال الهوية.

بما أن الفضاء العمومي ساحة للأفعال الإنسانية وللعمل السياسي، فإنه في ذات الوقت، ساحة لتحديد الهويات، التي تجعل تواصل وتفاعل الأفراد ممكنا ومرنا ما لم تتعرض هذه الهويات إلى جرح، كأن تتحول من بعدها السياسي الأنثروبولوجي إلى شكل من أشكال التعصب، كما هو الأمر في حالة إسرائيل التي تحولت بهوية سياسية من كيان إلى دولة، تسعى إلى فرض هويتها مقابل تجريد الفلسطينيين من حقهم في تحديد هوياتهم. وهو ما يبين في الغالب التلاعب الذي يستهدف القيم وحقوق الإنسان، ويتحول كل فعل سياسي إلى شكل من أشكال الإيديولوجيات، ترفض التعايش وتدفع بالصراع إلى أقصى مداه، ودمج كل أشكال الهيمنة والاستعمار تحت مسمى "الهوية". منه؛ تعتقد أرندت –والتي دافعت عن هوية اليهود وعن حق الفلسطينيين في تقرير هويتهم- أنه يمكننا أن نبحث عن الحقيقة داخل فضاء التداول السياسي، الذي ينأى عن أيّ رقابة أو تقييد للفكر، ومواجهة الهيمنة والخطابات التعسفية داخل الفضاء العمومي عوض الاكتفاء بالتأمل الذاتي، الذي بقدر ما هو نسيان لماهية الإنسان السياسية عند أرندت، بقدر ما هو نسيان للوجود بمعناه الهايدغري.

وعلى هذا الأساس؛ واجهت أرندت ظاهرة الشمولية أو التوتاليتارية التي أوصلت الإنسان الحديث إلى وضعية مأساوية، من خلال ممارستها المطلقة للاستبداد وتقييد للفكر؛ وهو ما دفع أرندت إلى البحث في التقاليد وعصر الأنوار عن الحالة الإنسانية، لأجل إيجاد تصور لهذا الإنسان من طرف الفكر الفلسفي والفكر السياسي على حد سواء. مع ملازمة الحقيقة للمسؤولية السياسية التي ليست سوى حكمة تشاركية، ففي كتابها "حياة سياسية" تقول: «إنّ الحقيقة هي التي تشدنا إلى الآخرين، هو الإنسان إذن، مطلب وغاية يفترض إرادة هي وجهة نظر لرؤية جديدة، تنفتح على ماض من أجل حاضر واستشراف لمستقبل أساسه وحدة إنسانية، رغم ما يعتري المشهد الإنساني السياسي من أزمة هوية»[8] .

2. الفضاء العام وأزمة الإنسان الحديث.

يعتبر الفضاء العمومي أهم محور تناولته صاحبة "أزمة الثقافة La crise de la culture" حنة أرندت في مجمل أبحاثها السياسية، ومقابلته بوضع أو "شرط الإنسان الحديث La condition de l'homme "moderne، في محاولة منها للتعبير عن وضع هذا الإنسان الحديث والمعاصر، وذلك لإظهار إنسان ينكشف للناس وللعالم ككائن فاعل حامل لأفكار وآراء يتقاسمها مع ساكني هذا العالم، داخل فضاء يضم جماعة بشرية متعددة تمتلك درجة الوعي وروح المسؤولية والمصلحة العامة. بالتالي؛ فإن هذا الاهتمام البالغ المتمثل في إبراز الشرط الإنساني الحديث تظهر فيه "حياة الفعل" أو "الحياة النشيطة" vita activa، والذي نلحظه من جانب متمرسة ناجعة في الفكر السياسي كحنة أرندت، له ما يبرره، وذو صبغة خاصة، إذ أن المفكرة قد نالت نصيبها عن كثب من تلك الأوضاع التراجيدية: من حروب عالمية ومد شمولي وتفاقم ومعاداة السامية، الأمر الذي انعطف بها من الكتابة عن الحب إلى الكتابة عن الشر الذي يقع في الفضاء العمومي، كالشر الجذري في عملها "إيخمان في القدس" "Eichmann à Jérusalem"*.

الهوامش

2- Alain Cottereau, et Ladriere Paul, pouvoir et légitimité, éd, école des hautes études en sciences sociales, Paris, 1992, p, 30.

3 - المحمداوي علي عبود (تنسيق)، الفعل السياسي بوصفه ثورة، دراسات في جدل السلطة والعنف عند حنة ارندت، دار الفارابي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2013، ص، 194.

4 - المرجع نفسه، ص، 195.

5 - فازيو نبيل، مفهوم السياسة عند حنة أرندت؛ من العنف إلى الديمقراطية، منشورات مركز الدراسات والأبحاث الإنسانية "مدى"، الدار البيضاء، 2009، ص، 125.

6 - المحمداوي علي عبود (تنسيق)، الفعل السياسي بوصفه ثورة، مرجع سابق، ص، 147-146.

7 - المرجع نفسه، ص، 138-137.

* - أن اليهودي بنظر جان بول سارتر هو إنسان ينظر إليه الناس باعتباره يهوديا.. إن المعادي للسامية هو الذي يصنع اليهودي، انظر؛

Sartre. J.P, Portrait of the antisimite, Eric de mauny, London, 1968, p, 57 -.

8 - المحمداوي علي عبود (تنسيق)، الفعل السياسي بوصفه ثورة، المرجع السابق، ص، 163.

1.2. المتفرج الحصيف وأزمة الحرية.

أدّى المد الشمولي بنظر أرندت إلى جعل الإنسان في وضع "المتفرج الحصيف" دون الانجذاب نحو الخارج، وإلى مزج العنف بالفعل السياسي، وعدم خلق حالة بين المجال العام والمجال الخاص، وأزمة الحرية وفاعلية الإنسان السياسية، وعليه فإن المهمة التي كانت على عاتق أرندت كبيرة وشائكة، استدعت منها الانطلاق من خلفية جينيالوجية بمعالجة الوضع الراهن والعودة نحو البدايات التأسيسية وتفكيك الأبنية والـصروح النظرية والسياسية للوصول إلى مواطن الخلل ومكامن العلة. ولعل الكم الهائل من الكتابات السياسية ذات المضامين الفلسفة والانثروبولوجية أتـاح لها تشكيل نظرية حـول الفعل السياسي وعلاقته الأصلية بالحرية [9] . لأن الأزمـة بنظر أرنـدت ذات طابع سياسي، مما جعل اهتمامها بالفلسفة السياسية لم يكن مجرد عرض مورفولوجي (شكلي) أو استعراض كرونولوجي للنظريات أو ترتيبها ترتيبا أكاديميا، بل بغاية جعل السياسة أمرا ممكنا وترتيب ممارسة حقيقية عليه [10]، في رفضهاالتام لتقديم أية قراءة أنطولوجية للتاريخ، على غرار أستاذها هايدغر الذي قرر أن يقدم تاريخ الغرب على أنه تاريخ للنسيان وللميتافيزيقا في صـورة قدر أنطولوجي، والحال إن كان هناك من نسيان للتاريخ، فإنه عند أرندت ليس سوى نسيان للفعل والنشاط الإنساني.

وعلى هذا المنوال عملت أرندت على تأسيس السياسة كمجال عام ومستقل عن أيّ هيمنة إيديولوجية، وعن أزمة الحريةLa crise de laliberté والتي وقبل أن تكون صفة للفكر الـذاتي؛ فهي واقعة إمبريقية أو فينومينولوجية تظهر عبر تفاعلات الناس فيما بينهم في اجتماع بشري. غير أن الفكر جعل الحرية أقرب إلى الإرادة منها إلى الفعل، في تجاهله إلى أنها واقعة قابلة للإثبات تتطابق مع السياسة، كلاهما في نسبة إلى الآخر وكأنهما وجهان لشيء واحد [11]. إذ تقتضي السياسة عند أرندت تجمعا بشريا في فضاء عام يكون الناس فيه سواسية في حق القرار والإرادة، إذ من خلال هذا الاجتماع تبرز"السلطة" كرابطة معنوية تجمع أنـاس يناقشون ويتصرفون بشكل جماعي، لا كتنازل أو تفويض لحق طبيعي لفائدة أفراد أو هيئة، لأنها ليست مادية أو ذاتية يمكن توارثها، فمن الممكن أن يكون الحكم ممارسة باسم الجماعة إلاّ أنه لا يقبل أن يكون تفويضا أو بيعة، لأن من شأن ذلك أن يقود لا محالة إلى تدمير التعددية والاختلاف، من حيث هما شرطان أساسيان لأية ممارسة سياسية سليمة [12] .

3. الفضاء العمومي كمجال للمسؤولية والشر والصفح.

تفسر أرندت مشكلة الشر والصفح والمسؤولية من خلال التبرير السياسي وما يصحبه من مفهوم للفضاء العمومي الذي شغل حيزا كبيرا في أعمالها، وذلك في تحديد مشكلة الشر الجذري الذي يتولد في حالة غياب أو عوز الفكر un manqué de pensée كما في وضع إيخمان وغيره من لن ضحايا النظام النازي. فمع المد الشمولي الذي كان ضربة قاسية للشرط الإنساني، وضغطا كبيرا على الفكر، جعل من الشر أمرا ظاهرا، مما يعني أن الفكر في هذه الحالة يعود في حد ذاته بكبير الفائدة على المجتمع، ولا حتى التعطش الدائم إلى المعرفة الذي يعامله (الفكر) كآلية لإدراك غايات أخـرى [13]، ، بل سيكون منخرطا مع الحدث الشمولي أو التوتاليتاري، وفي وضع مقاوم للشر عبر النزوع نحو روح المسؤولية، وخلق حالة من التوازن بين ما هو أخلاقي وما هو سياسي، ولو أن وضعه(الفكر) من هذه الثنائية سيكون في الغالب شائكا ومعقدا، تُعبر عنه ميري ماكارتي بالقول:« إذا خيرك أحدهم بين أن تعيش أو أن تقتل صديقك، فإن تحملك مسؤولية فعلك في هذه الحال لا معنى له»[14] . لكن إذا كانت المسؤولية في هذه الحالة لا تقبل التبرير، فهل المسؤولية الجماعية تقبل؛ من ثمة التبرير؟

ترفض أرنـدت اللجوء إلى فكرة المسؤولية الجماعية، فعندما يكون الكل مذنبا؛ لا يمكن إدانة أيّ شخص [15].ولأن فكرة المسؤولية الجماعية غير مفهومة ولا معنى لها؛ فإنه في هذه الحالة ليس من ثمة شيء من قبيل الشر أو الجرم، تقول أرندت بهذا الصدد: "فلا وجود لشيء من قبيل الجرم الجماعي أو البراءة الجماعية؛ إن معنى الجرم والـبراءة لا يتحدد إلاّ من خلال تطبيقها على الأفـراد" [16].وتقترح بالمقابل الصفح أو التعهد لمواجهة مشكلة الشر التي تجتاح العالم بكل مستوياتها (شر طبيعي، شر ميتافيزيقي، شر أخلاقي، شر سياسي) [17]، فالصفح أو التعهد من القيم الرفيعة التي توثق العلاقات بين الناس، وهو ما لم يكن مقبولا يوما عند التوتاليتارية التي عجلت في اندثار الشرط السياسي للإنسان الحديث ومن أفول السياسة، وتفاقم نزعة الانتقام واختلاط العنف بالفعل السياسي، مما أدّى في نهاية المطاف إلى نتائج غير مرضية. لهذا السبب تركز أرندت على الشر السياسي الذي افتتن بإيخمان وقاده إلى ارتكاب الشر في ظل عوز وغياب الفكر، والذي كان مجرد منفذا لأوامر سياسية، منه نتساءل؛ عن أية مسؤولية على إيخمان؟ ألم يكن من المفروض عدم محاكمته لأنه لم يمتثل سوى لمقتضيات الفرض والواجب المهني؟

1.3. تفاهة الـشرفي ظل عوز وغياب الفكر.

لا يوجد في حالة إيخمان من شر جذري، بل يوجد فقط ما تعنته أرندت ب "تفاهة الشر"، فأمام هذه التفاهة La banalité الـتي يكون الـشر ناتجا عن البلادة (الغباء) وإنما هو تعبير عن غياب للفكر[18]. وتتساءل أرندت في كتابها "إيخمان في القدس Eichman

الهوامش

* - Arendt Hannah, Eichmann in Jerusalem, A Report on the Banality of Evil, Penguin books, 1963.

9 - المحمداوي علي عبود (تنسيق)، الفعل السياسي بوصفه ثورة، المرجع السابق، ص، 33 .

10 - المرجع نفسه، ص، 27.

11- Arendt Hannah, La crise de la culture, Patrick Lévy, Gallimard, 1972, p, 97.

12 - المحمداوي علي عبود (تنسيق)، الفعل السياسي بوصفه ثورة، المرجع السابق، ص، 121-120.

13 - المرجع نفسه، ص، 156.

14 - المرجع نفسه، ص، 197.

15 - Arendt, Hannah, Responsabilité et jugement, Paris, 2009, p, 69.

16 - المحمداوي علي عبود (تنسيق)، الفعل السياسي بوصفه ثورة، المرجع السابق، ص، 199.

17 - المرجع نفسه، ص، 203.

18 - أرندت، حنة، أسس التوتاليتارية، تعريب، أنطوان أبو زيد، دار الساقي، الطبعة الأولى، 1993، ص، 97، 98.

à jérusalem": كيف لا تستطيعون أن تنتفضوا وأن تثوروا في وجه هذا النظام الهمجي؟ كيف تقبلون أنتم الملايين أن يقودكم في القطارات ما لا يتجاوز مئة جندي؟ كيف يعقل أن يصل عجز الإنسان إلى أن يضع نفسه تحت سلطة قاهرة؟ إن افتتان الدهماء بالشر والجريمة افتتانا أكيدا ليس الأمر الجديد، إذ طالما ثبت أن الرعاع يرحبون بأعمال العنف قائلين بإعجاب: لئن كان ذلك جميل، فإنه بالغ القوة بالتأكيد[19].

تتحدد إذن مشكلة التوتاليتارية عند أرندت؛ أنها من جهة، تدفع الناس إلى التصرف الخاطئ وارتكاب للشر دون أن يعرفوا أو يشعروا أنهم يفعلون ذلك، وانتسابها للشر إلى اليهود من جهة ثانية، وهو ما تعرض عنه أرندت بالقول: « أما تمثيل اليهودي باعتباره تجسيدا للشر فيعزى بعامة إلى بقايا أعمال عدائية وذكريات خرافية تعود إلى القرون الوسطى؛ والواقع أن لهذا التمثيل صلة وثيقة مع الدور الغامض الذي راح يؤديه اليهود في المجتمع الأوربي، منذ تحررهم... والواقع أن الجماعات اليهودية القاطنة في أوربا، عمدت بعد الحرب العالمية الأولى، إلى التمثيل بالشعوب الوطنية، كما فعل اليهود الفرنسيون في بدء الجمهورية الثالثة»[20] .

2.3. الصفح بما هو حل لمواجهة مشكلة الشر.

إن الصفح مع ضحايا الاستبداد ومعسكرات الاعتقال هو نقيض للانتقام وللممارسات التوتاليتارية، بحيث يقوم الصفح بربط الناس بالسيرورة وترك رد الفعل المتسلسل المتسمة أعماله بالضخامة، ويواصل سيره بكامل الحرية...، إن الصفح، بعبارة أخرى، هو رد الفعل الوحيد الذي لا يقتصر على إعادة إنتاج الفعل، ولكنه يمارس فعله بطريقة جديدة ولا متوقعة، وغير مشروطة بالفعل الذي أنتجها، وهي التي تحرر بالتالي الصافح والمصفوح عنه...[21]. فلولا صفح الآخرين عنّا، الذي به نتخلص من تبعات أعمالنا، لبدت قدرتنا على الفعل كما لو كانت حبيسة فعل واحد يلتصق بنا إلى الأبد، ولبقينا ضحايا عواقبه وآثاره، تماما مثل ساحر مبتدئ عاجز في غياب الوصفة السحرية عن إيقاف صنيعه أو التحكم فيه. ولولا التزامنا بالوعود، لكنا عاجزين عن الحفاظ على هوياتنا، ولكتب علينا أن نتيه بلا قوة ولا هدف، كل يهيم في ظلمات قلب الوحيد، ويفرق في التباسات وتناقضات هذا القلب، ظلمات لا يبددها، إلاّ النور الذي ينشره حضور الآخرين في المجال العمومي، بتأكيدهم هوية الإنسان الذي يعد والإنسان الذي يفي بوعده[22] .

4. اثيقا التواصل على ضوء المجال العمومي.

يعتبر يورغن هابرماس ممثل الجيل الثاني لمدرسة فرانكفورت من أكثر المنظرين للفعل التواصلي داخل الفضاء العمومي الذي هو وليد التطور الذي عرفته الحداثة السياسية، ووليد المنطق النظري الذي يصاغ به الفعل التواصلي كتفاعل بواسطة اللغة والرموز، حتى تحدد تطلعات السلوكات المتبادلة عندما تكون مفهومة ومعترفا بها من طرف شخصين فاعلين على الأقل. لأن هذا التفاعل اللغوي هو الذي يضمن –حسب هابرماس- الوصول إلى حقائق متفاهم عليها بين الأطراف المتحاورة، علما أن الحوار في سياقه الاجتماعي أداة للقضاء أو لتجنب الحالات الباثولوجية (المرضية) التي تصيب المجتمع في لحظة معينة، فالحوار يلعب دورا مركزيا لتجنب الصراعات الاجتماعية التي قد تهدد المجتمع. ولا يتمثل مشروع اثيقا التواصل – حسب هابرماس- في الإقرار بحقيقة مطلقة ولا تسويغ شيء تم اختياره، بل يتمثل في السعي وراء الوصول إلى إقرار أو اختيار أو تقويم من لدن متحاورين مناصفة، من دون ضغط أو إكراه، إذ ليس من حق المتحاور أن يفرض رأيه على الآخرين، لأن الحوار الجاد والحجاج العقلاني بين الذوات في الفضاء العمومي هو الذي يحدد معيار الصدق والصحة والجدية.

أسس هابرماس مشروعه التواصلي من خلال العودة إلى خطاب الحداثة، الذي لم يتناول منذ أواخر القرن الثامن عشر سوى موضوع واحد تحت أسماء مختلفة، تتحدث عن شلل العلاقات الاجتماعية والتملك والتفكك، وعن تشوهات الممارسة اليومية المعقلنة أحادية الاتجاه [23]. . فهذا المشروع الحداثي بالنسبة لهابرماس مشروع لم يكتمل بعد، لأنه لم يستطع الانفكاك من سطوة العقل الأداتيInstrumental Rationality الذي بات يمارس قمعا على العقل وهيمنة على الدولة الحديثة.

لذلك فإن نظرية هابرماس في "الفضاء العمومي" وفي "الفعل التواصلي" تعتبر فاعلية تتجاوز العقل المتمركز حول الذات، والعقل الشمولي المنغلق، الذي يدعي أنه يتضمن كل شيء، والعقل الأداتي الوضعي، الذي يفتت ويجزئ الواقع، ويحول كل شيء إلى موضوع جزئي، حتى العقل نفسه [24]. وهذا ما جعل السلطة اليوم تستند في سياستها، إلى عبارة «ماركيوز»، بأن «الإنسان ذو بعد واحد»، أي أنه ذلك الكائن العاجز، والغير قادر على الاحتجاج، خاصة وأن التكنولوجيا في هذه المجتمعات، أصبحت تعمل على تعزيز وتطوير أشكال جديدة ومبتكرة من الرقابة الاجتماعية، التي تسحق الإنسان كلية، وتحرمه من حريته، وذلك عن طريق توظيف تقنيات الدعاية والإشهار، في محاولة لتعزيز نمط الخطاب الرسمي، وإعطاء فرص ضئيلة للحوار[25] . من ثمة؛ يجب أن يقوم التواصل –وكما يحدده هابرماس- على البرهنة اللغوية وعلى الحوار بين ذوات فاعلة ومختلفة داخل الفضاء المعيش، بحيث أنه من حق أيّ فرد له القدرة على الحوار والكلام أن يشارك في التجربة التواصلية، لأن اللغة هي روح عملية التواصل بين الذوات المشاركة في التفاعل وبين العالم الخارجي، وهي أساس التواصل سواء كان المشارك متكلما أو مستمعا، يقول هابرماس: «في النشاط التواصلي كل واحد يحفز عقلانيا من طرف الآخر، للفعل بطريقة مشتركة وذلك يقتضي مفعولات الالتزام الكلامي، الملازم لما نقترحه من أفعال الكلام» [26]. ولا يعني هابرماس باللغة مجموع الأصوات أو الجمل أو العبارات، ولكن تلك التي تشير إلى الفعل وتعني التداولية (pragmatique)، لأن الحديث عن اللغة عند هابرماس لن يكون على مستوى الشكل بقدر ما هو على مستوى الفعل داخل الفضاء العام [27]، ، فالممارسة التواصلية الجارية تدخل في سياق عالم معيش يحدد من خلال التقاليد الثقافية والتنظيمات المشروعة والأفراد المندمجين اجتماعيا، فالأعمال التأويلية تعيش على رأسمال اجتماعي داخل العالم المعيش [28]. . وأن أشكال الحياة العينية هي التي تعوض الوعي المتعالي الموحد، وعبر البديهيات التي تفرضها الثقافة، وعبر أشكال تضامن الجماعة، وعبر كفاءات الأفراد المندمجين اجتماعيا، فإن العقل الذي يعبر عن نفسه في الفعل التواصلي يقوم بالوساطة مع التقاليد والممارسات الاجتماعية، ومركبات التجارب المرتبطة بالجسد، والتي تذوب في مجموعها في كلية خاصة [29].

1.4. نظرية الفعل التواصلي والفضاء العمومي الهابرماسي من وجهة نظر أكسيل هونيث.

رغم تأثر أكسيل هونيث بأستاذه يورغن هابرماس في نظريته التواصلية، والذي ينتمي إلى نفس المدرسة النقدية لفرانكفورت، إلاّ أنه رأى أنه لا بد من الوقوف على بعض النقاط في نظرية هابرماس، ويتعلق الأمر؛ في أن الرجل بنظر هونيث قد اختزل نظريته في التواصل الحياة الاجتماعية بأشكالها التواصلية المختلفة، والحال أن هذا التمركز حول اللغة قد يغفل عنّا حقيقة التفاعلات التي في المجتمع، ويؤدي وهذا هو الأهم إلى عدم القدرة على إدراك التجارب الاجتماعية والأخلاقية المرتبطة بأشكال الظلم والاحتقار وعدم الاعتراف التي قد يتعرض لها الأفراد أو الجماعات، مما يعني أن النموذج التواصلي الهابرماسي عاجز في حقيقة الأمر عن تفسير التجربة المعاشة للأفراد، لأن اللغة ما هي إلاّ بعد من أبعاد التفاعل الإنساني، ولهذا سيستفيد أكسيل هونيث من الجانب اللغوي في تناوله للأشكال

الهوامش

19 - المصدر نفسه، ص، 33.

20 - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

21 - ارندت، حنة: استحالة الرجوع إلى الوراء والصفح كأفق مفتوح، ضمن: " المصالحة والتسامح: وسياسات الذاكرة"، جاك دريدا وآخرون، ترجمة حسن العمراني، دار توبقال، الطبعة الأولى، 2005، ص، 58، 59.

22 - المحمداوي علي عبود (تنسيق)، الفعل السياسي بوصفه ثورة، مرجع سابق، ص، 221، 222.

23 - هابرماس يورغن، القول الفلسفي للحداثة، ترجمة، فاطمة الجيوشي، دمشق، منشورات وزارة الثقافة، 1995، ص، 220.

24 - بن شويخ بوبكر الصديق، الفضاء العمومي البرجوازي بين: منظور "هابرماس" ومعايير "أرندت" ورؤية "فريزر"، مجلة بحوث ودراسات في الميديا الجديدة، المجلد 01، عدد 04، ص، 79.

25 - المرجع نفسه، ص، 82.

26 - مقورة جلول، الفعل التواصلي عند هابرماس: نظرية وتطبيق، دفاتر فلسفية، نصوص مختارة، ص، 360.

27 - المرجع نفسه، ص، 362، 363.

28 - المرجع نفسه، ص، 371.

29 - المرجع نفسه، ص، 372.

التفاعلية الأخرى كالرموز والحركات ولغة الجسد التي لها وظيفة مركزية في عملية التفاعل الاجتماعي.

هذا من ناحية، أما من ناحية ثانية فإن تركيز هابرماس على البعد التواصلي سيحول دون إبـــرازه للبعد النزاعي الصراعي السائد بكيفية واضحة في المجال العمومي، فبدل التركيز على رد التفاعلات الاجتماعية إلى التفاهم التواصلي، ينبغي ربط هذه التفاعلات بالتوترات والنزاعات والصراعات الاجتماعية، لأن العالم المعاش الخاص بالوجود الإنساني هو عالم الاعتراف لا عالم التفاهم اللغوي [30]. وعليه؛ فإذا قام هابرماس بإعادة تأسيس النظرية النقدية على ما يسميه العقلانية التواصلية المرتبطة جوهريا بعملية التنشئة الاجتماعية، التي يخضع لها الأفـراد بصورة عفوية، كون عملية الاندماج الاجتماعي تتحقق بواسطة التفاهمات والتوافقات المتضمنة للأفعال اللغوية للمشاركين في الفضاء العمومي، فإن هونيث يجد أن الفضاء العمومي قائم على الاعتراف أكثر من مجرد تواصل وتفاهم لغوي.

5. الـفـضـاء العمومي: صراع من أجل الاعتراف

إذا كانت أرندت خصت فاعلية الإنسان في الفضاء العمومي في بعده السياسي، وتصور هابرماس التواصل على النموذج اللغوي مما جعله يفهم عملية التفاهم وكأنها هي الغرض الأساسي للتفاعل الاجتماعي؛ فـإن مـؤسـس نظرية الاعـــتراف أكسل هونيث وسع من مفهوم الاعتراف ليشمل الحياة السياسية والاجتماعية والأخلاقية والحقوقية. استقى مفهوم الاعـتراف من أعمق فلاسفة الغرب دون الدخول في نسقها، ومن بينهم هيجل Hegel الذي هو حسب هونيث أول من تناول كيفية ارتباط العلاقات الاجتماعية على مفهوم الاعتراف -كما في جدلية العبد والسيد-، وتحديد هوية الفرد وفق ترابطات عضوية داخل المجتمع. وعلى عكس تشارلز تايلور تجاوز هونيث الاعتراف من جانبه السياسي إلى الاعتراف من داخل السيكولوجيا والمجتمع والأخلاق، وإبرازه لمظاهر الظلم الاجتماعي والاحتقار والاغتراب والتشيؤ التي تعرفها المجتمعات المعاصرة، بذلك فإن مشروعه الفلسفي القائم على براديغم الاعتراف يندرج ضمن توسيع مشروع هابرماس، لأن معايير التواصل لا تقف عند حد اللغة فحسب، ولكن بأنماط وكيفيات تقديم الذات للآخرين، والتي تستدعي الثقة في النفس (La confiance en soi) بجعل الفرد يشعر بمكانته وقيمته الاجتماعية، فالاعتراف إلى جانب الثقة يمثلان أهم أسس الفكر العصري والنظر الحديث للإنسان وللعمل والإبـداع في أفق إغناء الرأسمال الرمزي والاجتماعي [31]، ثم احترام الذات (Le respect de soi) انطلاقا من الاعتراف المتبادل بين الأطراف، وأخيرا تقدير الذات [32] (Estime de soi) الـذي يحصل على مستوى التذاوتي في إطار الاعتراف المتبادل، قصد الوصول إلى علاقة إيجابية داخل الفضاء العمومي.

يتوصل أكسيل هونيث في كتابه "الصراع من أجل الاعتراف" إلى أن الفلسفة الاجتماعية قد ظهرت في اللحظة التي بدأنا ندرك فيها أن الحياة في المجتمع تقوم على الصراع من أجل الوجود، ويعتبر فلاسفة العقد الاجتماعي le contrat social، أول من فهموا موضوع الصراع كأساس لنظرية العقد الاجتماعي، حيث صور توماس هوبز Thomas Hobbes العلاقات البشرية قبل نشأة المجتمع أنها علاقات شبيهة بالجحيم، قائمة على "حرب الكل ضد الكل" والصراع المستمر المفضي إلى المـوت، ففي حالة الطبيعة كل إنسان عدو لأخيه الإنسان، وبالتالي لن ينعم أحـد في هـذه الحالة الشاقة والمتوحشة [33] بالهدوء والراحة، بل على هدوء المقابر بتعبير جون استوارت مل. بالتالي، فإذا كانت الفلسفة السياسية الحديثة تقوم على "الصراع من أجل البقاء"، فإنه في الفلسفة المعاصرة "صراع من أجل الاعتراف". فقد فرض الاعتراف نفسه على الفلسفة المعاصرة كونه مفهوما وصفيا وتفسيريا في الآن ذاته، لحالات تشكو من انعدام الاعـــتراف méconnaissance والوعي بالظلم conscience d'injustice، والاغتراب aliénation، والاحتقار mépris. وعليه؛ فإن كل مشاعر الظلم المرتبطة من الناحية البنيوية بالاحتقار، وكل النزاعات الاجتماعية، يجب النظر إليها بوصفها أشكال من النضال من أجل الاعـتراف [34] .

خلاصة:

الحاصل أن أساس الاعتراف بالذات أو الجماعة تتم داخل الفضاء العمومي، وما يتضمنه هذا الفضاء من علاقات تذاوتية وتفاعلات متبادلة وأشكال من التعامل الخيّر الكفيلة بوضع حد للنزاعات القائمة على تجارب الظلم وأشـكـال الاحتقار والازدراء. وإذا كان الاعتراف هو القيمة والدلالة التي يسعى إليها كل فرد، فإن هذه القيمة المغرية تدفعه إلى إظهار نشاطه الإنساني في المجتمع ككائن فاعل ومسؤول، وقـادر على الحوار والتواصل وصياغة الرموز، التي بها يُعرّف عن نفسه وعن هويته، ويعبر عن مشاعر التعاطف والمحبة التي يحملها تجاه أقرانه، وهذا ما يفرض دوما -من وجهة نظر هيربرت ميد- تجربة مع الآخر، الذي تتحدد علاقتنا به في خاصية الفعل والتواصل والاعتراف. ■

الهوامش

30 - Gauthier, Mathieu, La philosophie sociale D'Axel Honneth, la théorie de la reconnaissance et l'analyse des pathologies sociales, Faculté de philosophie université Laval, Québec, 2010, p, 49.

31 - أفاية محمد نور الدين، الوعي بالاعتراف، المركز الثقافي للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، 2017، ص، 196.

32 - Gauthier, Mathieu, La philosophie sociale D'Axel Honneth, la théorie de la reconnaissance et l'analyse des pathologies sociales, op, cit, p, 58.

33 - Axel Honneth, La lutte pour la reconnaissance, traduit de l'allemand par Pierre Rush, Paris, 2002, p, 57.

34 - Gauthier, Mathieu, La philosophie sociale D'Axel Honneth, la théorie de la reconnaissance et l'analyse des pathologies sociales, op, cit, p, 50.

المراجع و المصادر

- ارندت، حنة: استحالة الرجوع إلى الوراء والصفح كأفق مفتوح، ضمن: " المصالحة والتسامح: وسياسات الذاكرة"، جاك دريدا وآخرون، ترجمة حسن العمراني، دار تويقال، الطبعة الأولى، 2005.
- ارندت، حنة، أسس التوتاليتارية، تعريب، أنطوان أبو زيد، دار الساقي، الطبعة الأولى، 1993.
- أفاية محمد نور الدين، الوعي بالاعتراف، المركز الثقافي للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، 2017.
- المحمداوي علي عبود (تنسيق)، الفعل السياسي بوصفه ثورة، دراسات في جدل السلطة والعنف عند حنة ارندت، دار الفارابي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2013.
- فازيو نبيل، مفهوم السياسة عند حنة أرندت؛ من العنف إلى الديمقراطية، منشورات مركز الدراسات والأبحاث الإنسانية "مدى"، الدار البيضاء، 2009.
- مقورة جلول، الفعل التواصلي عند هابرماس: نظرية وتطبيق، دفاتر فلسفية، نصوص مختارة.
- هابرماس يورغن، القول الفلسفي للحداثة، ترجمة، فاطمة الجيوشي، دمشق، منشورات وزارة الثقافة، 1995.

- Alain Cottereau, et Ladriere Paul, pouvoir et légitimité, éd, école des hautes études en sciences sociales, Paris, 1992.
- Arendt Hannah, La crise de la culture, Patrick Lévy, Gallimard, 1972.
- Arendt Hannah, Responsabilité et jugement, Paris, 2009.
- Gauthier, Mathieu, La philosophie sociale D'Axel Honneth, la théorie de la reconnaissance et l'analyse des pathologies sociales, Faculté de philosophie université Laval, Québec, 2010.
- Honneth Axel, La lutte pour la reconnaissance, traduit de l'allemand par Pierre Rush, Paris, 2002.
- Sartre J,P, Portrait of the antisimite, Eric de mauny, London, 1968.

مجلات ودوريات؛

- الرزاقي أحمد، تدبير الفضاء العمومي المعاصر: نحو إسهام في السلم الاجتماعي، دورية نماء لعلوم الوحي والدراسات الإنسانية، العدد 19، خريف 2022.
- بن شويخ بوبكر الصديق، الفضاء العمومي البرجوازي بين: منظور "هابرماس" ومعايير "أرندت" ورؤية "فريزر"، مجلة بحوث ودراسات في الميديا الجديدة، المجلد 01، عدد 04.
- فرحة محمد، البينذاتية وأهميتها عن موريس ميرلوبونتي، مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية، سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (39) العدد 3، 2017.

الفعل الاحتجاجي في المجتمع الرقمي: محاولة للفهم في ضوء النظريات السوسيولوجية المعاصرة

عبد الواحد اتلموت
باحث في علم الاجتماع
جامعة القاضي عياض مراكش

الملخص

تَهْدِفُ هذه الورقة البحثية إلى تسليط الضوء على دور وسائل التواصل الاجتماعي في تغير الفعل الاحتجاجي، وذلك بالاعتماد على بعض النظريات السوسيولوجية المعاصرة، التي حاولت دراسة وتحليل هذا الفعل في مجتمع رقمي. أو بصيغة أخرى؛ كيف ساهمت هذه الوسائل في تغير الأشكال التنظيمية للفعل الاحتجاجي الذي أضحى يأخذ أشكالاً وأنواعاً جديدة تختلف عن الشكل التقليدي؟ وقد أدى هذا التغير بدوره إلى تسهيل تعبئة الفاعلين والتواصل بين المتظاهرين وتوسيع نطاق المشاركة وتغير أشكال التنظيم والعلاقات والحدود بين الأفراد.

بناءً على هذا، سنحاول فهم وتحليل تأثير مواقع ووسائل التواصل الاجتماعي، بما في ذلك الفايسبوك والواتساب والمكالمات الصوتية، في تشكل الفعل الاحتجاجي؛ حيث تحولت هذه المواقع إلى فضاءات للاحتجاج يتم فيها تقاسم وتبادل الآراء والمواقف بشكل افتراضي، وفي كثير من الأحيان تتحول إلى حشد وغضب واقعي. لذلك، كان هدفنا فهم كل هذا في ضوء التحولات الرقمية من جهة، ومن جهة أخرى كيف أصبح الاحتجاج أمراً متاحاً وصار يلامس فئة لا يستهان بها على اختلاف مستواها الاجتماعي والثقافي ولاقتصادي، وقادراً على تجاوز كل الحدود بتكلفة زمنية ومادية قصيرة، إلى جانب تأثر ذلك على المشاركة فيه.

الكلمات المفتاحية:

وسائل التواصل الاجتماعي – الفعل الاحتجاجي – المجتمع الرقمي- التعبئة.

Abstract

This research paper aims to shed light on the role of social media in changing protest action, based on some contemporary sociological theories that have attempted to study and analyze this action in a digital society. Or, in other words, how have these tools contributed to changing the organizational forms of protest action, which has come to take on new forms and types that differ from the traditional form? This change has, in turn, led to facilitating the mobilization of actors, communication between demonstrators, expanding the scope of participation, and changing the forms of organization, relationships, and boundaries between individuals.

Based on this, we will attempt to understand and analyze the impact of social media platforms and tools, including Facebook, WhatsApp, and voice calls, on the formation of protest action. These platforms have become spaces for protest where opinions and stances are shared and exchanged virtually, and often, they transform into real-world mobilization and anger. Therefore, our aim was to understand all of this in light of

digital transformations on the one hand, and on the other hand, how protest has become accessible and now reaches a significant segment of the population across different social, cultural, and economic levels, capable of transcending all boundaries with short time and material costs, in addition to its impact on participation.

Keywords: Social Networking Sites- Pretest Action- Digital Society- Mobilization

مقدمة:

اتجهت معظم الأشكال التنظيمية والتوجهات العالمية إلى اعتماد أنظمة رقمية في مختلف المجالات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية. فمع توسيع دائرة استخدام شبكات التواصل الاجتماعي، أصبحت إمكانية الولوج إلى العديد من الخدمات والمعطيات بشكل بسيط وأسهل بكثير خلافاً لما كان عليه سابقا، كون هذه الأنظمة كخيط رابط بين المؤسسات من جهة، والأفراد من جهة أخرى، سواء على الصعيد العالمي أو المحلي (الماكرو والميكرو)، أنظمة قلصت من مختلف الأنشطة والعمليات التي كانت تمارس بشكل تقليدي، والتي كانت تتطلب وقتاً وجهدا كبيراً إلى عالم افتراضي يمكن الوصول إليه في أي وقت ومن أي مكان.

في ظل هذا، كان للفعل الاحتجاجي نصيباً كبيراً من إمكانية الانتقال إلى شبكات التواصل الاجتماعي، مما أدى إلى تغير نوعي في طبيعة الفعل الاحتجاجي بفضل زيادة عدد مستعملي للوسائل التكنولوجية الحديثة. ومن المعروف بالاستناد لمختلف الدراسات السوسيولوجيا أن هذا الفعل لم يعد يرصد في كثير من الأحيان بالشكل التقليدي (التجمهرات، الشعارات، الوقفات...)، بقدر ما تحول إلى عالم افتراضي بطرق تتماهى مع التطور التكنولوجيا، فقد "تشمل هذه الحركات الشبكات الاجتماعية المتصلة وغير المتصلة بشبكة الإنترنت، وكذلك الشبكات الاجتماعية التي وجدت قبل والشبكات التي تشكلت خلال أعمال الحركة، والشبكات داخل الحركة، وتلك التي شكلت مع حركات أخرى في أنحاء العالم، مع عالم مدونات الإنترنت ومع وسائل الإعلام ومع المجتمع بأسره"[1] .

من هذا المنطلق، كانت غايتنا فهم أهم التغيرات التي شهدها الفعل الاحتجاجي في العالم الرقمي، وذلك من خلال ثلاثة محاور، يتعلق المحور الأول بدور الرقمنة في تقليص الحدود المباشرة بين الفاعلين، أي تأثير استخدام وسائل التواصل الاجتماعي على العلاقة الشخصية المبنية على الاحتكاك والتي تساهم في اندماج الفرد في الجماعة بشكل لا إرادي، كما يرى غوستاف لوبون (Gustave Le Bon). أما المحور الثاني فيتمحور حول مسألة تعبئة الموارد في الزمن الرقمي؛ أي كيف انتقلت هذه التعبئة من شكلها التقليدي إلى مختلف المنصات الرقمية في مدة زمنية قصيرة؟ والمحور الأخير ارتأينا من خلاله رصد دور شبكات التواصل الاجتماعي في بروز العقلية المنفعية (الاقتصادية)، خاصة بعدما تمكن الفاعل من تحقيق نوع من الاستقلالية بفعل هذه الوسائل.

المحور الأول: الفعل الاحتجاجي والحدود بين الفاعلين والرقمنة: أية علاقة؟

اختلفت أشكال وأنواع الفعل الاحتجاجي باختلاف السياقات الزمانية، وتباينات المطالب عبر الأجيال، مما ساهم في استمرارية هذا الفعل. والجدير بالذكر أن آليات تشكيله وتنظيمه شهدت تغيرات عدة ارتبطت أساساً بمراحل تطور العنصر البشري، ومن المعروف أن تنظيم الاحتجاجات في السنوات الماضية، كان يتم على شكل مسيرات جماعية في الفضاءات العمومية كالشوارع أو المساحات الفارغة أو الخاصة (مثلاً داخل المؤسسات التعليمية، الشركات...).

يقضي الفعل الاحتجاجي وجود مجموعة من الأشخاص في فضاء ما، يتم فيه التعبير عن مطلب يكون في الغالب على شكل مصلحة مشتركة. يتسم هذا التنظيم بعدم وجود حدود جغرافية أو نفسية بين الأفراد؛ حيث يتفاعل الفرد مع المجموعة بانخراط كامل، لدرجة الانصهار أو التكيف معها بشكل غير عقلاني، كما وصف غوستاف لوبون الذي يرى أن "التغيرات التي تطرأ على الفرد المنخرط في الجمهور مشابهة تمامًا لتلك التي يتعرض لها الإنسان أثناء التنويم المغناطيسي" [2].

من هذا المنطلق، فإن غياب الحدود أدى إلى فقدان الفرد لآرائه ومواقفه، حيث "تتلاشى الشخصية الواعية وتتجه مشاعر الأفراد في اتجاه واحد ويتشكل نوع من الروح الجماعية" [3]. فالفعل الاحتجاجي هنا يشمل أفكاراً مشتركة تستهدف تحقيق تغيير أو مطلب جماعي، يتم التعبير عنه بشكل هستيري يفقد فيه الفرد أفكاره الشخصية واستقلاله، يستمد هذا التأثير مشروعيته من التجمع البشري الذي تذوب فيه آراء الفرد ويمكننا القول إن هذا التحليل استوحى من علم الفيزياء؛ أي تجاذب العناصر وتكاملها، ثم تطور في اتجاه تفسير كيمي الذي يرى أن الفرد يعمل بشكل إجباري وحتمي داخل المجتمع.

على خلاف ذلك، ومع التغير* والتطور الذي طرأ على معظم المجتمعات، لا سيما المستوى التكنولوجي الذي أدى إلى خلق علاقات افتراضية وتحولت الحدود القائمة بين الأفراد من واقع ملموس إلى شبكة سماه مانويل كاستلز(Manuel Castells) بثورة الاتصالات السلكية واللاسلكية، التي هي بمثابة "جزء من تغير أوسع نطاقاً وأعمق للرأسمالية العالمية من حيث معناها الاجتماعي، ومن حيث تنظيمها الاجتماعي نفسه" [4].

نمط جديد ساهم في كسر الحدود من جهة، وتسهيل عملية التعبئة من جهة أخرى لتشكل الفعل الاحتجاجي في عالم افتراضي، سواء عبر الصفحات الفايسبوكية أو الواتساب أو مكالمة هاتفية، وغيرها من الوسائل وهو ما سنحاول توضيحه في الفقرات اللاحقة.

مانويل كاستلز كنموذج: معروف أن مانويل كاستلز اهتم بشكل كبير بالحركات الاجتماعية* في عصر الإنترنت، وذلك من خلال كتابه **'شبكات الغضب والأمل: الحركات الاجتماعية في عصر الإنترنت'.** حاول من خلال هذا الكتاب أن يوضح آثار وسائل التواصل الاجتماعي على الفعل الاحتجاجي، لا سيما في سياق ثورة الربيع العربي. يركز كاستلز على كيفية تشكل هذه الحركات داخل مجتمع واحد أو بين مجتمعات مختلفة، وكيف أدت وسائل التواصل الاجتماعي إلى إعادة صياغة الفعل الاحتجاجي بمميزات وخصائص جديدة، كونه أخذ أشكالا متعددة في زيادة من حرية الأفراد وقلصت من رقابة السلطات المؤسسية* التي كانت تفكك الفعل الاحتجاجي بمختلف أشكاله.

أدى هذا التطور في وسائل الاتصال إلى تغير على مستوى تشكل الحركات الاحتجاجية، حيث تراجع دور الفاعلين المؤثرين كالنقابات وزعماء المعطلين، فتوسيع نطاق استخدام الإنترنت وما يرتبط بها مهد لظهور فعل بصورة جديدة تتيح للفرد حرية أكثر، نمط حل محل الأشكال التقليدية المقيدة بنظام سلطوي وقانوني، فقد انتقل إلى شبكات التواصل الاجتماعي التي تعتبر "مناطق تتمتع بالحكم الذاتي وتخرج إلى حد كبير عن سيطرة الحكومات والشركات التي احتكرت قنوات الاتصال على مر التاريخ كأساس لسلطتها" [5] كما قلل هذا التحول من العنف الذي تمارسه السلطات ضد المحتجين في الفضاءات العمومية، والذي كان يتضمن تفريق التظاهرات إضافة لاعتقالات متنوعة خاصة لقادة الوقفات.

إن ظهور هذه الوسائل التي اخترقت الحدود بين الفاعلين ساهمت في ظهور مسارات جديدة للفعل الاحتجاجي كونه لم يعد يرتبط بمكان معين؛أو بصيغةأخرى أنها غيرت أشكاله وأنواعه أدى كل هذا إلى نتاج آفاقاً جديداً لتفاعل الفرد معه وغير من البناء الثقافي السائد لدى الأفراد تجاه الفعل الاحتجاجي، نتيجة تطور تكنولوجية، المعلومات والاتصال وبروز ما سماه مانويل كاستلز بالمجتمع الشبكي، ترتب على ذلك نتاج قرارات فردية وفتحت مجالا للأفراد لاستعادة سلطتهم.

في سياق مماثل، حاول مانويل كاستلز من خلال دراسته أن يبين آثار هذه الوسائل

الهوامش

1- مانويل،كاستلز.شبكات الغضب والأمل الحركات الاجتماعية في عصر الإنترنت. بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2017، ص 249.

2- غوستاف، لوبون.سيكولوجية الجماهير. بيروت: دار الساقي، 1991، ص 31.

3- Gustave, Le Bon.Psychologie des Foules. Paris: Félix Alcan, 1971, P 19.

*يُعرف Guy Rocher في كتابه Le Changement Social التغير الاجتماعيعلى أنه: عبارة عن تحول ملحوظ وقابل للتحقق على مدى فترة زمنية أقصر؛حيث يمكن للمراقب نفسه خلال حياته أو حتى خلال فترة وجيزة منها، متابعة التطور ومعرفة النتيجة أو ما يمكن اعتباره نتيجة مؤقتة. علاوة على ذلك، فإن التغير الاجتماعي أكثر تحديداً من الناحية الجغرافية والاجتماعية، حيث يمكن ملاحظته في منطقة جغرافية أو في سياق اجتماعي ثقافي، ص 17.

4- ستيفن، سيدمان. معرفة متنازع عليها النظرية الاجتماعية في أيامنا. بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2021، ص 461.

على الفعل الاحتجاجي* بكل أشكاله وأنواعه، بغض النظر عن الأسباب الداعية لذلك "إنها دراسة لحركات المجتمع الشبكي، وهي الحركات التي ستشكل مجتمعات القرن الحادي والعشرين"[6] لذلك كان هدفنا توضيح الفعل الاحتجاجي في ظل مجتمع رقمي؛ بمعنى دور وسائل التواصل الاجتماعي فيتقليص الحدود القائمة بين الفاعلين لتشكله (الفعل الاحتجاجي)؛ حيث ساهمت في تحوله إلى عالم افتراضي يتم التعبير عنه بشعارات مثل الهشتاجات والميمات والفيديوهات. كلها أنماط بمثابة عقد تربط الفاعلين افتراضياً وترفع من نسبةالمشاركة، لهذا يقدم مانويل فكرة مفادها أن المجتمع المعاصر يتصف بعلاقة ترابطية بين أفراده بفعل التكنولوجيات الرقمية، التي غيرت منطبيعة الحدود القائمة بينهم.

بناءً على هذا، يظهر أن الفعل الاحتجاجي لم يعد يرتبط بمجال جغرافي محدد، بل اتسع نطاقه حيث "تعتبر تقنية الشبكات ذات دلالة، لأنها توفر المنصة لهذه الممارسة الشبكية المستمرة والواسعة التي تتطور مع الشكل المتغير للحركة، على الرغم من أن الحركات عادة ما تتجذر في الحيز الحضري من خلال الاحتلالات وتظاهرات الشوارع، فإن وجودها يستمر في الفضاء الحر للإنترنت"[7] ففضاء الإنترنت استطاع أن يوفر للفرد مساحة لتحدي وتجاوز النظام السلطوي. أو بعبارة أخرى؛ فإن حرية الفرد حلت محل السلطة المبنية على القوة والعنف.

يعكس هذا النموذج من الفعل الاحتجاجي ظهور الفرد بآليات جديدة يستطيع من خلالها التعبير عن قيمه ومصالحه الشخصية. وكذلك تمكن من تعبئة فئة لا يستهان بها من المشاركين والمعبرين عن المطلب نفسه بفضل وسائل التواصل الاجتماعي التي مكنت من تشكيل الرأي العام. "وقد تبدأ هذه الحركات عادة بتعبير بسيط عن رأي على منصة مثل الفايسبوك الذي يتحول في كثير من الأحيان إلى حركة حقيقية خاصة عندما يرتبط الأمر باختيارات ثقافية وسياسية واضحة"[8]. وسائل التواصل الحديثة تسمح للنشطاء بالتفاعل بطريقة حرة افتراضياً لكن سرعان ما يتحول هذا التفاعل إلى تشكيلات واقعية بالفضاءات العامة.

استطاعت وسائل التواصل الاجتماعي إذاً أن تُكوِّنَ حركاتٍ احتجاجية بفعل استقلال هذه الوسائل عن السلطة المؤسسية؛ حيث "أتاحت الشبكات إمكانية التداول والتنسيق الحر للعمل إلى حد كبير. ومع ذلك، هذا ليس إلا جزءًا واحدًا من العمليات التواصلية التي تربط الحركات الاجتماعية بالمجتمع ككل"[9]. " . لهذا لعبت دورًا أساسيًا في تغيير الفعل الاحتجاجي سواء تعلق الأمر بمسألة التعبئة وبالحدود بين الفاعلين من جهة وبين الفاعلين والسلطة من جهة أخرى. فقد أخذ تمظهرات جديدة نتيجة منصات سماه بالاتصال اللاسلكي، والذي بدوره زاد من أهمية الفعل بعدما أصبح متاحًا لدى مجموعة من الأفراد.

لم يعد الفعل الاحتجاجي يختزل في الأشكال التقليدية التي هي عبارة عن تجمعات ومظاهرات. وسعت هذه الأشكال من الحدود القائمة بين الفاعلين. على العكس، انتقلت معظم الصور والرسائل والشعارات الاحتجاجية إلى حسابات افتراضية. "والحال أن انتشار الشبكات الاجتماعية القائمة على الإنترنت شرط ضروري لوجود هذه الحركات الاجتماعية الجديدة في عصرنا" [10] المتميز بتقنية تكنولوجية جد متقدمة.

يمكن القول إن طبيعة الفعل الاحتجاجي قد شهدت تغيرات عدة بفعل التطور التكنولوجي الذي أحدث تغييرات عميقة في سلوك الأفراد وتفاعلاتهم. فبدلاً من الأشكال التقليدية للاحتجاج، برزت أساليب جديدة تعتمد على أدوات رقمية واسعة الانتشار، مما خلق فضاءات افتراضية مفتوحة للتعبير والتنظيم. وبالتالي، تحولت النقاشات والحوارات إلى مسارات جديدة يتم فيها تحديد حدود حرية التعبير بشكل متزايد بفعل "تطور الحملات وتحركات الحركة الاجتماعية ومظاهر الوقفة استجابة للوسائل المتغيرة في الاتصالات" [11]. وقد ساهم هذا التطور في زيادة عدد المشاركين في الحركات الاحتجاجية، وتعزيز تفاعلهم وتنسيق جهودهم.

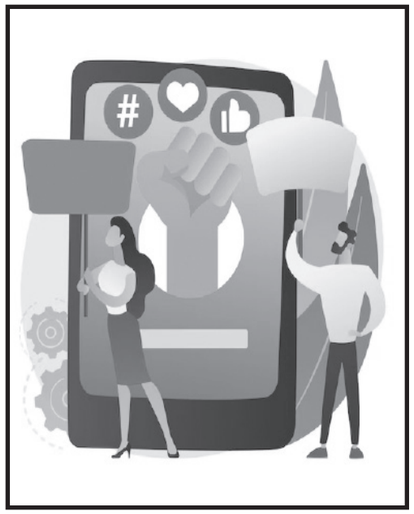

يمكن القول إن تغير وسائل الاتصال من بيئة تقليدية محكومة بقيود المكان والزمان، وعدد الأفراد بناء على مصالحهم المشتركة وقيمهم المتبادلة، إلى منصات رقمية مفتوحة، قد غير بشكل جذري طبيعة الفعل الاحتجاجي، ففي الفضاء الرقمي، تحولت الذات الفردية إلى رقم، لهذا "يوفر الاتصال الذاتي والجماعي المنصة التكنولوجية لبناء استقلال الفاعل الاجتماعي سواء كان فردا أو جماعة مقابل مؤسسات المجتمع"[12]وبالتالي، لم يعد الفعل الاحتجاجي مقصوراً على نطاق جغرافي محدود، كما هو الشأن لتعبئة الفاعلين المنخرطين في ذلك، بل أصبح من الممكن أن يشمل العالم أجمع.

إن ما يجب توضيحه إذن أن الذي حدث هو "مجرد اختراع وسائل اتصال جديدة لم يغير بمفرده خاصية الحركات الاجتماعية. فبعض المنظمين للحركات الاجتماعية. ما حدث بالضبط أن بعض منظمي الحركات الاجتماعية كيفوا وسائل الاعلام التي توافرت حديثا لتتلائم مع نشاط كانوا يقومون به بالفعل" ؛[13] بعبارة أخرى، هذه الوسائل لم تخلق حركات احتجاجية جديدة من العدم، بل قام النشطاء بتطوير وتكييف هذه الحركات لتستفيد من التقنيات الحديثة، وقد أدى هذا الدمج بين القضايا الاحتجاجية والتكنولوجيا الحديثة إلى تسهيل التواصل والتنسيق بين النشطاء بشكل كبير.

تصور كاستلز شبكة التواصل الاجتماعي على أنها قادرة على تشكل فعل افتراضي يتحول إلى غضب وسخط واقعي. فرغم أنه يبدأ من الفرد فقد يستطيع أن يتطور إلى حركات جماعية واسعة النطاق، بفعل خلق روابط جماعية خاصة عندما تكون التعبئة سريعاً ومشحوناً (مملوء)بالعواطف القوية مثل الغضب والحماس والأمل؛ بحيث "كلما كانت عملية التواصل أسرع وأكثر تفاعلية زادت احتمالية تشكيل عملية عمل جماعي، مدفوع بالغضب الشديد ودعمها الحماس وتحفزه للأمل"[14] ، فالأفكار والصور تنتشر بسرعة هائلة عبر هذه المنصات؛ بصيغة أخرى يشبه ذلك كرة الثلج.

وقد أشار مانويل كاستلز إلى أن

الهوامش

* يشير مفهوم الحركات الاجتماعية حسب تشارلز تيلي في كتابه "الحركات الاجتماعية 2004-1768" إلى وجود اتجاه عام للتغيير؛ وهي تشمل أيضاً مجموعات من البشر يحملون عقيدة أو أفكار مشتركة، ويحاولون تحقيق بعض الأهداف العامة. كما يشير البعض إلى أن الحركة الاجتماعية هي محاولة قصدية للتدخل في عملية التغيير الاجتماعي، وهي تتكون من مجموعة من الناس يندرجون في أنشطة محددة، ويستعملون خطاباً يستهدف تغيير المجتمع، وتحدى سلطة النظام السياسي القائم. كما يقترن مفهوم الحركة الاجتماعية بمفهوم القوة الاجتماعية، والقدرة على التأثير وإحداث التغيير. ص 14.

* نقصد بالسلطات المؤسسية المؤسسات القانونية والإدارية؛ أو بصيغة أخرى التنظيمية التي تسهر على مراقبة الفاعلين المشاركين في الفعل الاحتجاجي، بما في ذلك السلطات المحلية (المقدم- الشيخ- القائد...)، والسلطات الأمنية (الشرطة، الدرك الملكي...).

5- Manuel, Castells.Networks of Outrage and Hope Social Movements in Internet Age. Second Edition.USA: Malden, 2015, P.02.

* نقصد بالفعل الاحتجاجي سلسلة من الأحداث قصيرة المدى، تأخذ طابعاً مؤقتاً يمكن أن تكون مظاهرة أو اعتصاماً أو إضراباً، ويتم فيه التعبير عن موقف معين كما تركز على مطلب محدد، فهو جزء من الحركات الاجتماعية؛ أو بصيغة أخرى هو صورة من صور الحركات الاجتماعية لاعتبار هذه الأخير تأخذ طابعاً عاماًفهي أشمل وأوسع.

6- Manuel, Castells.Networks of Outrage and Hope Social Movements. Ibid,P 04.

7- مانويل،كاستلز.شبكات الغضب والأمل الحركات الاجتماعية في عصر الإنترنت. مرجع سابق، ص 249.

8- Gustave, Massiah."Les Mouvements Sociaux à L'ère du Numérique".2019, P7.

https://cfeditions.com/lacrymo/ressources/Zeynep_Tufekci_Gus_Massiah.pdf

[Consulté le 05/01/2025].

9- Manuel,Castells.Networks of Outrage and Hope Social Movements. Ibid,P10.

10- مانويل،كاستلز.شبكات الغضب والأمل الحركات الاجتماعية في عصر الإنترنت. مرجع سابق، ص 226.

11- تشارلز،تيلي.الحركات الاجتماعية -1768 2004. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2005، ص 170.

12- Manuel, Castells.Networks of Outrage and Hope Social Movements. Ibid, P07.

13- تشارلز،تيلي. الحركات الاجتماعية. مرجع سابق، ص 177.

14- Manuel, Castells.Castells.Networks of Outrage and Hope Social Movements. Ibid,P15.

هذه الظاهرة هي جزء من ثورة اتصالات شاملة غيرت من طبيعة الفعل الاحتجاجي نتيجة ما سماه "ثورة الاتصالات السلكية واللاسلكية" [15]. فالتواصل عبر الإنترنت قد تخطى الحدود الجغرافية والاجتماعية، مما سمح للأفراد من مختلف الخلفيات بالانضمام إلى الحركات الاحتجاجية والتعبير عن آرائهم بحرية. ونتيجة لذلك، شهدنا ظهور نماذج جديدة من الاحتجاجات تتميز بسرعتها واتساع نطاقها.

المحور الثاني: التعبئة الاحتجاجية في المجتمع الرقمي

تعتمد أي حركة احتجاجية على آليات فعالة لتعبئة الأفراد وجذبهم للمشاركة، هـذه الآليـات تعتبر حجر الأسـاس في تنظيم وتنسيق الحركة، وكـذا في جذب وحشد الفاعلين الـذيـن سيشاركون في الفعل الاحتجاجي، وبمـا أن المجتمع يتغير وتتغير معه هذه الأشكال،فمسألة التعبئة ستختلفوستتطور أساليبها. ففي الماضي، كانت الصحف والمجلات ووسائل الإعلام التقليدية تؤدي هذا الدور، إلا أن تأثيرها كان ضعيفاً،"فتأثير الصحف على جماهير الحركة الاجتماعية كان محدوداً، نظراً لانخفاض نسبة من يعرفون القراءة والكتابة" [16].

ومع ظهور وسائل التواصل الاجتماعي، تغيرت هذه المعادلة بشكل جذري، حيث أصبح من السهل الوصول إلى عدد أكبر من الأشخاص وتنسيق الجهود بشكل أسرع وأكثر فعالية، نتيجة تغير نمط التعبئة التي انتقلت إلى منصات وصفحات الفايسبوك بشعرات جديدة كالهشتاجات إضافة إلى * الخوارزميات التي تساعد على تبسيط وتسهيل التواصل وتبادل المعلومات. فقد ثمة فضاءات بديلة تتجاوز القنوات التقليدية على مستوى التعبئة.

يُفسر ضعف تأثير هذه الوسائل في الأزمنة الماضية بالمستوى الثقافي المرتبط أساساً بمسألة القراءة والكتابة من جهة، "وأيضاً عدم التكافؤ في استخدام الإنترنت حوالي 06%فقط من سكان العالم حتى عام 2000 كان له أيضاً نفس التأثير" [17]. هذا التفاوت في مستوى الاستخدام وقدرة الأفراد على استيعاب المعلومات وتوظيفها كان له تأثير كبير على تجانس وتنسيق الجهود، مما أدى إلى ضعف الأنظمة القائمة على الوحدة.

في ظل توسع وهيمنة شبكات التواصل الاجتماعي، انتقلت التعبئة من شكلها التقليدي إلى نمط جديد اتخذ مسارًا في التنظيم والتنسيق. لذلك، لا "تحدد التكنولوجيا الحركات الاجتماعية، أو في هذه المسألة، أي سلوك اجتماعي. ولكن، شبكات الإنترنت والهواتف النقالة ليست مجرد أدوات بل أصبحت أشكالًا تنظيمية شكال للتعبير الثقافي ومنصات محددة للاستقلال السياسي" [18]. فالانتقال إلى فضاءات رقمية عابرة للحدود الجغرافية، وتحولها إلى صور أو فيديوهات أو كتابات على صفحات فيسبوك وتـويـتر، أعـادت إشعال نيران الحركات الاحتجاجية، كما عملت على إعادة نسج علاقات تواصلية وتنظيمية بين النشطاء.

ارتـبـطـت مـسـألـة التعبئة للفعل الاحتجاجي بنتاج قيم اجتماعية جديدة، خاصة ما يرتبط بآلة تكنولوجية متطورة، فقد "لعبت الهواتف المحمولة والشبكات الاجتماعية على الإنترنت دورًا رئيسيًا في نشر الصور والرسائل التي تحشد الناس، حيث قدمت منصة للنقاش ودعت إلى العمل ونسقت ووضعت تنظيما للاحتجاج ونقلت المعلومات إلى عامة الناس" [19]، فتعدد أنواع الأساليب أتاح إمكانية انخراط مجموعة أكبر من الأشخاص في الفعل الاحتجاجي. فإذا كان النموذج التقليدي يستدعي القراءة والكتابة، فإن النموذج المرتبط بالتكنولوجيا يمكن أن يكون صـورًا أو مقاطع فيديو يفهمها الجميع.

استطاعت كل هذه الخدمات أن تنتج علاقات اجتماعية وهوية احتجاجية جديدة بفعل انتشار النداءات بين الفاعلين، مما أدى إلى تشكل حركة احتجاجية، سواء كانت هذه الحركة افتراضية، وذلك بشعارات متفق عليها، أو واقعية كالوقفات الاحتجاجية. وبما أن الأشكال التقليدية تبدأ تعبئتها من خلال وسائل تقليدية تستطيع السلطة، في كثير من الأحيان، التحكم فيها، فإن التخطيط للحركات الاحتجاجية الحديثة بدأ ينتقل إلى وسائل التواصل الاجتماعي، "فلا شك أن المساحات الأولى للمقاومة قد تشكلت على الإنترنت، حيث واجهت أشكال النضال التقليدية أقصى درجات القسوة من قبل السلطة التي كانت تمارس التعذيب بمنتهى الإفلات" [20].

بشكل معاكس، ومـع توسع نطاق المشاركة، نظراً لاعتبار منصات التواصل الاجتماعي مفتوحة أمام الجميع للتعبئة والتنظيم، فإن أشكال العنف بدأت تتراجع، كون قضية التعبئة أصبحت تتم بسرعة فائقة، وبالتالي يصعب على السلطات التحكم في الفعل أو تشويهه أو منعه، لذلك، فالأدوات الرقمية، تتجلى إمكانياتها في تنظيم الحملات الاحتجاجية وخلق مساحات للحوار وتبادل الآراء بين الفاعلين بشكل افتراضي، فرغم عدم التوازن في كثير من الأحيان بين الافتراضي والواقعي، إلا أن دور وأهمية الرقمنة يظل حاضري في مسألة التعبئة.

"لقد أفضت عولمة الاتصالات الإلكترونية الجماهيرية إلى ما أصبح يسمى التوسع الأفقي لوسائل الإعلام، ففي ظل التنظيمات العالمية المـوحـدة لاستخدامات الأقـمار الصناعية والبث عبر القنوات الفضائية، تجاوز الإعـلام الـحـدود الوطنية للدول المفردة، مثلما تجاوز القيود التي تفرضها أجهزة والرقابة في تلك البلدان" [21]، وإذا ما ربطنا ذلك بتعبئة الفعل الاحتجاجي، يظهر أن قدرة هذه الوسائل على تجاوز الحدود الجغرافية، وتجاوز الرقابة سيؤدي إلى نجاح تعبئة مجموعة من الفاعلين من نفس أو مختلف المجتمعات.لذلك، فإن زيادة نسبة مستخدمي هذه الوسائل تساهم في تغيير المنطق التقليدي لتعبئة الأفراد لتشكل حركة احتجاجية.

حـاول مانويل كاستلز الحديث على شساعة هذه الوسائل في مسألة التعبئة، وقد أعطى مثالاً على ذلك بالثورة المصرية التي شكلت من خلال نشر فيديوهات وصور تعبر عن واقع ما، وقد استطاعت هذه الأشرطة (الفيديوهات والصور)، كنماذج جديدة للتعبئة من بناء فعل احتجاجي، "فتحميل فيديو قصير من اليوتيوب وانتشاره بشكل واسع في جميع أنحاء الشرق الأوسط، لدرجة أنه أصبح يعرف باسم الفيديو الذي ساعد على إشعال الثورة". لذلك، فإن الوسائل الرقمية لها تأثير كبير في التنسيق والتنظيم، فلديها القدرة على تحويل الشعارات إلى حشد وغضب في الفضاءات العمومية.

مكنت وسائل التواصل الاجتماعي من خلق مظاهرات في مختلف أنحاء العالم، نظراً لما تؤديها من دور مهم في تشكل الأفعال الاحتجاجية متعددة الأوجه، ومن الواضح أن التعبئة تبدأ من صفحات الفايسبوك لتصل إلى النشطاء والفاعلين، سواء كانوا جزءاً من هذا الفعل أو العكس. فمع الاستخدام الكبير للهواتف النقالة التي أصبحت جزءاً أساسياً من الحياة اليومية، تغيرت طبيعة التعامل مع الممارسات والسلوكيات الاحتجاجية في المجتمعات الرقمية؛ حيث تعتبر تلك الفضاءات مجالاً للنقاش والتخطيط.

مما لا شك أن هذا النموذج الجديد من التعبئة ارتبط، حسب مانويل، بارتفاع وزيادة مستخدمي وسائل الاتصال الجديد، مؤكداًأن فئة الشباب هي الأكثر استخداماً لهذه الوسائل خاصة في بعض المجتمعات العربية التي عرفت مختلف الحركات الاحتجاجية، حيث كانت لهذه الوسائل دوراً كبيراً في التعبئة، "فوفقاً للاتحاد الدولي للاتصالات، كان حوالي ربع الأسر المصرية متصلاً بالإنترنت في عام 2009، وكانت النسبة أعلى بكثير للفئة العمرية المتراوحة بين 20 و35 سنة في القاهرة والإسكندرية وغيرها من المدن الكبرى، إذ استطاعت الغالبية العظمى من هؤلاء الشباب، سواء من منازلهم أو مدارسهم أو المقاهي، الوصول إلى الإنترنت"[22] ، والتي من خلالها قاموا بتعبئة الحركة التي تحولت إلى ثورة مصرية.

لعبت وسائل التواصل الاجتماعي دوراً مهماً في توزيع المبيعات على نطاق واسع، وحسب مانويل، فإن تغيير نسخة الفايسبوك إلى اللغة العربية هو ما أدى إلى زيادة المستخدمين، مما مكّنه من استخدامه كوسيلة للتأثير،"ففي أقل من عامين بعد إطلاق فايسبوك نسخته العربية عام 2009، تضاعف عدد المستخدمين ثلاث مرات ليصل إلى 5 ملايين مستخدم بحلول فبراير 2011،

الهوامش

15- ستيفن، سيدمان.معرفة متنازع عليها النظرية الاجتماعية في أيامنا.مرجع سابق، ص 461.

16- تشارلز، تيلي.الحركات الاجتماعية. مرجع سابق، ص 177.

* الخوارزميات: هي مجموعة من القواعد والقوانين التي تحدد كيفية عمل المنصات الرقمية، وتلعب دوراً حاسماً في تشكل وتوجيه الحركات، وهي تقوم بتحليل كميات هائلة من المعطيات لتقديم نتائج مخصصة للمستخدمين بناء على اهتمامات وتفاعلات الفاعل.

17- تشارلز، تيلي.الحركات الاجتماعية.مرجع سابق،ص 177.

18- مانويل،كاستلز.شبكات الغضب والأمل الحركات الاجتماعية في عصر الإنترنت. مرجع سابق، ص 121-120.

19- Manuel,Castells. Networks of Outrage and Hope Social Movements. Ibid, P46.

20- Manuel, Castells, Networks of Outrage and Hope Social Movements.Ibid,P57.

21- أنتوني، غذنز.علم الاجتماع. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2005، ص 530.

22- Manuel, Castells. Networks of Outrage and Hope Social Movements. Ibid,P58.

حيث تم إضافة 600 ألف مستخدم خلال شهري يناير وفبراير اللذين سبقا اندلاع الثورة. وبمجرد أن وصلت الرسالة التي تم نشرها عبر الإنترنت إلى مجموعة كبيرة من الشباب المصريين النشطاء والمتحمسين للتكنولوجيا، قامت شبكة الهواتف المحمولة بتوسيع نطاق الرسالة لتشمل شريحة أوسع من السكان" [23].

بَيَّنَتْ هذه الأرقام الإحصائية أن اتجاه الأفـراد لاستخدام وسائل الاتصال شكل انتقالاً وتغيراً نوعياً في تعبئة وتَشَكُّل الحركات الاحتجاجية، إنه تغير مهد لأنماط جديدة؛ حيث أصبحت هذه الأفعال أكثر حداثة، تتميز بسرعة افتراضية وبرسائل نصية، لتشمل عدداً كبيراً من الأفراد، وسائل تمتلك القدرة على تحريك الفعل الاحتجاجي وخلق روابط للتنسيق. والخلاصة الأساسية هي أن التعبئة تجاوزت الطرق التقليدية وانفتحت على المجتمع الرقمي بطرق أكثر تقدماً.

المحور الثالث: الفعل الاحتجاجي كاختيار عقلاني في المجتمع الرقمي

بما أن الفعل الاحتجاجي، في معناه التقليدي، هو عبارة عن تجمعات ووقفات واعتصامات، أو بصيغة أخـرى؛ وجود جماهير تعبر عن رأيها بتعبير غوستاف لوبونالذي "يتطلب انصهار أفراد في روح واحـدة وعاطفة مشتركة، تقضي على التمايزات الشخصية وتخفض من مستوى الملكات العقلية" [24]، فإن ذلك يتطلب تكاليف مادية من جهة،ورمزية من جهة أخرى مثل الوقت (ساعات الوقفة، التنقل، الإيواء).

في المقابل، ومع توسع قوة التكنولوجيات المعلومات والاتصال، تراجع هذا النوع من الفعل سواء على مستوى التنظيم أو التعبئة، ظهر دور الفاعل وحريته واختياراته بشكل واضح، فأصبح في كثير من الأحيان لا يتأثر بالجماعة، نظراً للدور الذي لعبته وسائل الاتصال الجديدة التي ساهمت في استقلال الأفـراد وتباعدهم فيما بينهم، مما أدى إلى اتخاذ خيارات فردية للمشاركة أو عدم المشاركة في الفعل، فغياب التجمع والتواصل المباشر بين الفاعلين جعل الفاعل أقل تأثراً بما كان عليه.

عموماً، مع تطور الفعل الاحتجاجي وانتقاله إلى المنصات الإلكترونية وخلق مسافة بعيدة بين الأفراد، يمكننا القول إن مسألة الاختيار العقلاني التي تخضع لمنطق الربح والخسارة برزت بشكل واضح. حيث يرى منكور أولسون(Mancur Olson)أن "هناك حافزاً قوياً لكل فرد في المجموعة للانتظار حتى يعمل الآخرون على تحقيق الهدف والاستفادة من النتيجة دون بذل أي جهد، والذي يسمى بمشكلة الراكب الحر" [25]. فعلى الرغم من أولسـون لم يتحدث عن الرقمنة، إلا أنه إذا ما ربطنا ذلك بزيادة مستخدمي وسائل التواصل الاجتماعي خاصة الفايسبوك، الذي "أصبح نقطة التقاء للشباب الذين لا يستغنون عن التواصل مع أصدقائهم، الذين يتبادلون الآراء والتعليقات ويتشاركون الصور والفيديوهات ويستخدمونه للتواصل، وقد لوحظ انخفاض كبير في استخدام البريد الإلكتروني بين الشباب لصالح الفايسبوك" [26].

وفقاً لهذا التحليل، الذي يدعمه دراسة أولسون حول الإنسان الاقتصادي، يبدو أن اعتبار الفايسبوك وسيلة اتصال قد أدى إلى تبسيط الاحتجاج إلى شكله الرقمي، الذي لا يتطلب خسائر مادية ولا يعرض الفرد للعنف أو الاعتقال، هذه الوسائل الجديدة قد ولّدت عقلية جديدة تجاه الفعل الاحتجاجي، حيث تحولت معظم النقاشات والحوارات الميدانية إلى منصات رقمية فردية ومنفعية، وبالتالي، لم يعد "الانضمام إلى المجموعة بدافع الرغبة في الانتماء بقدر ما أصبح بدافع الأمل في الحصول على الفائدة في هذا الانتماء" [27]، بعبارة أخـرى، لم يعد الفاعل يندمج في الجماعة بشكل عفوي، بل أصبح يختار الانتماء بناءً على مصالحه الشخصية، كون الصفحات الافتراضية عملت على خلق تباعد جسدي ونفسي بين الأفراد، نتج عليه قدرة الفرد على الاختيار العقلاني.

بعدما أصبح التنسيق والتنظيم والحوار عنصراً أساسياً في شبكات التواصل الاجتماعي الحديث، بل هي المحرك الأساسي لكثير من مظاهر الفعل الاحتجاجي، يظهر أن الفرد مبني على مبدأ المصلحة الخاصة (المنفعة الشخصية)؛ حيث مكنهذلك من حساب الربح والخسارة من المشاركة بشكل عملي في الفعل، لأن الدوافع المادية غالباً ما تطغى على مثيلاتها الاجتماعية والنفسية، رغم أنأولسون لا ينكر دور هذه الأخيرة؛ حيث يرى أن "الدوافع الاقتصادية ليست هي الدافع الوحيد الذي يحرك الأفـراد، فالناس غالبًا ما يسعون إلى المكانة والاحترام والأصـدقـاء وأهـداف نفسية أخـرى" [28]، شريطة أن تكون المجموعة صغيرة، "عكس المجموعات الكبيرة التي لا تلعب فيها هذه المحفزات أي دوربسبب عددها الكبير وقلة التواصل المباشر بين أعضائها" [29].

إن ظهور نمط وتنظيم جديد للاحتجاج، الـذي يتغنى بـالانـفـتـاح بفعل دور التكنولوجيا، التي أدت إلى إنتاج عقلية منفعية، بعدما تحولت أشكال التنظيم من تنظيم مباشر إلى تنظيم مسبق(عن بعد)، متحكماً في ذلك زيادة نسبة المستخدمين الذين يفضلون استخدام الفايسبوك على خـلاف الوسائل الأخـرى كالتلفاز التي "استغرقت التلفاز 40 سنة للوصول إلى 50 مليون مستخدم، بينما استغرق فايسبوك سنتين فقط لتحقيق هـذا الإنـجـاز، مع إضافة حوالي 800 ألف مستخدم جديد يومياً في متوسطسنة 2009، ووصل عدد المستخدمين النشطين إلى 500 مليون في يونيو 2011،وقد ارتفع ذلك إلى 650 مليون في منتصف العام نفسه، لذلك تجاوز حساب الفايسبوك من حيث سرعة النمو وشهرته وعدد مستخدميه، كل ما سبقه" [30].

ساهم هذا الانتقال فيما سماه أولسون بالاختيار العقلاني؛ أي عقلانية الفاعلين في اختيارهم تبني الفعل الاحتجاجي أو عدم تبنيه، لأنه أصبح يعمل على رفع المكاسب وتقليل التكاليف، فالقراءة التي حاولنا تقديمها هي أن هيمنة وسائل التواصل الاجتماعي وجعلها وسيلة أساسية للتفاعل، لم يعد الفرد يتأثر بالجماعة أو ينصهر فيها، فغياب الحدود المباشرة بين الفاعلين مكنه من استحضار منطق الحساب من جهة، ومن جهة أخرى، يقتصر الأمر في كثير من الأحيان على الصفحات الفايسبوكية التي لا تتطلب تكاليف زمنية ومادية بتعبيرات مختلفة كما أن سلف بنا الذكر كالهاشتاجات* والميمات* ومختلف العبارات التي هي بمثابة شكل من النضال.

الهوامش

23- Manuel, Castells.Networks of Outrage and Hope Social Movements. Ibid, P58.

24- غوستاف، لوبون.سيكولوجية الجماهير. مرجع سابق، ص 30.

25- Mancur, Olson.Logique de L'action Collective. Paris: Presses Universitaires de France, 1978, P 09.

26- Dominique, Piotet."Comment les Réseaux Sociaux Changent Notre Vie". Esprit, Numéro 376- 7 Juillet, 2011, P85.

27- Mancur, Olson. Logique de L'action Collective.Ibid. P 26.

28- Mancur, Olson, Logique de L'action Collective. Paris : Presses Universitaires de France, 1978,P 83.

29- Mancur, Olson, Logique de L'action Collective.Ibid. P. 84.

*الهاشتاجات: هي أداة لتنظيم أو المشاركة في فعل احتجاجي، عبر حسابات إلكترونية خاصة الفايسبوك ويرمز له بعلامة (#).

* الميمات: هي أداة من أدوات الاتصال في المجتمع الرقمي، والتي تساهم في التعبير عن رأي أو بناء هوية جماعية للمحتجين.

30- Dominique, Piotet, "Comment les Réseaux Sociaux Changent Notre Vie", Esprit, Numéro 376 -7Juillet 2011, P. 85.

خاتمة.

بناءً على ما سبق يمكننا تقديم ثلاث خلاصاتأساسية على الشكل التالي:

هيمنة وتوسيع نطاق استخدام الوسائل التكنولوجية حَوَّلَ الفعل الاحتجاجي إلى مِنَصَّات رقمية تتجاوز كل الحدود الجغرافية، وقلص من الاحتكاك المباشر بين الفاعلين والنشطاء؛ حيث لم يَعُد الاحتجاج يقتصر على المظاهرات والشعارات في الشوارع، بل انتقلت معظم أشكالها إلى وسائل التواصل الاجتماعي، كفضاء للتعبير عن الرأي العام بناءً على آراء الأفراد،فتأثيرها على الحدود بين الفاعلين في شكله التقليدي، أضحت هذه الوسائل قادرة على إنتاج محتوى مرئي وصوتي يتم من خلالها نشر دور الاحتجاج الذي يتحول في بعض الأحيان إلى حشد وغضب اجتماعي، كما بَيَّنَ مانويل كاستلز في تحليله لثورة الربيع العربي،والفكرة الأساسية التي حاول تقديمها هي أن زيادة استخدام وسائل التواصل الاجتماعي، واستعمالهاأثرعلى منطق التجمهر القائم على التفاعل المباشر.

انتقال الاحتجاج إلى صفحات افتراضية أدى إلى تسريع انتشار المعلومات بسرعة فائقة بين الفاعلين والنشطاء، خلافاً للشكل التقليدي وخاصة على مستوى التعبئة، التي امتدت إلى الفضاء الرقمي لتخترق كل الأوساط والأحياء، وذلك بفضل ارتفاع نسبة مستخدمي مختلف الصفحات الإلـكـترونـيـة، كـما وضحنا في مختلف الإحصائيات. فالتعبئة لم تختزل في نموذجها التقليدي، بعدما أصبح الفضاء الافتراضي فضاءً للتفاعل، يتم من خلاله تمرير عملية التعبئة لخلق هوية احتجاجية تتجاوز كل الصعوبات والاكراهات الواقعية؛ بحيث استطاعت هذه الوسائل مواكبة مختلف التغيرات التكنولوجية التي شهدتها معظم المجتمعات، مما ساهم في تسهيل وتسريع عملية تعبئة الفاعلين.

في ذات السياق، مع تراجع الأشكال التقليدية للفعل الاحتجاجي، خاصة التجمعات التي حلت محلها وسائل افتراضية، استطاع الفرد أن يتصرف بشكل أكثر عقلانية، وذلك بمحاولة تحقيق أقصى قدر من الربح بأقل تكلفة بفعل تراجع دور الجماعة التي يتأثر بها، فالمشاركة عن بعد والمبنية على الاستقلالية والفردانية، القائمة على مبدأ الاختيار العقلاني، والتي انعكست على الانخراط العملي في الفعل الاحتجاجي؛ بحيث أضحى الفرد يقتصر على التعاليق وتشجيع الفعل انطلاقًا من حسابه الشخصي، تبعاً لاستراتيجيات ذاتية تركز على تقييم التكاليف والمكاسب. ■

المراجع و المصادر

-أنتوني، غذنز.علم الاجتماع. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2005.

-تشارلز، تيلي.الحركات الاجتماعية -1768 2004. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2005.

-ستيفن، سيدمان.معرفة متنازع عليها النظرية الاجتماعية في أيامنا. بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2021.

- مانويل، كاستلز.شبكات الغضب والأمل الحركات الاجتماعية في عصر الإنترنت. بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2017.

-غوستاف، لوبون.سيكولوجية الجماهير. بيروت: دار الساقي، 1991.

- Dominique, Piotet."Comment les Réseaux Sociaux Changent Notre Vie". Esprit, Numéro 376- 7 Juillet 2011.

- Gustave, Le Bon.Psychologie des Foules. Paris: Félix Alcan, 1971.

- Gustave, Massiah."Les Mouvements Sociaux à L'ère du Numérique". 2019.

https://cfeditions.com/lacrymo/ressources/Zeynep_Tufekci_Gus_Massiah.pdf

- Manuel, Castells.Networks of Outrage and Hope Social Movements in Internet Age. Second Edition, USA: Malden, 2015.

- Mancur, Olson.Logique de L'action Collective. Paris : Presses Universitaires de France, 1978.

شبكات التواصل الاجتماعي وتأثيرها في بناء الهوية الشخصية لدى المراهقين المقيمين بمؤسسات الرعاية الاجتماعية: دار الطالب بتنغير نموذجاً

نافع أبوعبدالله
باحث في علم الاجتماع
جامعة شعيب الدكالي الجديدة

الملخص

تعد المراهقة مرحلة انتقالية من الحياة تتسم بالتحولات في عدة جوانب(نفسية، اجتماعية وعاطفية) وتطور بناء الشخصية. مـن خـلال العمليات التفاعلية، يبدأ المراهقون في تشكيل هويتهم حتى يصبحوا بالغين. تعد التكنولوجيا الرقمية جزءًا لا يتجزأ من حياتهم، وهو ما جعل من المراهقة اليوم تجربة حياتية رقمية بشكل متنامٍ، حيث أن الاعتماد المتزايد على التكنولوجيا من طرف المراهقين أدى لتراجع أهمية دور المؤسسات الاجتماعية التقليدية (الأسرة والمـدرسـة) كمرجع رئيسي في تنشئتهم الاجتماعية إلى المرتبة الثانية. بالنسبة للمراهقين الذين يعيشون في مؤسسات الرعاية الاجتماعية، فإن هذه الوضعية تزداد واقعية وتأخذ أبعاداً أكثر تعقيداً، نظرًا لابتعادهم عن عائلاتهم.

تسعى هذه الدراسة إلى فهم دينامية سيرورات التواصل التي تتشكل من خلال وسائل التواصل الاجتماعي وتأثيرها على بناء الهوية لدى المراهقين المقيمين في مؤسسات الرعاية الاجتماعية، وتحديداً في مؤسسة دار الطالب بتنغير. ومن خلال التحليل والمقاربة الكيفية الميدانية، كشفت الـدراسـة عن الأبعاد المعقدة للتفاعل الاجتماعي بين المراهقين في مراكز الرعاية، ودور وسائل التواصل الاجتماعي في بناء هويتهم الذاتية. توفر ذات الوسائل فضاءً أساسياً لتشكيل وعيهم الذاتي وبناء هويتهم بطرق تختلف عن التجارب التقليدية في العالم الواقعي.

الكلمات المفتاحية: المراهقة - بناء الهوية - وسائل التواصل الاجتماعي - مؤسسة الرعاية الاجتماعية.

ABSTRACT

Adolescence is a transitional stage of life characterized by changes in various aspects (psychological, social, emotional) and the development of personal identity. Through interactive processes, adolescents begin to shape their identity as they transition into adulthood. Digital technology has become an integral part of their lives, making adolescence today an increasingly digital life experience. The growing dependence on technology among adolescents has led to a decline in the importance of traditional social institutions (such as family and school) as the primary reference for their socialization, placing them in a secondary position. For adolescents living in social care institutions, this situation becomes even more complex, as they are distanced from their families.

This study seeks to understand the dynamics of communication processes formed through social media and its impact on identity construction among adolescents residing in social care institutions, specifically in the Dar A-Talib in Tinghir.

Keywords: Adolescence - Identity building - Social media - Social care institution.

Through analysis and a qualitative approach, the study reveals the complex dimensions of social interaction among adolescents in care centers and the role of social media in shaping their self-identity. These platforms provide an essential space for forming self-awareness and building identity in ways that differ from traditional experiences in the real world.

KEYWORDS: Adolescence-identity construction - social media-social care institution.

تمهيد

تعتبر المراهقة بمثابة مرحلة عمرية شبه مستقلة بين الطفولة والبلوغ يتم بناؤها اجتماعياً ضمن مسار الحياة، وتختلف الأعمار التي يدخل فيها الأفراد مرحلة المراهقة ويغادرونها حسب السياق التاريخي والثقافي، ويُعتقد أن هذه الحدود الزمنية تتغير حاليًا، مما يطيل فترتها بشكل عام[1] .فهي تتميز بالتغيرات الفسيولوجية والسوسيو-نفسية وتطوير الهوية الشخصية، من خلال التفاعلات الاجتماعية، حيث يقوم المراهقون بتشكيل هويتهم إلى أن يصبحوا بالغين، وتحقيق استقلاليتهم الذاتية نسبياً.

تشكل الأسرة والمدرسة والأصدقاء دوراً محوريا في تشكيل سلوك المراهقين وقيمهم، لكن يبرز العالم الافتراضي كعامل جديد ومهم يسهم في التنشئة الاجتماعية التي أخذت طابعاً رقمياً، في ظل العولمة وانتشار تكنولوجيا المعلومات والاتصالات(TIC)، هذه الأخيرة تشكلجزءًا أساسيًا من حياتهم اليومية.

تُعد الهواتف الذكية حاليًا الأجهزة المستخدمة من قِبَل معظم المراهقين، حيث توفر ميزات ووظائف لعدد من الوسائط المختلفة. في الوقت الحاضر، غيّرت وسائل التواصل الاجتماعي الطريقة التي يتعلم بها المراهقون التواصل الاجتماعي وتشكل هويتهم، كما أنها توفر من أي موقع أو برنامج، للمراهقين إمكانية الدردشة، ومشاركة أفكارهم ومواقفهم، ومقاطع الفيديو، والصور، والتفاعل الاجتماعي، وتلقي المعلومات ونشرها بشكل تفاعلي[2] ، إن هذه الوسائل تتيح للمراهقين الفرصة لعرض "نسخة نموذجية" أو مختلفة من ذواتهم مقارنة بكيف يشعرون أو يرون أنفسهم، وهذا التباين بين الصورة الذاتية والصورة المعروضة يعكس دور التكنولوجيا في تمكين المراهقين من التحكم في كيفية إدراك الآخرين لهم.

يشكل المراهقون المقيمون في مراكز الرعاية الاجتماعية كما هو الحال عليه في دار الطالب بتنغير شريحة اجتماعية تعيش هشاشة بنيوية ناتجة عن ابتعادهم عن أسرهم وافتقادهم لأقرب المرجعيات البالغة التي تلعب دوراً أساسيا في التنشئة الاجتماعية. يتم النظر إلى بئتهم السكنية كمجال مفروض عليهم الاقامة فيه، مما يجعل الحاجة إلى وجود مرجعيات بالغة قادرة على مواكبة مراحل نموهم النفسي والاجتماعي. في غياب هذا الدعم المباشر، تصبح وسائل التواصل الاجتماعي البديل المركزي في عملية التنشئة الاجتماعية، عبر تقديمها مصادر متنوعة للمعلومات ونماذج يعتمد عليها المراهقون لبناء تصوراتهم الذاتية والاجتماعية في ظل سياقاتهم الخاصة.

تؤثر وسائل التواصل الاجتماعي على التفاعل الاجتماعي للمراهقين، حيث يستخدمونها بشكل متكرر للتواصل، الترفيه والتعلم[3] ، حيث تمكنهم من اكتساب مجموعة من المهارات والتجارب الحياتية والمعارف التي تؤثر على تشكيل صورة عن ذواتهم، حيث أنهم يتأثرون بما يعرضونه للآخرين وكيفية استجابة الآخرين لهم، مما يعزز بناء هويتهم الاجتماعية. إن الفهم العميق لدور وسائل التواصل الاجتماعي في حياة المراهقين في تقديرنا يُمكّن المشرفين على مراكز الرعاية من تقديم دعم فعّال يساعد هؤلاء المراهقين في بناء هويتهم واستقلاليتهم بطريقة صحية ومُدركة.

تبعا لذلك، سنحاول من خلال هذه الورقة المساهمة في فهم سيرورات التواصل والتفاعل التي تتشكل من خلال وسائل التواصل الاجتماعي التي تجمع بين التعلم والتنشئة الاجتماعية وتأثيرها في بناء هوية المراهقين الذين يعيشون في مؤسسة الرعاية الاجتماعية دار الطالب بتنغير.

أولا: وسائل التواصل الاجتماعي في مرحلة المراهقة وبناء الهوية: مقاربة مفاهمية

لدراسة التأثير المحتمل لوسائل التواصل الاجتماعي على بناء الهوية الشخصية للمراهقين المقيمين في مؤسسات الرعاية الاجتماعية، من الضروري محاولة فهم المراهقة كمرحلة اجتماعية انتقالية وابراز خصائصها، وكذلك فهم عملية تشكيل الهوية الشخصية وعلاقتها بالسياق الاجتماعي، ومن ثم تحليل الكيفية التي يمكن أن تتدخل بها وسائل التواصل الاجتماعي كعنصر حاسم في بناء هوية المراهقين.

المراهقة:

المراهقة هي كلمة مشتقة من اللاتينية "adolescere" والتي تعني "النمو نحو النضج"، أي أنها تمثل المرحلة بين الطفولة والبلوغ [4]. شهدت هذه المرحلة تغيرات جوهرية على المستويات الجسدية، النفسية، والاجتماعية، حيث يبدأ المراهق في بناء هويته وتطوير شخصيته تدريجيًا، كعملية انتقالية حتى يصبح شخصاً بالغاً.

هذا ويمكن اعتبارها تجربة ضرورية وفريدة في السيرة الذاتية للفاعلين الاجتماعيين؛ فهي تفرض نفسها على الجميع كشرط للانتقال من الطفولة إلى مرحلة البلوغ – بعبارة سوسيولوجية: الانتقال من "موضوع مفعول به" إلى " فاعل" اجتماعي. وبينما ليس كل المراهقين يُعتبرون "شبابًا" (وقد لا يكون بعضهم كذلك بالمعنى السوسيولوجي)، فإن جميع "الشباب" مروا أو يمرون أو سيمرون بنفس التجربة، التي تكون أكثر أو أقل حدة، والتي تمثل بوابة الفرد إلى "الحياة" أو بالأحرى إلى "المجتمع"، ليصبح الفرد بشكل لا مفر منه وبدون انفصال جزءًا فاعلًا ومؤثرًا فيه[5] .

تَّوصف المراهقة بأنها فترة قد يتغير فيها مفهوم الذات بشكل كبير. وفقًالـ"ذا لو، دي. إم. فان إيده، إي لو"Louw, van Ede وLouw ، فإن بداية المراهقة تتضمن حتمًا

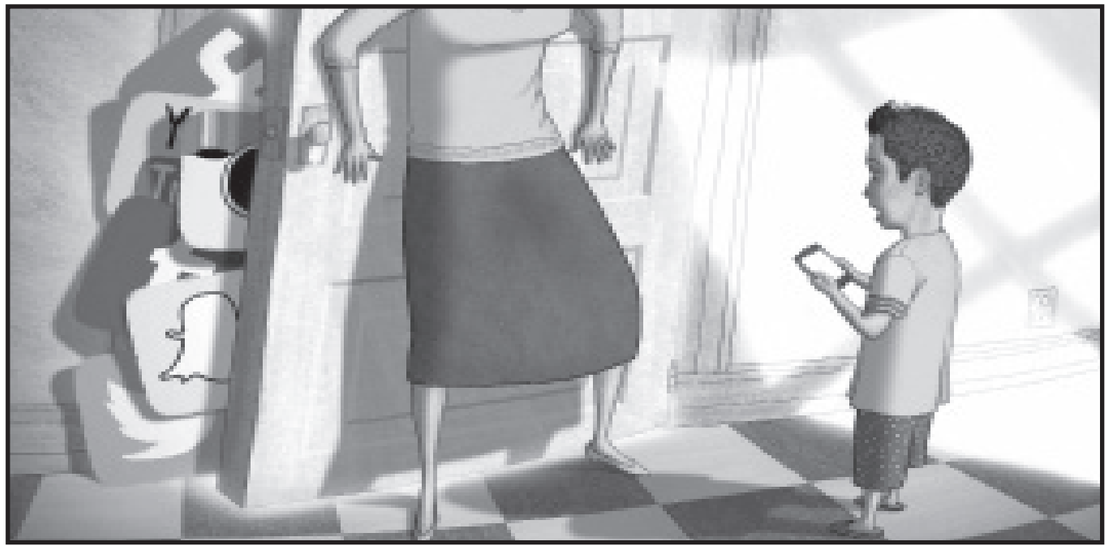

الهوامش

1 - Crosnoe,Robert, and Monica Johnson."Research on Adolescence in the Twenty-First Century." Annual Review of Sociology,vol. 37, 2011, P 3.

2 - Rose, Nurul Naimah, et al. “Effect of Digital Technology on Adolescents.” Advances in human and social aspects of technology book series, IGI Global,2021, P 4.

3 -Sallimah, Hikmatun. "THE INFLUENCE OF SOCIAL MEDIA ON ADOLESCENT SOCIAL INTERACTIONS", 10.31219/osf.io/56yc2. 2023, P 1.

4 - Huerre, Patrice. “L’histoire de l’adolescence: Rôles et fonctions d’un artifice.” Journal Français de Psychiatrie, vol. 14, no. 3, Jan. 2001, p 6.

5 -Cuin,Charles-Henry. “Esquisse D’une Théorie Sociologique De L’adolescence.” Revue Européenne Des Sciences Sociales, no. 2, Dec. 2011, p 72.

فقدان المراهق لمفهوم الذات المستقر الذي كان يمتلكه خلال الطفولة. وفي هذه المرحلة، يواجه المراهقون صعوبة في إيجاد هويتهم الذاتية، وغالبًا ما تكون هذه الصعوبة مصحوبة بسلوك متقلب. يشعرون فيه بدرجة أكبر أو أقل بحالة من الارتباك، مما قد يؤدي إلى زيادة التوتر والوعي بالذات [6]. يلاحظ ديتريش Dietrich وبيزويدنهاوت Bezuidenhoutfd أنه من خلال هذه التغيرات ينشأ نمط من التفكير والإرادة يحدد مفهوم الـذات. وفي هذه المرحلة من التطور، يصبح السعي نحو الاستقلالية والهوية أمرًا بارزًا. خلال هذه السنوات، تصبح صراعـات الاعـتـماد والاستقلالية مركزية [7]. وعلى الرغم من أن المراهقين يتوقون إلى الاستقلال عن والديهم، إلا أنهم في الوقت نفسه يتوقون إلى الأمان الذي يوفره الآباء [8].

وفقًا لمنظمة الصحة العالمية، تُعرَّف المراهقة بأنها الفترة الممتدة بين سن العاشرة والتاسعة عشر عاما،وخلال هذه الفترة، يمكن ملاحظة اختلافات بين أعمار الشباب الذين يبدأون وينهون مرحلة المراهقة [9]، حيث تُعد عملية غير متزامنة في مختلف الجوانب (النفسية، الفكرية، الاجتماعية والعاطفية). كما أنها تختلف حسب البيئة، الثقافة، المستوى الاجتماعي الاقتصادي والتعليمي.

بحسب مجموعة من الباحثين، يمكن تصنيف المراهقة إلى ثلاث مراحل بناءً على الفئات العمرية، وهي كالتالي:

المراهقة المبكرة: وتمتد من سن 11 سنوات إلى 14 سنة [10].

المراهقة الوسطى: وتمتد من سن 16-18 سنة إلى 17-16 سنة أي حتى فترة التعليم الثانوي [11].

المراهقة المتأخرة: وتمتد من سن 18-21 سنة فصاعدًا[12] .

بناء الهوية:

بداية يشير ابن منظور إلى الهوية التي تعني البئر البعيدة المهواة[13] ؛ هذا المعنى يحمل دلالـة على الغموض أو العمق، وقد يكون استخدامه للإشارة إلى "الهوية" بمعناها الفلسفي (حقيقة الشيء) استعارياً، باعتبار الهوية شيئاً عميقاً وصعب الإحاطة به، مثل البئر العميقة. أما حسب المعجم العربي الكلاسيكي والمعاصر فكلمة "هوية" في المعتقد اللغوي، تشير إلى "جماعة العوامل التي تثبت أن شخصًا مسمى بعينه" [14]. وقد تعني أيضًا في الفلسفة "ما يجعل الشخص أن يكون هو نفسه ولا سواه" [15]، وهو ما يعني أن الهوية هي مجموعة من الخصائص أو العوامل التي تحدد فردية الشخص وتجعله مميزًا عن غيره.

في حين يبرز معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية أن "الهوية عبارة عن عملية تميُز الفرد لنفسه عن غيره، أي تحديد حالته الشخصية Personal Identity ومن السمات التي تميز الأفراد عن بعضهم الاسم والجنسية والسن والحالة العائلية والمهنية الخ" [16].

تعرف الهوية الشخصية بكونها نتاجا لسيرورة تتفاعل فيها المحددات البيولوجية والنفسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، ويضيف أليكس موكيبلي؛ المحدد التكنولوجي كفاعل أساسي في البناء الهوياتي [17]، أما الهوية الاجتماعية هي قبل كل شيء رديف لفئة انتماء، في معظم الأحيان، تكون هذه الفئة هي الفئة الاجتماعية المهنية، وهي أداة تحليل لافتة اشتقها المعهد الوطني للإحصاء والدراسات INSEE في الخمسينيات، وتسمح بمعرفة تطور البنية الاجتماعية والعلاقات الإحصائية بين هذا الانتماء الذي يعتبر ذا أهمية كبيرة، وبين مجموعة واسعة جـداً من السلوكيات والمواقف والآراء في المجال الأسري والمهني والسياسي [18] .

والهوية بناء على هذا التصور هي نتاج لما تفرزه الانتماءات المختلفة للفرد في ظل مجموعات اجتماعية، والواقع أن الفرد يمكنه الانتماء إلى العديد من الفئات الاجتماعية، فقد ينتمي إلى فئات متعددة،حيث قد يكون الانتماء إلى الطبقات، الأصول الثقافية فئات سوسيو-مهنية أو تنشئته الاجتماعية التي نشأ وتكون عليها [19]. أما بخصوص الهوية الافتراضية فهي تمتاز بكونها غير خاضعة لتحكم أي طرف بل هي عالمية وعابرة للحدود الجغرافية مما يتيح لها إمكانية التشكل بشكل مستمر ودائم، تبنى الهوية الافتراضية وتصطنع في اللامكان، اللازمان واللاواقع [20]، مما يعني أنها غير خاضعة للشروط الاجتماعية المتعارف عليها بين الأفراد؛ أي أنها غير مقيدة بقيود اجتماعية.

بشكل عـام، إن الهوية بناء ذاتي في تقديرنا تتطور على مدار الحياة من خلال دينامية التفاعلات الاجتماعية مع الأفراد الأخـريـن، وهـي معطى غير ثابت، بل هي متغير دينامـي بحسـب دينامية تفاعلات الفرد مع المجتمـع. تبعا لذلك عندما يتمكن المراهق من تطوير هويته ويجيب على سؤال "من أنا؟"، ويكون راضيًا عن إجابته، يصبح شخصًا يعترف بنقاط ضعفه وقوته ويشعر بتقدير الذات، مما يؤدي إلى بناء شخصية قوية وثقة أكبر بما هو عليه وما يرغب في أن يكونه، وهو ما يدفعه لنهج سلوكيات وتصرفات الأقران الذين يرى فيهم قدوة له.

وسائل التواصل الاجتماعي في مرحلة المراهقة:

يقدم كل من "أندرياس كابلانومايكل هاينلين" Andreas Kaplan & Michael Haenlein تصنيفاً لوسائل التواصل الاجتماعي يجمع التطبيقات المدرجة حاليًا تحت المصطلح العام إلى فئات أكثر تحديدًا بناءً على خصائصها: المشاريع التعاونية(Collaborative Projects)، المدونات، مجتمعات المحتوى كاليوتيوب مثلا، مواقع التواصل الاجتماعي، عوالم الألعاب الافتراضية، والعوالم الاجتماعية الافتراضية[21] ، هذه الأخيرة تتيح لمستخدميها خلق شخصيات افتراضية والتفاعل مع الآخرين في بيئات ثلاثية الأبعاد.

مواقع التواصل الاجتماعي هي مساحات عبر الإنترنت تتيح للأفراد تقديم أنفسهم، وبناء شبكاتهم الاجتماعية، وإنـشـاء أو الـحـفـاظ على علاقات مع الآخـريـن. يمكن أن تـكـون هـــذه المـواقـع موجهة نحو سياقات متعلقة

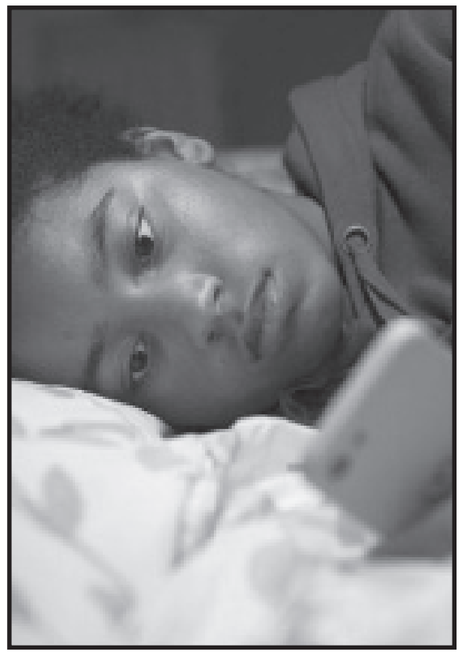

الهوامش

6 -Louw, D. A, et al. Human Development (2nd ed.). Johannesburg: Kagiso Tertiary.1998. p 425.

7 -Bezuidenhout, Christiaan, and Sandra Jeroma Joubert. "Child and Youth Misbehaviour in South Africa: A Holistic View", 1st ed, Van Schaik, 2003, P 63.

8 -Corey, Gerald, and Marianne Corey. "Groups: Process and Practice" (6th Edition), Brooks/Cole Publishing Company, 2002, P 307.

9 - World Health Organization. The second decade: Improving adolescent health and development. Geneva: WHO/FRH/ADH/98.18 Rev 1, 2001, P 3.

10 -مختار، محي الدين.محاضرات في علم النفس الاجتماعي. ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982، ص 164.

11 - زهران، حامد عبد السلام.علم نفس النمو (الطفولة والمراهقة). 1995، ص 297.

12 - معوض، خليل ميخائيل.سيكولوجية نمو الطفولة والمراهقة. دار الفكر العربي، مصر، 1994، ص 331.

13 -ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم.لسان العرب.الجزء 15، دار صادر، ص 374.

14 -عمر، أحمد مختار.معجم اللغة العربية المعاصرة. عالم الكتب، الطبعة الأولى، 2008، ص 379.

15 -رضا، يوسف محمد.معجم العربية الكلاسيكية والمعاصرة. مكتبة لبنان ناشرون، الطبعة الأولى 2006، ص 1693.

16 - بدوي، أحمد زكي.معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية. مكتبة لبنان ساحة رياض الصلح بيروت، 1982، ص 206.

17 - بوخوش، عبد الغني، وصلاح الدين لعريني. "تحولات الهوية الشخصية بالمجتمع الشبكي الرقمي." مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية لأكاديمية المملكة المغربية، العدد 1، 2022، ص 3.

18 -دوبار، كلود. أزمة الهويات: تفسير تحول. ترجمة رندة بعث، الطبعة الأولى، المكتبة الشرقية، بيروت، ص 24.

19 - بغامي، كتيبة، ومريم شريط. "سوسيولوجيا الهوية: تطور في الفكر والمفهوم." مجلة دراسات في سيكولوجية الانحراف، العدد 01، 2022، ص 568.

20 - بوبكر، هشام، وبولكلوك، دليلة. "الهوية الافتراضية: واقع وتحديات." مجلة البحوث والدراسات الإنسانية، المجلد 15، العدد 1، 2021.

21 -Kaplan, Andreas, and Michael Haenlein. "Users of the World, Unite! The Challenges and Opportunities of Social Media." Business Horizons, vol. 53, no. 1, Oct. 2009, p. 60.

بالعمل (مثل LinkedIn.com) أو بدء علاقات رومانسية، أو ربط الأفراد ذوي الاهتمامات المشتركة مثل الموسيقى أو السياسة مثل MySpace.com). [22]

يعتبر المراهقون فئة تستخدم مواقع التواصل الاجتماعي، حيث تمنح لهم هذه الأخيرة فرصة عرض ذواتهم، إبراز إبداعاتهم، تطوير مهاراتهم، الحصول على مساحات جديدة للتواصل والاتصال والتعاطف مع الآخرين، وفي ذات الوقت نشر ما يرغب أن يراه الآخرون والحصول على ردود فعل بسرعة تجاه منشوراتهم، من أجل تعديلها وملاءمتها، وقياس مكانتهم الاجتماعية من خلال عدد الإعجابات التي يتلقونها على منشوراتهم أو المتابعين لهم.

تم تحديد آليات نفسية في التفاعل مع وسائل التواصل الاجتماعي، حيث تؤثر بشكل كبير على الطريقة التي يدرك بها الفاعلون الاجتماعيون أنفسهم وعلى علاقاتهم الاجتماعية، ويمكن إيجازها فيما يلي:

- **المقارنة الاجتماعية:** مقارنة الذات بالآخرين إما بشكل تصاعدي (مع من يُعتقد أنهم أفضل) أو تنازلي (مع من يُعتقد أنهم أقل مكانة أو حظاً).
- **الإفصاح عن الذات:** مشاركة المعلومات الشخصية مع الآخرين.
- **إدارة الانطباع:** التصرف لإبراز الجوانب الإيجابية للنفس وتقليل السمات التي يُنظر إليها على أنها غير جذابة [23]. وكل ذلك يهدف إلى تقديم صورة إيجابية عن الذات للآخرين من خلال اختيار ما يتم مشاركته عبر الإنترنت بعناية.

أسئلة الدراسة البحثية:

تماشيًا مع المقال الذي بين أيدينا، سنحاول الإجابة على الإشكالية التالية: كيف تساهم شبكات التواصل الاجتماعي في تشكيل الهوية الشخصية والتعلم الذاتي لدى المراهقين المقيمين بدار الطالب بتنغير؟.

إن الإجابة على هذا السؤال المركزي يدفعنا إلى طرح التساؤلات التالية:

- كيف يصف المراهقون المقيمون بدار الطالب استخدامهم لتقنيات وسائل التواصل الاجتماعي المختلفة؟
- كيف تؤثر التعلمات المكتسبة من خلال شبكات التواصل الاجتماعي على الصورة الذاتية التي يدركها المراهقون عن أنفسهم؟
- كيف يستخدم المراهقون الموارد التكنولوجية التي توفرها شبكات التواصل الاجتماعي للتعبير عن أنفسهم أمام الآخرين؟
- ما المزايا والمخاطر التي ينطوي عليها استخدام وسائل التواصل الاجتماعي من منظورالمراهقين في دار الطالب وتأثيرها في تعلمهم لتحقيق الاستقلالية.

منهجية جمع المعطيات:

اعتمدنا في دراستنا الميدانية على المنهج الكيفي وبمنظور سيكو-سوسيولوجي وصفي، بحيث تم العمل الميداني من خلال المقابلات شبه المنظمة والمجموعة البؤرية. بحيثركزنا أساسا على محاولة دراسة وفهم السلوكيات والأفعال الشائعة التي يقوم بها المراهقون المستجوبين على شبكات التواصل الاجتماعي. يتم تحليل هذه السلوكيات بشكل معمق لاستكشاف الطريقة التي يعبّرون بها عن أنفسهم ويبنون هوياتهم الشخصية. الجوانب التي سيتم دراستها تشمل: دوافع استخدام شبكات التواصل الاجتماعي مع أصدقائهم، القضايا التي تثير اهتماماتهم والموضوعات التي يناقشونها مع أقرانهم عبر المنصات الرقمية، طريقة تقديم ذواتهم، طبيعة اهتماماتهم مثل أنواع المنشورات التي يشاركونها أو يتابعونها (صور، فيديوهات، تعليقات)، طريقة تقديم ذاتهم للأخرين وكيفية مقارنة أنفسهم بهم، وما أوجه الاختلاف المدركة بين التواصل عبر الأنترنيت والتواصل بشكل مباشر في الواقع الخ.

وعليه ولأغراض محددة لدراستنا، أجرينا الدراسة على مجموعة من المراهقين من المتعلمين المقيمين بمؤسسة الرعاية الاجتماعية-دار الطالب بتنغير الذين تتراوح أعمارهم بين 13 و18 سنة، والذين يستخدمون شبكات التواصل الاجتماعي بشكل دائم، ولديهم ولوجية للأنترنت، بحيث تم اختيارهم بشكل مقصود.

ثانيا: استخدام وتقييم المراهقين لمنصات التواصل الاجتماعي:

سنتناول في هذا المحور بروز ثقافة استعمال منصات التواصل الاجتماعي لدى المراهقين المقيمين في مراكز الرعاية الاجتماعية-دار الطالب بتنغير، من خلال تحليل 12 مقابلة قاربنا فيها تفاعلاتهم مع الشبكات الاجتماعية الافتراضية، إذ أننا سنقوم بعرض تقييماتهم واستخداماتهم لها.

أولاً من المفيد الإشارة أنه عندما نتحدث عن الاستخدام، فإننا نشير إلى ما ذكره المستجوبون عن انتمائهم إلى منصة افتراضية معينة. فيما يلي المنصات المستخدمة من قبل المشاركين أدناه:

منصات التواصل الاجتماعي	المشاركون
واتساب، فيسبوك، إنستغرام ، تيك توك	5
واتساب، فيسبوك، سناب شات	8
واتساب، إنستغرام، فيسبوك	10
واتساب، فيسبوك	12

في الجدول رقم 1، تعتبر منصة فيسبوك هي الأكثر استخدامًا (12/12)، ونفس الأمر ينطبق على الواتساب (12/12)، يليها الإنستغرام (10/12)، وسناب شات (8/12)، وتيك توك (5/12). من جهة أخرى، بالنسبة لعدد المنصات الافتراضية لكل مستخدم، فإن 5 من بين 12 مشاركين هو مستخدم لجميع المنصات الافتراضية المحددة، بينما يستخدم الباقون منصتين إلى ثلاث منصات رقمية فقط.

من خلال المقابلات التي أجرينا معهم اتضح لنا أن تطبيق الواتساب يستخدم بشكل كبير، من خلاله يتواصلون بشكل متكرر مع الأشخاص القريبين منهم والذين لديهم أهمية في حياتهم، خصوصا أسرهم وأصدقائهم، وفي هذا الإطار تقول إحدى المستجوبات:

"أتواصل على واتساب بشكل مكثف مع عائلتي، خاصةً مع أمي. أرسل لها فيديوهات ذات طابع ديني، ونجري مكالمات عبر الفيديو بشكل منتظم، حتى لو كانت بعيدة عني".(سميرة، 15 سنة)

أما بخصوص تطبيق الانستغرام فيتيح لهم التواصل والدردشة مع زملاء دراستهم وأصدقائهم، والتعرف على أشخاص جدد، وهو ما صرح به أحد المستجوبين:

"أحيانًا أتحدث مع أشخاص غرباء على إنستغرام، نناقش مواضيع مختلفة أو نشارك اهتماماتنا. الأمر يبدو ممتعًا لأنك تلتقي مع أشخاص جدد وتتعلم أشياء مختلفة". (عمر، 17 سنة)

أما تيك توك، فيستخدمونه لمشاهدة الفيديوهات وكوسيلة للترفيه ومتابعة المحتوي المثير للاهتمام. ذكر أحد المشاركين في المقابلات أن لديه حسابًا مخصصًا على هذه المنصة، حيث يستطيع قضاء ساعات فيها وهو يستمتع بالمحتوى المتنوع والمؤثر بشكل سريع.

وبالنسبة لفيسبوك، يستخدمونه كلهم، وتتنوع دوافع استخدامه؛ فبعضهم يعبرونعن مشاعرهم وأفكارهم من خلال العبارات التي ينشرونهاعبره، وآخرون يستخدمونه مصدراً للمعلومات حول

الهوامش

22 -Ellison, Nicole, and Charles Steinfield. "Spatially Bounded Online Social Networks and Social Capital: The Role of Facebook." Annual Conference of the International Communication Association, 2006, p. 3.

23 - Jeyanthi, M. "Social Media and Identity Formation – The Influence of Self-Presentation and Social Comparison." Mind and Society, 2022, p. 141.

المواضيع التي تهمهم. بشكل عام، يعتبر المراهقون وسائل التواصل الاجتماعي بأنها وسيلة للارتباط بالعالم وجزء من هويتهم وعلاقاتهم العاطفية، رغم أن هذا التواصل ليس دائماً يكون ثابتا.

صرح لنا المشرف على دار الطالب، أن نزع الهاتف من بعض التلاميذ يؤدي بهم إلى إشعارهم بالملل أو الفراغ، وعدم الاتصال في وسائل الاجتماعي يجعلهم يشعرون بالضيق، وفقدان حساباتهم هو بمثابة فقدان الولوج إلى جزء من أنفسهم، وهو ما يبرز الروابط العاطفية العميقة التي تنشأ بينهم وبين مواقع التواصل الاجتماعي. بالنسبة لهؤلاء المراهقين، وبسبب ابتعادهم عن عائلاتهم، يُعتبر الهاتف سبيلاً لتعبئة الفراغ الحاصل لديهم، وبمثابة المكان الذي يحتفظون فيه بجميع ذكرياتهم بما في ذلك: الصور، الدردشة مع أصدقائهم.

أكد المراهقون بدار الطالب الذين قمنا بمقابلتهم أهمية بقائهم على اتصال عبر الشبكات الاجتماعية الافتراضية التي تتسم بالفورية والسرعة وسهولة الاستخدام، كما أشاروا أنهم لا يقتصرون على شكل واحد من التواصل، بل أشكال متنوعة تساعدهم على التعبير عن أنفسهم بشكل أكثر مرونةً، على غرار نشرهم للمنشورات، القصص، الدردشة بالرسائل الصوتية والنصية، مشاركة مقاطع الفيديو، إجراء مكالمات الفيديو كعنصر بصري يشعرهم أنهم أقرب إلى عائلاتهم وأصدقائهم، يمكن ملاحظة ذلك في عبارة أحد المرهقين التالية: "عمي الذي يقطن بالخارج وأبناؤه، على سبيل المثال، لا أراهم، إذا لم تكن هناك تطبيقات مثل إنستغرام وواتساب، لما كنت سأتحدث معهم". فضلاً عن هذا أصبح الهاتف جزءًا أساسيًا في الحياة المدرسية للمراهقين، حيث يتيح لهم التعاون والتواصل مع زملاء الدراسة بسهولة، مما يعزز قيامهم بواجباتهم المدرسية.

ثالثا: تأثير وسائل التواصل الاجتماعي على الصورة المدركة للمراهقين والمنقولة للآخرين:

يقضي المراهقون على العموم ساعات أطول أمام هواتفهم لمجرد تلبية احتياجاتهم لتحقيق التقدير الذاتي من خلال تصفح الانترنت [24]، فالرضا الذاتي للمراهقين يتحقق عن طريق الانخراط في شبكة واسعة من العلاقات والتفاعلات الافتراضية داخل منصات التواصل الاجتماعي، والتي تشكل مجالات محفزة لهم لعرض حياتهم الشخصية، مشاعرهم، وأحاسيسهم.

تبعا لذلك، اتضح لنا أن المراهقين الذين قابلنا يدمجون هويتهم الرقمية مع هويتهم الشخصية، فضلاً على هذا فهم يستخدمون هذه الشبكات ليس فقط للتواصل، بل لتحديد مكانتهم ضمن مجموعة أقرانهم؛ مما يعني أن اختيارهم لاستخدام شبكة اجتماعية معينة غالبًا ما يكون مدفوعًا برغبتهم في التكيف مع العادات والاهتمامات المشتركة للمجموعة الاجتماعية التي ينتمون إليها والتي تعكس هويتهم أو تساعدهم في تعزيزها، وبناء على ذلك نجد أنهم في سعيهم لإثبات أنفسهم وتأكيد مكانتهم ضمن دائرة أصدقائهم، يغيرون سلوكهم واختياراتهم بناءً على ما يفعله الآخرون من اجل الحصول على القبول الاجتماعي، وكنموذج نورد هنا شهادة إحدىالمستجوبات:

"كل أصدقائي بدأوا في استخدام إنستغرام، فقررت أن أستخدمه أيضًا، لأنني أردت أن أكون جزءًا من المحادثات والمشاركات التي كانت تجري هناك." (سهيل، 16 سنة)

أضحت مواقع التواصل الاجتماعي فضاءات تلعب دورا بارزا في تقديم المراهقين لذواتهم للآخرين، من خلال العديد من المنصات التي وإن اختلفت من ناحية طريقة الاشتغال، إلا أنها تتشارك في طابعها التفاعلي الافتراضي. فقد تبين لنا من خلال تقنية المجموعة البؤرية أن حالات كثيرة من المراهقين يستخدمون مواقع التواصل الاجتماعي لتأكيد حضورهم للآخرين، وهذا الحضور يبرز من خلال نوعية المحتوى الذي يشاركه المراهقون من جهة ومن ناحية أخرى طبيعة المحتوى الذي يتم مشاهدته والتفاعل معه. فمن خلال النظر في طبيعة المنشورات التي يشاركونها والتعليقات التي يقومون بها يمكن أن نكون حكما حول طبيعة شخصيتهم، والتي هي في الأساس محاولة للحصول على ردود فعل رقمية (الآراء والتفاعلات) من مجموعة أصدقائهم، والتي هي بمثابة تقييم مباشر لهم وللهوية التي يبنونها من خلال هذه الشبكات، وفي هذا الإطار يقول أحد المستجوبين:

"أنا أضع صورًا على الفيسبوك لأنني أعرف أن أصدقائي سيرونها، وأنتظر منهم أن يعجبوا بها أو يعلقوا عليها. إذا لم يحصل ذلك، أشعر أن ذات الصور ليست مهمة أو أنني لم أنجح في جذب انتباههم." (صفوان، 15 سنة)

في نفس السياق، فمواقع التواصل الاجتماعي فضاءات لها أهمية كبيرة عند عينة البحث في تقديم ذواتهم للآخرين بالطريقة التي يرونها مناسبة، بغض النظر عن القواعد والضوابط الاجتماعية التقليدية التي يضعها المجتمع، وهو ما يتيح مجالا من الحرية والاستقلالية النسبية للمراهق لتقديم نفسه على النحو الذي يراه مناسبا في فضاء مفتوح غير مقيد وخاضع لأي تحديات وإكراهات، وبذلك تحضر ذات المراهق في مواقع التواصل الاجتماعي بصورة مجردة من كل القيم والقواعد التي يكتسبها عن طريق التنشئة الاجتماعية، ليصبح بذلك ذاتا مستقلة عن التوقعات الاجتماعية التي تفرض عليه في الحياة اليومية.

"في الحياة الواقعية، لا أستطيع أن أكون كما أريد دائمًا، ولكن على إنستغرام أو تيك توك، يمكنني أن أكون كما أحب وأتفاعل بجراءة مع الأشخاص. لا أحد يتدخل أو يحكم عليّ." (حكيمة، 18 سنة)

تأسيساً على ذلك تتشكل هوية جديدة للمراهقين في الفضاء الرقمي، حيث تُعاد صياغة "الذات" بناءً على معايير فردية بدلاً من الجماعية. يُلاحظ أنهم يتجاوزون في بعض الأحيان المعايير الاجتماعية التقليدية، ويميلون إلى نشر محتوى يُعبّر عن شخصيتهم المستقلة عن القيم العائلية أو الثقافية التي يكتسبونها عبر التنشئة الاجتماعية، ما يعكس حالة من التمرد الاجتماعي الموجه نحو إنشاء هويات خاصة.

أفرزت المعطيات الميدانية عبر تقنية المقابلة البؤرية معطى مهما، وهو أن الحضور الاجتماعي للمراهقين لم يعد كما كان في السابق مقترنا بالانخراط مع جماعة الأقران في الوسط المدرسي أو في دار الطالب، بل بات يتشكل من خلال التواجد بصورة شبه منتظمة على منصات التواصل الاجتماعي، وهذا التواجد يظهر من خلال التفاعلات اليومية التي يقوم بها المراهق رفقة زملائه على شبكات التواصل الاجتماعي[25] .

كما تجدر الإشارة إلى أن عدد المتابعين يشكل نقطة أساسية في تأكيد الحضور الافتراضي بالنسبة للمراهق؛ فعدد المتابعين أو الأصدقاء الموجودين على التيكتوك أو الانستغرام على سبيل المثال، ليس مجرد عدد ورقم احصائي، بل يحيل على طريقة جديدة يعبر من خلالها المراهق على وجوده الافتراضي كذات ينبغي أن تنال الاعتراف من قبل الآخرين رقمياً، وهذا الاعتراف مشروط لا محال بعدد المتابعين، طبيعة الأحداث والمنشورات التي يتفاعل معها المراهق، ثم لا ننسى عدد التعليقات التي يحصل عليها في كل منشور جديد مع التركيز على طبيعة التفاعل. إذاً فكل منشور أو تعليق يُعتبر بمثابة "إعلان أو فرصة جديدة" للتعبير عن ذات المراهق التي يحتاج إلى تأكيدها من خلال ردود فعل الآخرين سواءً أكانوا من معارفه أم لا، باعتبارها اعترافا ضمنيا بوجوده الافتراضي على شبكات التواصل الاجتماعي، ومن ثمة سينعكس على شعوره بالرضا الذاتي.

لقد باتت خاصية النشر من بين العناصر المهمة التي تحيل على الوجود الافتراضي للمراهق على شبكات التواصل الاجتماعي مما يعني أننا أمام بناء هوياتي جديد لمجمل التفاعلات الاجتماعية التي تتم داخل الفضاء الافتراضي ويمكن تجسيده في عبارة" أنا أنشر إذن أنا موجود"، فالنشر على مواقع التواصل الاجتماعي يعني الحضور واكتساب الشرعية الاجتماعية في الفضاء الرقمي وغياب النشر يعني العكس.

يُعدُّ الإعجاب أو حتى التعليق، على الرغم من كونه بسيطًا، وسيلة اجتماعية تُستخدم لتأكيد الهوية وتقييمها [26]. علاوة على ذلك من خلال هذه التفاعلات الرقمية، يُمكن للمراهق أن يتحكم في كيفية تقديم نفسه في الفضاء الرقمي. فهو يختار بعناية ما ينشره (صور الملفات الشخصية، الصور، الفيديوهات، الأفكار والآراء حول

الهوامش

22 -Ellison, Nicole, and Charles Steinfield. "Spatially Bounded Online Social Networks and Social Capital: The Role of Facebook." Annual Conference of the International Communication Association, 2006, p. 3.

23 - Jeyanthi, M. "Social Media and Identity Formation – The Influence of Self-Presentation and Social Comparison." Mind and Society, 2022, p. 141.

24- Rose, Nurul Naimal, et al. "Effect of Digital Technology on Adolescents." Chapter 1, 2022, P 12.

25 - توفر لهم هذه الشبكات إمكانيات تفاعلية تتجاوز الحدود المكانية والزمانية للأنشطة التقليدية، مما يجعلها أكثر تأثيراً في تكوين العلاقات الاجتماعية الحديثة في العالم الافتراضي، وهذا يعكس تحولًا في معايير القبول الاجتماعي، حيث يُصبح الحضور على منصات التواصل الاجتماعي هو معيار الانتماء والوجود الاجتماعي.

26 - في هذا السياق يتعرضون لما يمكن تسميته بـ "الضغط الاجتماعي الرقمي"، حيث تكون استجابات الآخرين (كالإعجابات والتعليقات) حاسمة في تحديد مكانتهم داخل المجموعة الاجتماعية الافتراضية.

مجموعة من القضايا) في ملفه الشخصي ليراه الآخرون خارج دوائرهم الاجتماعية المباشرة [27]، ويتفاعل مع المحتوى بناءً على ما قد يحصل على التفاعل المطلوب. هذه القدرة على التحكم في عرض الذات الرقمية بشكل انتقائي تُتيح للمراهق إعادة تشكيل هويته الاجتماعية بما يتناسب مع التوقعات والقبول الاجتماعي في البيئة الرقمية، وتجدر الإشارة إلى أن هذه الممارسة هي شكل من أشكال "الفعل الاجتماعي بوعي أو بغير وعي"، حيث يسعى المراهق إلى بناء صورة تُقبل وتترك انطباعا ايجابيا عند الآخرين وتُعزز من خلال التفاعل الاجتماعي الرقمي.

"الصور التي أنشرها على الواتساب أو الانستغرام يجب أن تكون مثيرة للاهتمام لكي أحصل على إعجابات، لذلك أختار بعناية ماذا أنشر، وأحاول دائماً أن أنشر الصورة الأفضل." (كريمة، 15 سنة)

في خضم شبكات التواصل الاجتماعي نتحدث عن بناء هوية افتراضية جديدة مرنة قائمة على الحضور والتفاعل في عالم افتراضي، يعطي الأولوية لذات الفرد من خلال ابرازها بأشكال متعددة سواء باستخدام هوية حقيقية أو مستعارة. فالفضاءات الافتراضية تسهم في إعادة تشكيل هوية المراهقين بناء على جملة من التفاعلات التي تنتج باستمرار في الفضاء الافتراضي والمبنية على معايير مغايرة لتلك التي اعتدنا عليها في العالم الواقعي، ومن هذا المنطلق تتحدد هوية المراهقين بدار الطالب انطلاقا من حضورهم المستمر على منصات التواصل الاجتماعي، وتقديم ذواتهم من خلال عرض الصفات التي يجدونها أكثر قبولاً، بينما يتجنبون عرض جوانب أخرى قد تكون غير مرغوب فيها.

إضافة لذلك وجدنا مجموعة من المراهقين يشاركون مجموعة من لحظات الحياة اليومية مع أصدقائهم في مواقع التواصل الاجتماعي، يتم ذلك ليس فقط للتوثيق، ولكن أيضًا كوسيلة لتأكيد حضورهم الاجتماعي في فضاء رقمي، وهو ما يتيح لهم بناء صورة موجهة نحو الآخرين، سواء كانوا من الأصدقاء أو المتابعين. هذا الشكل من المشاركة يُعد جزءًا من بناء الهوية الرقمية، حيث يُستخدم المحتوى الذي يتم نشره لإظهار "الذات" بشكل مقبول في سياق اجتماعي معين. وفقًا ل "بويد" boyd ، يحصل المراهقون على فكرة حول أنواع العروض المقبولة اجتماعيًا من خلال النظر إلى الملفات الشخصية للآخرين؛ حيث توفر إشارات حاسمة حول ما يجب عرضه في ملفهم الشخصي [28] .

إن ما ينبغي التنبيه له هو أن مواقع التواصل الاجتماعي باتت فضاءاتمساهمة في تشكيل هويات المراهقين بدار الطالب من خلال التفاعلات التي يقومون بها على شبكات التواصل الرقمية، هذا الأمر ينعكس بصورة مباشرة على نظرتهم للواقع الاجتماعي من خلال إعادة النظر في كل طبيعة التفاعلات الاجتماعية اليومية أو بعبارة أخرى يعمل المراهق على وضع مقارنة بين ما يشاهده ويقرأه على مواقع التواصل الاجتماعي وبين ما يعيشه في الواقع، وهذه المقارنة تؤدي لا محال إلى النفور من الواقع الاجتماعي اليومي المليء بالضغوطات والتوجه في مقابل ذلك للانغماس أكثر في الفضاءات الافتراضية التي تلبي كل رغبات وحاجيات المراهق.

رابعاً: الشبكات الاجتماعية بين المخاطر والمزايا من منظور المراهقين.

في الفضاء الرقمي الشاسع، أصبح استخدام المراهقين لمنصات التواصل الاجتماعي أمرا طبيعيا ومتكرراً. وعلى الرغم من أنها تقدم فرصًا عديدة للتفاعل والتواصل، إلا أنها قد تتحول إلى بيئة محفوفة بالمخاطر على المستوى السوسيو-نفسي للمراهقين، وغرضنا في هذا المحور هو أن نفهم المزايا والمخاطر التي ينطوي عليها استخدام وسائل التواصل الاجتماعي للمراهقين بمؤسسة الرعاية الاجتماعية-دار الطالب في تعلمهم لتحقيق الاستقلالية.

المخاطر:

- المراهقين يميلون إلى خلق صورة مثالية عن أنفسهم في العالم الرقمي، حيث يمكنهم التحكم في كيفية ظهورهم والتفاعل مع الآخرين وفقًا لاحتياجاتهم ورغباتهم. هذا الفضاء الافتراضي يسمح لهم بتقديم أنفسهم بطرق قد لا تكون ممكنة في الواقع الاجتماعي، مما يعزز شعورهم بالقبول والتقدير، ويخلق نوعًا من الانفصال بين هويتهم الرقمية وهويتهم الواقعية غير المتبلورة، مما سينعكس سلباً على مستوى تفاعلهم الاجتماعي المباشر، وفي قدرتهم على مواجهة الواقع بمتغيراته العديدة.
- أصبح من السهل للمراهقين في ظل سهولة ولوجهم لمواقع التواصل الاجتماعي الوصول إلى نماذج متعددة من الأشخاص الذين يحققون معايير معينة من الجمال، النجاح، والسعادة. هذه النماذج، التي غالبًا ما تكون غير واقعية أو مبالغا فيها، تُعرض بشكل متكرر عبر منصات مثل إنستغرام، تيك توك، وفيسبوك، حيث يتم التركيز على الجوانب الإيجابية أو المميزة فقط من حياة هؤلاء الأفراد، مما يؤدي إلى خلق صورة مثالية عنهم لا تتماشى مع الواقع. إحدى التأثيرات الاجتماعية الرئيسية لهذه الظاهرة هي تكوين ما يُسمى بـ "الإحباط الاجتماعي"، وبناء تقدير ذات منخفض، وهو ما يحدث عندما يتعذر على المراهقين تحقيق هذه الصورة المثالية التي يتم تقديمها لهم.
- تتيح وسائل التواصل الاجتماعي مساحة غير محدودة للتفاعل مع الآخرين، لكنها في الوقت ذاته توفر بيئة يمكن أن تكون مليئة بالمواقف السلبية. والتي قد تتنوع بين التنمر الإلكتروني (cyberbullying)، الاستدراج العاطفي، أو حتى التهديدات المباشرة، كان من ضمنها تلقي صور غير لائقة من الغرباء، تلقي فيديوهات ذات ايحاءات جنسية، نشر صور أو معلومات خاصة دون إذن، التعرض للإهانات، التحرش، وأشخاص غرباء يطلبون صورًا حميمة.

المزايا:

- على الرغم من المخاطر والآثار السلبية المذكورة الناتجة عن استخدام وسائل التواصل الاجتماعي، فإنه لا يجب تجاهل الجوانب الإيجابية لهذه المنصات، حيث يمكن للكثير من المراهقين، التواصل مع أصدقائهم والأشخاص المقربين لهم رغم التباعد الفيزيقي، وملء أوقات فراغهم وتقليص احساسهم بالوحدة، مما يمكن أن يوفر لهم شعورًا بالانتماء ومساحة للتعبير عن أنفسهم في بيئة أقل تحدياً وأكثر انفتاحاً، واستكشاف هوياتهم(ميولاتهم، اهتماماتهم..) وتطوير ذاتهم، والبحث عن القبول من الآخرين من خلال الانخراط في مجموعات افتراضية تشاركهم اهتماماتهم

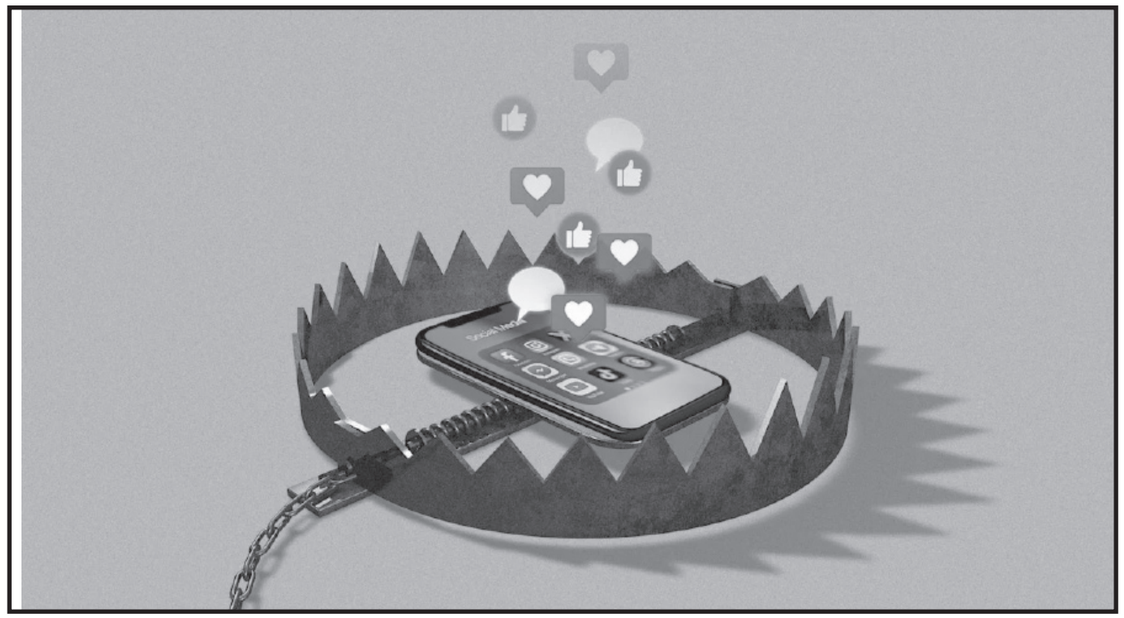

الهوامش

27 - إن النشر على منصات التواصل الاجتماعي في تقديرنا يتزايد من خلال زيادة عدد المتابعين، فعدد المتابعين يحفز المراهق على الاستمرارية في النشر لكونه يسعى لنيل الاعتراف من طرف الآخرين.

28 -boyd,danah.It's Complicated: The Social Lives of Networked Teens. Yale University Press, 2014. P 48.

وقيمهم وأحياناً معاناتهم.

● بالنسبة للمراهقين الذين قابلنا، باتت الشبكات الاجتماعية بالنسبة لهم جزءًا أساسيًا من حياتهم، خاصة أن دورها لا يقتصر فقط على كونها أدوات للتواصل الاجتماعي، بل ينظرون إليها كوسيلة لتوثيق بعض لحظات حياتهم ومشاركتها مع الآخرين على شكل ذاكـرة شخصية حية تشكل جزء من بنية هويتهم الذاتية وذاكرتهم الجماعية الرقمية.

● ذكـر مجموعة مـن المراهقين الذين قابلنا أن الشبكات الاجتماعية متعددة الوظائف للمراهقين، سواء على مستوى تلبية احتياجاتهم المعلوماتية من خـلال كونها مصدرا مهم للمعرفة واكتساب المعلومات، وتشمل جميع أنواع الموضوعات المتجددة باستمرار والتي تهمهم. فضلاً على هذا يستخدمون ذات الشبكات لأغراض التسلية والترفيه وتفريغ الضغوط النفسية.

● يمكننا أن نخلص إلى أن الفوائد الرئيسية لوسائل التواصل الاجتماعي تكمن في التنوع الـذي تقدمه، والـذي يشمل التنوع في المحتوى، والآراء، والفرص، والثقافات، والملفات الشخصية، مما يعزز من غنى هذه الوسائل ويسهم في توسيع آفاق المراهقين المستخدمين لها.

على سبيل الختم:

تأتي هذه المساهمة في سياق محاولة فهم تجربة تفاعل المراهقين في البيئة الرقمية، حيث تلعب من خلالها الشبكات الاجتماعية دوراً مهماً في تشكيل هويتهم، حيث أن المحتوى المنشور عليها يؤثر في أفكارهم،وهذا ما يؤدي إلى أن تركيزهم يصبح أكثر على ذات الشبكات بدلاً من أنفسهم، مما يتسبب في أن يصبحوا غير اجتماعيين إلى حد ما ويفضلون التواصل عبر الإنترنت.

من خلال بحثنا الميداني نستشف أن المراهقين المستجوبين يُظهرونا هتماماً بالشبكات الاجتماعية، حيث يعبرون عن ذلك باستخدامهم لأكثر من منصة واحدة (واتساب، فيسبوك، انستغرام..الخ)، كما أنهم يسعون من خلالها إلى قبولهم في المجموعات الاجتماعية سـواء كان ذلك بشكل حضوري أو افـتراضي، وعليه فهم بحاجة للانخراط في مـواقـع التواصل الاجتماعي التي توفر لهم امكانية التفاعل مع الآخرين، التعبير عن أنفسهم، واكتساب التأثيرات المختلفة من خلال المحتوى الذي يتعرضون له. ومع ذلك في تقديرنا، يجب أن تكون هذه التجربة متوازنة، حيث يمكن أن تؤثر مواقع التواصل بشكل إيجابي من خلال تعزيز التواصل وتوسيع الآفاق الثقافية والمعرفية للمراهقين بدار الطالب، لكنها قد تساهم أيضًا في مشكلات مثل الضغط النفسي والاعتماد على معايير غير واقعية للجمال أو النجاح. ■

المراجع و المصادر

أ- باللغة العربية:

- ابن منظور أبو الفضل، جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي المصري. لسان العرب، دار صادر بيروت، الجزء 15.

- بغامي، كتيبة و مريم شريط. "سوسيولوجيا الهوية تطور في الفكر والمفهوم"، مجلة دراسات في سيكولوجية الانحراف، العدد 01، 2022، الصفحات 560-576.

- بوبكر، هشام ودليلة بولكلوك،"الهوية الافتراضية واقع وتحديات"، مجلة البحوث والدراسات الإنسانية، المجلد15، العدد 1، 2021، الصفحات 516-483.

- بوخوش، عبد الغني وصلاح الدين لعريني،"تحولات الهوية الشخصية بالمجتمع الشبكي الرقمي"، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية لأكاديمية المملكة المغربية، العدد 1، 2022، الصفحات 289-278.

-دوبار، كلود. أزمة الهويات: تفسير تحول، ترجمة: رندة بعث، بيروت، المكتبة الشرقية، (الطبعة الأولى)، 2008.

- زكيبدوي، أحمد. معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، مكتبة لبنان ساحة رياض الصلح بيروت، 1982.

- زهران حامد، عبد السلام. علم نفس النمو (الطفولة والمراهقة)، دار المعارف، 1986.

- مختار، عمر أحمد، معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، الطبعة الأولى، 2008.

- ميخائيلمعوض، خليل. سيكولوجية نمو الطفولة والمراهقة، دار الفكر العربي، مصر، 1994.

- مختار،محي الدين. محاضرات في علم النفس الاجتماعي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982.

-يوسف محمد رضا. معجم العربية الكلاسيكية والمعاصرة، مكتبة لبنان ناشرون، الطبعة الأولى، 2006.

ب- باللغة الأجنبية:

- Bezuidenhout, Christiaan. and Sandra Jeroma Joubert. Child and Youth Misbehaviour in South Africa: A Holistic View. 1st ed, Van Schaik, 2003.

- boyd, danah.It's Complicated: The Social Lives of Networked Teens. Yale University Press, 2014.

- Crosnoe,Robert.&MonicaJohnson."Research on Adolescence in the Twenty-First Century." Annual Review of Sociology. 2011. pp 439-460.

- Cuin, Charles-Henry. "Esquisse D'une Théorie Sociologique De L'adolescence." Revue Européenne Des Sciences Sociales, no. 2, Déc 2011, pp 71-92.

- Corey, Gerald. and Marianne Corey. Groups: Process and Practice (6th Edition), Brooks/Cole Publishing Company, 2002.

- Ellison, Nicole.&Charles Steinfield. Spatially Bounded Online Social Networks and Social Capital: The Role of Facebook. Annual Conference of the International Communication Association, 2006.

- Hikmatun, Sallimah. "THE INFLUENCE OF SOCIAL MEDIA ON ADOLESCENT SOCIAL INTERACTIONS", 2023, pp 01-12.

- Huerre, Patrice. "L'histoire De L'adolescence : Rôles Et Fonctions D'un Artifice." Journal Français De Psychiatrie, vol. 14, no. 3, Jan. 2001, pp 6-8.

- Jeyanthi, M."Social Media and Identity Formation – The Influence of Self-Presentation and Social Comparison. Mind and Society,"vol. 11, 2022,pp 138-144.

- Kaplan, Andreas,&Michael Haenlein. "Users of the World, Unite! The Challenges and Opportunities of Social Media." Business Horizons, vol. 53, no. 1, Oct. 2009. pp 59-68.

- Louw, D. A, et al. Human Development. 2nd ed, Kagiso Tertiary, 1998.

-Naimal Rose Nurul, Aida Shakula Ishak, and Hafizan Habib Nor, Sultan and Fauziah ismail, "Effect of digital technology on Adolescents", Chapiter1, 2022.pp 138-144.

- World Health Organization. The second decade: Improving adolescent health and development. Geneva: WHO/FRH/ADH/98.18 Rev 1, 2001.

وسائط التواصل الاجتماعي والتحولات الاجتماعية والثقافية: سياقات وآليات الترافع والممانعة

عبد العزيز اجدي
باحث في علم الاجتماع
جامعة سيدي محمد بن عبد الله فاس

الملخص

يعرض المقال التحولات الثقافية والاجتماعية الناجمة عن استخدام وسائط التواصل الاجتماعي، ويركز على سياقاتها وكيفية استخدام هذه المنصات في التأثير والمناصرة، ويستكشف الجوانب الإيجابية والسلبية لهذه التحولات، كما يبرز أهمية هذه الوسائط في تغيير طريقة تفاعلنا اجتماعيا وثقافيا.

أصبح التواصل مع الأصدقاء والعائلة مختلفا تماما، ولم تعد الرسائل النصية وسيلة التواصل الوحيدة فقط، بل تعدى الأمر إلى وسائط أكثر سرعة وفعالية، إذ بإمكاننا مشاركة اللحظات المهمة في حياتنا مع الجميع في لمح البصر، كما أن هذه الوسائط فتحت المجال أمامنا للتعبير عن أنفسنا بحرية أكبر، ومشاركة اهتماماتنا مع أشخاص يشتركون فيها معنا من جميع أنحاء العالم.

يسلط المقال الضوء أيضا، على استغلال مواقع التواصل الاجتماعي لأغراض الترويج التجاري والاجتماعي، فضلا عن التأثيرات التي تحدثها مواقع التواصل الاجتماعي على حياتنا اليومية، وعلى القضايا الاجتماعية والثقافية التي تواجهنا، وكيفية قيام بعض الأفراد بمقاومة هذا التأثير، والسعي للحفاظ على الهوية الثقافية، وذلك بالاعتماد على المنهج الكيفي قصد الفهم والتفسير والتأويل لما تحدثه وسائط التواصل الاجتماعي من تغيرات في العلاقات الاجتماعية للأفراد ومدى مجابهتهم لهذه الوسائط، وفق الإحصائيات والأدوات البحثية المعمول بها في هذا المضمار.

الكلمات المفاتيح: التحولات - وسائط التواصل الاجتماعي- المجتمع- الأسرة - القيم.

Abstract

This article explores the cultural and social transformations brought about by the use of social media, focusing on their contexts and how these platforms are used for influence and advocacy. It explores both the positive and negative aspects of these transformations, highlighting the importance of these media in changing the way we interact socially and culturally.

Communicating with friends and family has become completely different. Text messaging is no longer the only means of communication, but has become a faster and more effective medium. We can share important moments in our lives with everyone in the blink of an eye. These media have also opened the way for us to express ourselves more freely and share our interests with like-minded people from all over the world.

The article also highlights the exploitation of social media for commercial and social promotion purposes, as well as the impacts

social media has on our daily lives and the social and cultural issues we face, and how some individuals resist this impact and strive to preserve their cultural identity. This is done by relying on a qualitative approach to understand, explain, and interpret the changes social media has brought about in individuals' social relationships and the extent to which they have confronted these media, based on statistics and research tools used in this field.

Keywords: transformations, social media, society, family, values.

على سبيل التقديم

اكتست وسائط التواصل الاجتماعي أهمية بالغة في العصر الحديث، وانتشرت بسرعة مهولة، نظراً لسيولة وسهولة الوصول إلى منصاتها بمجانية ودون "ترخيص" أو "رقابة"، كما أحدثت تأثيرا بَيِّناً على مستوى العلاقات الاجتماعية، وتغييراً في بعض الأنظمة الاستبدادية كما هو الحال بالنسبة لنظام بنعلي في تونس والقذافي في ليبيا ومبارك في مصر، حيث تم استثمارها في إيصال صوت المستضعفين، وصوت الذين لا يملكون القدرة على الكلام، وحلقة وصل بين السلطة والشعب.

إن المتوسم لهذه الوسائط يلفي التحطيم الكلي والشامل لمفاهيم "المكان" و"الزمان" عن طريق أحدث التقنيات السمعية البصرية، وتكنولوجيا المعلوميات والإنترنت، حيث تمكن الإنسان بفضل البث المباشر والكاميرا، من متابعة "الحدث" في اللحظة الزمنية ذاتها، كما ينقل الإنترنت المعلومات والصور إلى جميع بقاع العالم. وأصبح "الافتراضي" (Le virtuel) جزء لا يتجزأ من "اليومي" الذي نعيشه، حيث بات من الصعب التمييز بين الافتراضي والحقيقي. أضف إلى ذلك، أن الوصول الضخم والسهل والمباشر إلى المعلومات والمعرفة يغير جذرياً نسق ونمط ثقافتنا (إدغار وبير، الثقافات ومسار تطور العولمة، ص: 72-71)، كما تعمل عملها في تشكيل "مجتمع شبكي" لا ترتسم فيه الحدود ولا الأزمنة ولا الأمكنة، مما ينعكس بشكل أو بآخر على البنية الاجتماعية والرابط الاجتماعي Lien Social والمنظومة القيمية.

لم تكتف وسائط التواصل الاجتماعي بالمعنى الحرفي للتواصل وحدوده، بل الأمر تعداه إلى جعله منبراً حراً للتعبير عن الآراء والتعري والكشف والفضح في كثير من الأحيان؛ عما يعتمل في البلدان اجتماعياً أو ثقافياً أو سياسياً أو اقتصادياً، هذا فضلا عن جعلها وسيلة للاسترزاق عن طريق صناعة المحتوى وتحقيق الأرباح، والتنافس على ما يحقق أعلى نسبة لدى المستمعين أو المشاهدين، في إطار ما يسمى بـ"البوز"، مهما كان نوع هذا المحتوى وطبيعته، فالمهم هو ما يحققه من نسب المشاهدات، وإن كان رديئاً وتافهاً.

لقد أصبحنا مثل هذا الجيل الذي فتح عينه على وسائط التواصل الاجتماعي، مسكونين بهاجس الهاتف الذكي الذي صار جزء لا يتجزأ منا، ينتسب إلينا وننتسب إليه، لا نستغني عنه ولا يستغني عنا، فهو معنا في كل حيثيات وتفاصيل حياتنا، نعْتني به أيما اعتناء، ونُعبئه في كل مرة ينقضي رصيده من المكالمات ومن الربط بشبكات التواصل الاجتماعي، ثم "نركض من مكان إلى مكان، باحثين عن هذا الوافد الذي أصبح شُغْلنا اليومي، وكأنه سيدُنا المطاع"(محمد بنيس، الحداثة المعطوبة، ص: 15).

ألقت تصورات التحديث والعصرنة، وهيمنة ثقافة الصورة والرقمنة، وكل الوسائط السمعية البصرية، التي أصبحت لا غنى عنها في ممارسات الطقس "اليومي" للأفراد، بظلالها على شرائح اجتماعية، وبحكم قوة سلطتها وتحكمها وتأثيرها في المجتمع الإنساني، وتغلغلها في كل بيت مدر ووبر - وهذا لعمري بات أمراً معلوماً ولا جدال فيه ولا مراء- ساهمت ونحن المحكومون بها لا المتحكمون فيها، في خلخلة عميقة للكيان الاجتماعي، وللأبعاد الإنسانية، بسبب "قرب المسافات وسهولة الاتصال وسرعة الانتشار والذيوع وفك العزلة وارتفاع أشكال كثيرة من ألوان الإعاقة والوصاية التي كانت مفروضة من قبل المركز ووضعية تحت". (عبد العاطي الزياني، الكتابة وفضاء الهامش، ص: 101).

يقول مانويل كاستلز (Manuel Castells) في كتابه: "المجتمع الشبكي"، هو "الأول الذي لا ارتباط عضويا بداخله بين التكنولوجيا من ناحية والقيم الثقافية والتصورات الإيديولوجية للسلطة وللمجتمع من ناحية أخرى" (يحيى اليحياوي، احتقار الديموقراطية، ص: 162).

لذلك، يصبح الدخول إلى هذا المجتمع محفوفا بشتى المخاطر، ويحتاج إلى حصانة، وإلى تقوية دفاعات الفرد، ونهج استراتيجيات التكيف والتوليف.

في هذا السياق، وأمام الثورة التكنولوجية وعولمة الاقتصاد وعصر المعرفة، نسلم مع يحيى اليحياوي، بأن القائم/القادم اليوم خاصة في الدول المتخلفة أو السائرة في طريق النمو، يتجلى في "تقدم معلوماتي وتنظيمي ضاغط في مقابل "تخلف اجتماعي" فاقع يضغط بجهة الإقصاء والتهميش أكثر ما يدفع بجهة الإدماج" (يحيى اليحياوي، احتقار الديموقراطية، ص: 163).

من هنا أثرنا قضيةمنالقضايا المهمة في حياتنا المجتمعية، وهي التحولات الاجتماعية والثقافية لوسائط التواصل الاجتماعيوالاستراتيجيات التي يتخذها الأفراد تجاه هذه الوسائط. ويمكن صياغة التساؤل الإشكالي والمحوري الذي انهجس بنا في سياق تناولنا لهذا الموضوع في الآتي: إلى أي حد تسهم دراسة التحولات الاجتماعية والثقافية لوسائط التواصل الاجتماعي في فهم آليات الترافع والممانعة إزاء هذه الوسائط؟

كما يمكن **صياغة فرضية مركزية** انطلاقاً من السؤال الإشكالي:

من المرجح أن التحولات الاجتماعية والثقافية لوسائط التواصل الاجتماعي لها علاقة مباشرة بالتغير في العلاقات الاجتماعية للأفراد والجماعات، وفي نهجهم لاستراتيجيات الترافع والممانعة بدل الانصهار والذوبان في هذه الوسائط.

من أجل ذلك، سنعمد إلى مقاربة الموضوع وفق المنهج السوسيولوجي لفهم سياقات التحولات الاجتماعية والثقافية لوسائط التواصل الاجتماعي والآليات التي يستخدمها الأفراد في الترافع والممانعة حول هذه الوسائط، كما سنركز على المنهجالكيفي قصد الفهم والتفسير والتأويل لما تحدثه وسائط التواصل الاجتماعي من تغيراتفي العلاقات الاجتماعية للأفراد ومدى مجابهتهم لهذه الوسائط، وفق الإحصائيات والأدوات البحثية المعمول بها في هذا المضمار.

ا ــ السياقات العامة لوسائط التواصل الاجتماعي

شاركت مؤسساتوسائل الإعلاملأكثر من قرن في توفير بنية تحتية للحياة الاجتماعية واستثمرت في إعادة تقديم العالم على أنه "اجتماعي"، حيث أصبح الجدل بين "الإعلامي" و"الاجتماعي" أكثر إلحاحا في فهم عصرنا الذي توسعت فيه البنى التحتية الإعلامية والمعلوماتية وتقاربت حتى أصبحت جزء لا يتجزأ من نسيج الحياة اليومية. إن كلمة "الاجتماعي" هي مصطلح ضروري للتفكير في الترابط المعقد الذي تنشأ منه الحياة البشرية،من خلال استثمار جميع أشكال السلطة في تمثيلات معينة للاجتماعي، واليوم أصبحت "وسائل التواصل الاجتماعي"في قلب هذا الجدل.

إن رفض برونو لاتور (Bruno Latour) لـ"الاجتماعي" كان بمثابة محاولة لإفساح المجال أمام تقديم وصف مادي أكثر شمولاً للارتباطات التي تساعد في تكوين تجاربنا التي نسميها "اجتماعية"، ولكن هاته الالتفاتة لها عواقب: سواء كان ذلك متعمداً أو غير متعمد، فالتقليل من قيمة الاجتماعي كموضوع للتحليل يتجاهل النقطة الأساسية التي مفادها أننا نحتاج إلى مصطلح "اجتماعي" للإشارة إلى "مجموع الترابطات المعقدة" التي تشكل "الواقع الأساسي للوجود الإنساني" (Sewell, 2005, p. 326)،فالبديهية التي تحكم الحياة الاجتماعية التجريبية تتلخص في حقيقة مفادها أن الحياة ليست اجتماعية بالكامل.(Simmel, 1971, p. 14)

من خلال هذا القول، فإننا لا نضفي طابعا ماديا على "المجتمع" أو نعتمد على رواية"الاجتماعي" التي تخدم تراكمات معينة،بل نتعامل مع المجتمع باعتباره موقعاً للتمثيل المتنازع عليه بالضرورة لكل ما يربط مجالات متعددة من التفاعل الإنساني، وأيضا باعتباره مجالا خاصا من الموارد والتمثيلات التي تولد المجتمع في أي وقت ومكان، فهو في حاجة إلى تفكيك اجتماعي وثقافي ضمن "نظرية مادية للثقافة" (Stuart Hall, 1996, p. 48)،خصوصا في عصر أصبح فيه المجتمع مجالا للقيم الاقتصادية الجديدة، وإعادة تعريف مركزة لمصطلح "وسائط التواصل الاجتماعي"، فبدلا من أن يكون الأمر مجرد وصف للمجتمع، يُنظر إليهكعملية استحواذ عليه. وبالتالي، تتطلب دراسة هذه الوسائط فهماً للثقافة الرقمية من منظور اجتماعي. هذا الفهم لا يعتبر الثقافة الرقمية مجرد نظام ثابت ومغلق أو عمليات سطحية لصنع المعنى، بل باعتبارها تفاعلا جدليا يجمع بين النظام والممارسة".(William H. Sewell Jr. 2005, p. 169

الواقع أن وسائط التواصل الاجتماعي تشكل تجارة ضخمة، وهي حقيقة توفر لها لغة النظريات الاجتماعية غطاء مفيدا: ففي عرض فيديو أقيم قبل إطلاق فيسبوك في سوق الأوراق المالية في عام 2012، زعم مارك زوكربيرج (Mark Zuckerberg) أن الفايسبوك "نسيج قادر على جعل أي تجربة على الإنترنت اجتماعية" (van Dijck, 2013, p. 67). وهنا يكمن الضغط لاستخدام وسائط التواصل الاجتماعي، وإعادة معالجتها الخوارزمية، كحدود جديدة حيث يمكن بناء الأسواق وتوليد القيمة.من جهة أخرى، عبر "جورج زيمل" عن أنه "إذا كان لدينا الآن تصور بأننا ندخل في مجال التفاعل الاجتماعي باعتبارنا كائنات بشرية، كما نحن في الواقع... فذلك لأن الحياة الحديثة مثقلة بالمحتوى الموضوعي والمتطلبات المادية"(George Simmel, 1971, p: 133).

لقد أكد هنري لوفيفر(Henri Lefebvre) مع بزوغ فجر عصر الوسائط الإلكترونية على أن الحياة اليومية هي موقع للغموض والتناقض(Henri Lefebvre, p: 18)، في حين نجد أن "سيويل"يؤكد قبل ظهور وسائط التواصل الاجتماعي، عن أهمية علم الاجتماع التأويلي الذي يركز على "نزع الصفة المادية عن الحياة الاجتماعية" (William H. Sewell Jr. 2005, p: 369). وبهذا المعنى يرى الذين يقاومون إعادة تعريف الاجتماعي، على أنه ببساطة كل ما يحدث علىمنصات وسائط التواصل الاجتماعي.

إن البحث في العلاقة بين وسائط التواصل الاجتماعي ووسائل الإعلام اليوم يتطلب اعتبارها أولاً، أكثر من مجرد وصف لكيفية عمل أحدث المنصات، ناهيك عن إمكانياتها الإيجابية المفترضة (ديمقراطية، معبرة، اجتماعية)، وثانياً، البحث على الأقل في الكيفية التي توصلت بها منصات وسائط التواصل الاجتماعي (وثقافات الإنتاج المتعددة التي أنتجتها) إلى اقتراح نسخة معينة من "الاجتماعي"، وكيف يواصل المستخدمون سنها، وثالثاً، البحث في الكيفية التي تولد بها جدلية وسائط التواصل الاجتماعي مخاوف أخلاقية أو معيارية، وكيف يمكن تطوير أخلاقيات أكثر فعالية للحياة الاجتماعية من خلال وسائل الإعلام وبناء مقترحات بديلة لـ "الاجتماعي".

في هذا المنوال، لابد من استحضار الانتقادات الحديثة للدفاعات الاجتماعية القديمة عن "الاجتماعي"، نقد "برونولاتور"لإميل دوركهايم(Emile Durkheim) لتجاهله التباين بين العمليات التي يتم من خلالها صنع تجارب التفاعل "الاجتماعي"؛ ونقد للوك بولتانسكي ولوران تيفينو (Luc Boltanski and Laurent Thévenot) لعدم اهتمام بيير بورديو (Pierre Bourdieu) بالقيمة الفعلية للتعددية في المجتمعات المعقدة، هذا مع التمسك بالإمكانات النقدية لـ "الاجتماعي" باعتباره فهماً لأشكال معينة من السيطرة الاجتماعية (Ederyn Williams and Raymond Williams. 1990, p: 120).

شهد العالم،منذ منتصف القرن العشرين إلى مطلع القرن الحادي والعشرين،ثورة رقمية هائلة، تميزت بالانتشار الكبير للحواسيب المحمولة والهواتف الذكية والكاميرات الرقمية والألواح الإلكترونية... واستخدامها في مجالي الاتصالات وتخزين البيانات، كما صاحبتها ثورة في وسائط التواصل الاجتماعي (Social Media)، من خلال مجموعة من التطبيقات التي تستند

إلى الإنترنت، وتعتمد الأسس الأيديولوجية والتكنولوجية لما يُسمّى ثورة الويب (2.0 Web)، التي تسمح للمستخدم بإنشاء المحتوى ومشاركته على الإنترنت.

لقد أصبح الاستخداماالمكثف لوسائط التواصل الاجتماعي جـزءاً لا يتجزأ من حياة الناس اليومية، بسبب سهولة الولوج إلى شبكة الإنترنت، سواء في الفضاءات الخاصة أوالعمومية (مثل الأبنية، والساحات بل حتى وسائل النقل العمومية)، فضلا عنالتراجع الملحوظ في تكلفة اقتناء الحواسيب المحمولة والألواح الإلكترونية والهواتف الذكية والاشتراكفي شبكة الإنترنت، ما يجعلها اليوم متاحة تقريبا للجميع،إذ بحلول عـام 2024، بلغ إجمالي مستخدمي وسائط التواصل الاجتماعي بالمغرب، 21.50مليون مستخدم. ويعادل هذا 55.7 في المائة من إجمالي السكان، كما تم إجراء ما مجموعه 51.36 مليون اتصال خلوي نشط في السنة نفسها. (Digital Global Overview Report. Digital 2024: Morocco)

انتشرتفي عصرنا الحالي وسائط التواصل الاجتماعي وتطبيقاتها، والتي غيرت من مستوى الاستخدام الشخصي والمهني، بحيث اخترقت حياة البشر بإمكانياتها للوصول إلى الجماهير بشكل لم يسبق له مثيل،فعلى الرغم من أن هذه الوسائط كانت مصدرا لهذا التغيير، إلا أنها تسببت إلى حد كبير في طمس الحدود بين ما يُنظر إليه على أنه "عام" مقابل ما هو "خاص"، وكانت سببا للقلق لدى الكثيرين لأنها تؤدي باستمرار إلى تآكل الحدود وتنتهك الحياة العامة والخاصة لمستخدميها. (Amar, Kanekar and Joseph, Otundo.2023.p:145)

إن الأفراد والجماعات في إطار وسائط التواصل الاجتماعي لهم القدرة على التفاعل مع البنية الكونية والبنية الخصوصية في الآن ذاته، هذا البعد الثقافي الذي يجمع بين الكونية والخصوصية يصبح هجينا إن صح التعبير، فالثقافة الرمزية (Symbolic culture)في هـذا السياق هـي ثقافة المتفاعلين في المجال الافتراضي.

في هذا الصدد، شكل تحليل وسائط التواصل الاجتماعي جزء منوسائل الإعلام الجديدة الأكثر شيوعاً؛ إذ يرتبط مفهوم "وسائط التواصل الاجتماعي" بوساطة الاتصال البشري من خلال تقنيات الشبكات والهواتف المحمولة المختلفة، كل ذلك يوفر إمكانيات غير محدودة للتواصل ويحوله إلى حوار تفاعلي. في الواقع، إنها بيئات عبر الإنترنت تستخدم لتنويع وتسهيل التفاعلات الاجتماعية، مثل تبادل المحتوى، على سبيل المثال: الأفكار والخبرة وغيرها من بيانات الوسائط ذات الصلة. (Olga Kyslova and EkaterynaBerdnyk. 2013. P :76)

إن الانتشار السريع لوسائط التواصل الاجتماعي وأهميتها المتزايدة في الحياة الحديثة، جعلها تتحول من هدف إلى وسيلة، فالأمر الرئيس ليس المعلومات نفسها، بل حقيقة التواصل بشأن هذه المعلومات،وهنا تصف صيغة ماكلوهان الكلاسيكية "الوسيلة هي الرسالة" عصر وسـائـل الإعـلام الجماهيرية؛ وفي عصر الويب 2.0 تتحول هذه الصيغة إلى ما يلي: "التواصل هو الرسالة". (Rantanen, Terhi. 2005: 143)

وفي مقابل ذلك، فإن الهدف من وسائط التواصل الاجتماعي هو خلق فرص للتواصل غير المحدود، والوصول المفتوح إلى المعرفة والتراث الثقافي للإنسانية. تجدر الإشارة إلى أنه في أواخر القرن العشرين، أصبح التواصل أحد أهم القيم الإنسانية، حتى أن البحث عن منهجية جديدة للإدراك الاجتماعي كان تحت عنوان:"التواصل"،ومنه تطورت شبكة الويب العالمية بشكل مستقل عن البحث النظري لعلماء الاجتماع، إلا أن تطورها أدى (وما يزال) إلى ظهور نماذج اجتماعية وثقافية تتحول في النهاية إلى سمات معتادة للوجود في العالم الحديث(Olga Kyslova and EkaterynaBerdnyk. 2013. P :79-80).

II ــ وسائط التواصل الاجتماعي والتحولات القيمية

تشكل مؤسسة الإعلام دوراً كبيراً في عملية ترسيخ القيم عبر وسائل الاتصال الجماهيري، ووسائط التواصل الاجتماعي التي اكتسحت جميع الفئات الاجتماعيّة صغيرها وكبيرها، قصد تغييرها. من أجل ذلـك، وصف الفكر الاتصالي بأنه "فكر للحداثة وضع من أجل تسهيل عملية تحديث البنيات الاجتماعيّة، فإنه غالبا ما يتم اعتباره كحقيقة في حد ذاتها (حتى أن مجرد ذكر الاتصال يكفي أحيانا ليجعل منه نوعا من النبوءة المتحققة ذاتيا)، لكن يتم أحياناً وبشكل متواز انتقاده باسم الدفاع عن الفن أو بسبب نزوعه إلى إنتاج التوافق، أو كذلك بسبب الإقصاءات التي يخفيها". (بيرنارمييج، الفكر الاتصالي. ص: 12)

والحالأنَّه لا يمكن إنكار الثورة الرقمية اليوم، وما تحدثه من تغيرات في البنيات الأسريّة والاجتماعيّة. في هذا الصدد، هل سيساعدنا مفهوم "المجتمع المركب" على حد تعبير بول باسكون (Paul Pascon)، من حيث الممارسة على أرض الواقع الملموس، على "الكشف عن مدى فعاليات التقدم ومقاومات المحافظة" (بول باسكون، تكوين المجتمع المغربي. ص: 64) الخاصة بمنظومة القيم ومدى محافظة تلك البنيات الأسريّة على القيم الموروثة، وكفيات مقاومة القيم الوافدة على المجتمع عبر مختلف الوسائط الإعلاميّة.

لقد بنى ماكس فيبر (Max Weber) توجهه النظري على أساس التمييز بين المؤسسات (العائلة، والدولة، والقبيلة، والأمة، والجيش...)، في تطورها الطبيعي والموضوعي، وبين الـدلالات التي يمنحها الأفراد لهاته المؤسسات، وأيضاً التفاعلات الفردية التي تنتمي إلى حقل ثقافي مشترك، تمنح لتلك المؤسسات شرعية وجودها الفعلي والعقلاني. من أجل ذلك تصبح السوسيولوجيا قائمة على دلالة منطقية تسعى من خلالها إلى فهم الفعل الإنساني Action humaine، والتفاعلات الناجمة عنه. (Madeleine Grawitz, 1993, p :141)

انطلاقاً من هذا التأثيث النظري الفيبري، يمكننا القول، أن لكل مجتمع نسقه الثقافي الذي تشترك فيه جميع فئاته وأفراده عبر مختلف المؤسسات الاجتماعيّة والسياسيّة والثقافيّة، وأيضا له خصوصيته التي تميزه عن باقي المجتمعات الأخرى، وله منظومته القيميّة التي ورثها عبر الأجيال، والتي قد تختلف أو تتفق جزء أو كلاً مع أي منظومة قيم لمجتمع من مجتمعات المعمور.

إلاَّ أنَّ التطور التكنولوجي والإعلامي والمـد العولمي والـحـداثـة، والتحولات الكبرى التي شهدها العالم، قد أحدث خلخلة في المجتمعات والشعوب، وعلى جميع الأصعدة والمستويات، وعرفت معه منظومة القيم محكاً حقيقياً، وصراعـاً محموماً بين القيم الجديدة الوافدة، وبين القيم القديمة الموروثة، على اعتبار أن العالم أصبح قرية صغيرة -كل الأشياء فيها يتم تداولها وتشاركها - ممَّا يطرح تحديات على البنيات الأسريّة، في كيفيات حفاظها على القيم المتوارثة، وتفاوضها في الآن مع القيم الوافدة التي تتناسب وخصوصيتها.

أصبح الـيـوم التعامل مـع وسائط التواصل الاجتماعي، ضرورة من الضرورات التي فرضت نفسها في هذا العصر المتسارع بتكنولوجياته المتقدمة، وبالمد العولمي الذي فتح الباب على مصراعيه في كل المجالات، ممَّا أصبح معه الأفراد، في سائر المجتمعات، على دراية بكل المستجدات التي تعصف بين الفينة والأخرى؛ من اختراعات وتطورات في مجال المعرفة، والإعلاميات، وصناعة المحتوى، والتكنولوجيا، والبيولوجيا، والاقتصاد والطب.... إلخ.

1 - وسائط التواصل الاجتماعي وتأثيرها على الأفراد:

لقد استحكمت وسـائـط التواصل الاجـتـمـاعـي في الـعـلاقـات والمـمارسـات الاجتماعيّة، وفي الروابط الأسريّة، وباتت تشكل عنصر تهديد في تفكك البنية المجتمعيّة، والقيم والعادات والتقاليد التي كانت صمام أمان الرابط الاجتماعيوالأسري، وأسـاسـاً متيناً لقيام الأسرة والمجتمع، فهل وصلنا إلى نقطة اللاعودة بالنسبة لها؟

تجدر الإشارة في هذا الصدد، أنَّ مواقع التواصل الاجتماعي "تسعى إلى إعادة "بناء الهوية" الفرديّة، وفق أساسيات الدخول إليها، والتي ينتصر إليها كل "فاعل رقمي""(عبد الرحيم العطري، أنثروبولوجيا الحج الإسلامي، ص: 235)،فتعمل عملها في تشكيل مجتمع شبكي لا ترتسم فيه الحدود ولا الأزمنة ولا الأمكنة، ممَّا ينعكس بشكل أو بآخر على البنية الاجتماعيّة والرابط الاجتماعي Lien Social والمنظومة القيميّة.

لقد اختلفت إجابات المبحوثين[1] في الكيفيات التي ينظرون من خلالها إلى وسائط التواصل الاجتماعي، حيث توزعوا إلى ثلاثة فرق، فريق أول، يعتبرها سلاحاً ذو حدين؛ أي فيها ما هو إيجابي وما هو سلبي على حد سواء، لذلك يتوجب أخذ الحيطةوالحذر في التعامل معها، لما تشكله من ضرورة تفرض نفسها اليوم، فهي من متطلبات العصر التي لا محيد عنها، ومن خطورة إذا ما استعملت ذاك الاستعمال الخاطئ.

وفريق ثانٍيرى بأنَّها تساير العصر

الهوامش

1- تم إجراء مقابلات مع مجموعة من الأفراد(ذكورا وإناثا) لمعرفة السياقات والتحولات الاجتماعية والثقافية لوسائط التواصل الاجتماعي، هؤلاء الأفراد ينتمون لمختلف المدن المغربية، وصل عددهم إلى عشرين فردا (20 فردا)، أما فيما يتعلق بالخصائص الفردية للمبحوثين، فقد تراوحت أعمار معظمهم ما بين 35 و65سنة، لديهم وظائف في قطاع الخدمات (موظف، طالب، ممرض، تاجر، سائق سيارة أجرة، مساعد صيدلي...).

وتواكب مجرياته، وتسهم في زيادة الوعي واتخاذ مواقف مثل المقاطعة لبعض المنتجات، والتنسيق على أوسع نطاق، من أجل خوض الإضرابات والمسيرات في الواقع، لهذا يتم توظيفها بطريقة معقولة ومقبولة تخدم القضايا الاجتماعيّة، وتعبر عَمَّا يجري في حياتنا اليوميّة من أحداث ووقائع.

أماالفريق الثالث، فيرى أنَّها قد حلت محل وسائل الإعلام السمعية البصرية، باعتبارها تشكل وسيلة التواصل السريعة، وتمكن من الحصول على المعلومة والخبر في حينه وبشكل مباشر دون تزييف أو فبركة.

أمَّا فيما يخص تأثيرات الهاتف الذكي على الأفراد داخل الأسرة، فيرجع بالأساس إلى من يستعمله، وغرضه من الاستعمال، وكيفيته،وأوجه استعماله. هي مسائل محددة لمعرفة درجات التأثير والتأثر التي يحدثها هذا الوافد على المجتمعات ككل.

لقد أصبح الهاتف النقال "أداة مدهشة للتحرر الشخصي"(أنتوني غدنز، علم الاجتماع، ص: 520). فلا مراء أن نجد استعماله من قبل كل أفراد الأسرة إلاَّ لماماً، وانتشاره انتشار النار في الهشيم في كل بيت، ولم يسلم حتى الأطفال الصغار من التوفر على هاتف، خاصة عند بعض الأسر المتوسطة والميسورة الحال، كما تعدى استعماله كونه مجرد وسيلة عصرية للتواصل، إلى مآرب أخرى من التجارة والإعلام والاقتصاد والاجتماع.

في المجتمع المغربي نلفي هذا التأثير الأثيري على الأفراد، فرغم المعاناة والبطالة وقلة الشغل، والإقصاء والتهميش الاجتماعي، وغيرها من المشاكل الاجتماعية، تجد بعض الأفراد يضحون بما يملكون، وقد يسمحون في قوت يومهم حتى، من أجل أن يتوفروا على هاتف لهم، أو لأفراد أسرتهم. فهل "هذا هو الأمر الذي يهمنا الآن. نحن الحفاة. الجوعى. العبيد. نركض. لاهثين. والصّمَمُ يتضاعف باستعمالنا للنّقال. الهاتف الساحر، الذي يفتح لنا أبوابَ ملْكوت الكلام. ونحن نتهيأ لاستئناف الكلام، مجرّداً. مبتهجين بالتعابير التي تتكرر في غفلة عنّا. هي لغتُنا الجديدة. تعابيرُ مختصرة في أقل ما يمكن من المعلومات، متخلّصين من جميع أشكال المعرفة، واضعين الهاتف النقّال على الأذن، ضَاغطين على الآلة، متعوّدين على الضجيج وعلى قول ما نريد. علانيةً في الهواء، غير عابئين بإذاعة الحَميم"(محمد بنيس، الحداثة المعطوبة، ص: 15).

نشير إلى أهم تأثيرات الهاتف الذكي على الأفراد داخل محيط الأسرة، تبعا لأقوال المبحوثين في هذا الإطار، وهي على الشكل الآتي:

- يؤثر بشكل كبير خاصة على الأطفال الصغار، وما تحدثه بعض الألعاب من عقد وأمراض نفسية قد تصل في بعض الأحيان إلى حد الأحيان (فري فاير Free fire مثلاً)، إضافةً إلى تدني المستوى الدراسي، بسبب الإدمان على الهاتف وصرف جل الوقت خلف شاشة الهاتف.
- يتسبب في قلة التواصل بين الأفراد داخل الأسرة، بل إلى انعدامه في بعض الأحيان، حيث تجد كل فرد منغمساً مع هاتفه غير آبه لمن حوله، ممَّا يكون مدعاة لحدوث مشاكل، قد تتسبب في تفكك الأسرة، وما يقال في هذا السياق، من القول الدارج، أن الهاتف "اجمع لبعيد وفرق لقريب".
- غياب الحوارات الأسريّة، واختفاء الجو الأسري الحميمي، بسبب انعزال الأفراد عن بعضهم البعض، ممَّا ينعكس سلباً على الجانب العاطفي بين أفراد الأسرة.

انطلاقاً من هذه التأثيرات التي يحدثها الهاتف الذكي، يمكننا القول، إنَّ انتشار الإنترنت، ولو في مظهره المتقطع ومن ضمنه وسائط الاتصال الاجتماعي في المغرب عموماً، أنتج لنا الكثير من المظاهر والظواهر السلبية وأحدث خللاً في مسارات الحياة اليوميّة، سواء في العلاقات مع الأفراد بعضهم ببعض، أو الروابط الاجتماعية، أو السلوكات والممارسات اليومية للأفراد.

عموماً، تختلف البنيات الأسريّة في كيفيات تعاملها مع وسائط التواصل الاجتماعي، وآليات تدبيرها لليومي، وعياً منها بما تسببه من آثار نفسية وفيزيولوجية على الأفراد والمجتمع ككل.

ب-وسائط التواصل الاجتماعيواستراتيجيات التعامل:

في ظل التحولات التكنولوجيّة وانتشار وسائط التواصل الاجتماعي، فإن آليات تعامل الأسر المغربية مع الأبناء -حسب المبحوثين- يطبعه من جهة أولى نوع من الاستسلام، وعدم المراقبة وعدم الاكتراث في كثير من الأحيان، بل يؤدي الأمر إلى تلبية رغبات الأبناء تحت تأثير المحاكاة للأسر الأخرى، لذلك، تبقى حدود تدخل الأسرة في هذا الشأن شكلية لا غير.

ومن جهة ثانية، فإن وسيلة المقاومة والردع تشكل نسبة قليلة بين الأسر، وعيا منها بخطورة تلك الوسائط على أبنائها ومستقبلهم، فتحاول استغلال ما تتيحه من إمكانيات من أجل تعليم الأبناء، والرفع من مستواهم الدراسي.

ومن جهة ثالثة، إحداث القطيعة مع وسائط التواصل الاجتماعي، وفرضها على الأبناء في محيط الأسرة، خاصة عند بعض الأسر ممن ينحون التوجه المحافظ المتشدد، إلاَّ أنَّ هذا الخيار سرعان ما يتلاشى مع تقدم الأبناء في السن حيث يصعب التحكم بهم آنذاك.

لقد ذهب جل المبحوثين إلى أنَّ لوسائط التواصل الاجتماعي دوراً كبيراً في خلخلة التربية داخل محيط الأسرة، باعتبار دورها السلبي أكثر من الإيجابي، والمؤثر على الأبناء خاصة في التشبع ببعض القيم الغربية، وبالرغم من أنها رفعت منسوب الوعي بسبب كثرة استعمالها، وسرعة تلقي جميع المعلومات والأخبار سواء القبيح منها والجميل، علاوةً على أنها عَرّت وفضحت أشياء كانت في الظل، فقد ساهمت في إهدار الزمن وإهمال الأبناء والتَسبُّب في التفرقة بين الأفراد، وما ترسله من رسائل مشفرة تهدم القيم والأخلاق، والعلاقات بين أفراد الأسرة والمجتمع.

أمَّا فيما يخص مستقبل العلاقات بين الأفراد داخل الأسرة في ظل هذه الوسائط -حسب آراء المبحوثين- فإنه يُتوقع أن تكون علاقات مشتتة وغير وطيدة، نظراً لما أحدثته وسائط التواصل الاجتماعي ووسائل الإعلام من تأثيرات سلبية على مستعمليها، نتج عنها مجموعة من المشاكل الاجتماعية، منها أنَّها أصبحت مهددة بتفكك الأسرة وتدمير البيوت، واتساع الهوة التواصلية ين أفراد الأسرة الواحدة، وفقدان القيم، والرابط الأسري والاجتماعي، والطلاق، والانحراف، وأيضا ساهمت بشكل كبير في قطع صلات الرحم والتواصل بين الأسر داخل العائلة، الشيء الذي يجعل المجتمع غير متماسك وغير مترابط، أضف إلى ذلك، الانعزال والتقوقع على الذات بسبب هذه الوسائط.

في هذا الصدد يخبرنا آلان تورين (Alain Tourine) أن "الوجه السلبي للفردانيّة هو العزلة، وانقطاع الانتماءات، الذي يسير موازياً لغياب أي مشروع، أو الإضراب عن كل مشروع سابق. وكثيراً ما يقود هذا الانعزال إلى التهافت على المخدرات والانخراط في جماعات الجانحين التي تنعزل بنفسها عن المجتمع"(آلان تورين، نهاية المجتمعات، ص: 311).

وبما أنَّ الإنترنت قد فتحت من جهة، الباب على مصراعيه لاكتشاف العالم الاجتماعي، وأسهمت في إثراء التواصل الإنساني بين الأفراد والجماعات والمؤسسات، وعززت العلاقات الشخصية، ووسعت نطاق الشبكات الاجتماعيّة، واختزلت كمّاً كبيراً من المبادلات والتعاملات التجاريّة والاقتصاديّة، فإنها من جهة أخرى، تهدد بتقويض العلاقات والقيم الاجتماعيّة وتدمير الجماعات البشريّة، فضلاً عن الآثار الكبيرة التي تحدثها في التفاعل الإنساني إما في تعميقه أو تقليصه، حيث تزيد من العزلة الاجتماعيّة والتجزئة والتفكك في نسيج الحياة الاجتماعيّة، وتقلل من فرص التفاعل داخل الأسرة الواحدة(أنتوني غدنز، علم الاجتماع، م. س، ص: 526).

في هذا المنوال فالعزلة الاجتماعيّة "سواء اتخذت شكلاً طوعياً أو قهرياً تقوض التضامن الاجتماعي من أساسه، على الرغم من أن عواقبها الوخيمة قد تكون أشد خطورة عندما تتخذ العزلة الاجتماعيّة شكل الاستبعاد الاجتماعي، وأعني بالتضامن الاجتماعي الإحساس بمشاعر الرفقة والألفة الذي يمتد ليتجاوز الأشخاص الذين يكون المرء على صلة شخصية بهم. والتضامن الاجتماعي، في حده الأدنى، هو تقبل الأغراب كبشر لهم الاحتياجات والحقوق الأساسية نفسها، وفي حده الأعلى، مجتمع متخيل"(جون هيلز وجوليان لوغران ودافيد بياشو، الاستبعاد الاجتماعي: محاولة للفهم، ص ص: 58-57).

لذلك يتطلب الأمر نهج استراتيجيّات للتفاعل والاندماج الاجتماعي بين الأفراد والجماعات، وفتح آفاق للمشاركة في الحياة العامة كما في الأسرة، والمشاركة في اتخاذ القرارات التي تهم مستقبلهم، والتقليل من التراتبات الاجتماعيّة المرتكزة على القوة الاقتصاديّة والسياسيّة والثقافيّة التي تسهم في اتساع الهوة والاحساس بالإقصاء الاجتماعي لدى الأفراد المنتمين إلى الهامش، هذا فضلاً عن الوعي بخطورة العزلة الاجتماعيّة والدخول في العالم الافتراضي/ المتخيل الذي تزيد في تكريس الاستبعاد الاجتماعي.

لقد أصبحت العلاقات الاجتماعية والأسريّة التي تُبَثُّ في وسائل الإعلام،

كنموذج يحتذى، تشكل خطراً محدقاً، خاصة تلك التي تتأثر بها بسرعة، وتحاول أن تطبق ما يروج له من علاقات مُؤمثلة تتنافى مع الواقع الذي يعج بالمتناقضات، وبالفقر والهشاشة والإقصاء والتهميش الاجتماعيين. لذلك، فالرهان اليوم صعب جـداً في الحفاظ عـلى تماسك وترابط الأسرة والمجتمع، وحمايتهما من الانفراط والتفكك، أمام معاول الهدم التي تمارسها هذه الوسائل والوسائطعلى القيم والأخلاق عبر نشرها للتفاهة التي أصبحت العملة الرائجة في السوق الإعلامي.

على سبيل الختم:

إن التحولات الاجتماعية والثقافية التي أحدثتها وسائط التواصل الاجتماعيفتحت آفاقا جديدة للتفاعل البشري والتعبير عن الرأي، وقد ساهمت في إحداث تغييرات جوهرية في طريقة تواصلنا، ووصولنا للمعلومات، وحتى في تشكيل هوياتنا، ومع ذلـك، فإن هذه التحولات لم تأت دون مقابل، فقد شهدنا أيضا صورا من الاستقطاب والتطرفوانتشار الأخبار الزائفة، مما يتطلب ضرورة التعامل مع هذه الوسائط بحكمة وحسن اختيار، فوسائط التواصل الاجتماعي هي أداة قوية بيد المجتمعات الحديثة، إلا أنها ليست سحرية ولا معصومة من الخطأ،بل تحتاج إلى من يقودها بحكمة، بوعي، وباحترافية.

يمكن أن نحدد ثلاث سمات لمجتمع ما بعد الحداثة وفق ما ذهب إليه آلان مارتن (Allan Martin): أولاً؛ إنه مجتمع معولم، تحول فيه اقتصاد السوق الحر إلى نظام فوق وطني، ثانياً؛ إنه مجتمع مشبع رقميا، أصبحت فيه التكنولوجيا الرقمية ضرورية لإنجاز معظم الأنشطة الرسمية والتجارية، والعديد من الأنشطة الشخصية أيضا، ثالثاً؛ إنه مجتمع ينظر فيه إلى التغيير على أنه متوطن وسريـع، حيث لا يبدو أن شيئا يبقى على حاله (Allan Martin, 2009, p: 2).

إن التطورات التكنولوجية والمعلوماتية جعلت من الإنسان كائنا سيبيرانيا، لا يكتمل وجـوده وحـضوره إلا بالمعرفة والأدوات التكنولوجية التي يمتلكها، فهويتنا تبقى منقوصة بدون هوية فايسبوكية أو استخدام الإنترنت أو جهاز هاتفي للتواصل، ولا تكتمل هذه الهوية إلا عندما يؤدي الفرد طقوس الدخول إلى العالم العنكبوتي وينسج خيوط اتصالاته وتواصلاته عابرا لكل القارات الخمس ومبحرا في أعماق العالم الافتراضي في زمن اللايقين.

فالأزمنة الجديدة والراهنة وما تفرضه من تغيرات وتحديات خاصة مع تغول زمن العولمة، تجعل من الهوية تتحول إلى عبء ثقيل تحد من قدرة الإنسان على الإفادة من الفرص المتاحة أمام سيطرة عالم استهلاك الأشياء (Zygmunt Bauman, 2004, p: 51–53.). الشيء الذي يزيد من معاناة البشرية الهوياتية، فالهوية تنتقل من النقدية والرتابة على مستوى القيم الثابتة والقطعية إلى هوية متعددة بأربعين وجها (داريوشايغان، هوية بأربعين وجها،2016، ص: 122).

لقد أصبح عصر الإنسانيات الرقمية، يربط الفرد بالأنشطة الافتراضية وبالعوالم السيبيرانية أكثر من أي وقت مضى متجاوزا بذلك الحدود الزمكانية، الشيء الذي جعل الفضاء السيبراني يدفع الفرد إلى اصطناع هويات افتراضية تؤدي به للاغتراب الهوياتي داخل المجتمع. ■

المراجع و المصادر

- بنيس، محمد.الحداثة المعطوبة. دار توبقال للنشر، ط 2، الدار البيضاء، المغرب، 2012.
- بول،باسكون."تكوين المجتمع المغربي". تعريب: أحمد حمايمو.مجلة المشروع، ع: 4، مطبعة دار النشر المغربية، الرباط، يونيو 1981.
- تورين، آلان. نهاية المجتمعات. تر: عبد الرحيم حزل، دار الأمان، دون ذكر الطبعة، الرباط، المغرب، 2017).
- داريوش،شايغان. هوية بأربعين وجه.دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، تونس، 2016.
- الزياني، عبد العاطي."الكتابة وفضاء الهامش".مجلة الثقافة الجنوبية. العدد:7، منشورات القصبة، المغرب، يناير 2017.
- العطري، عبد الرحيم.أنثروبولوجيا الحج الإسلامي: من التجربة الدينية إلى النقد المنفتح. منشورات باب الحكمة، ط1، تطوان، المغرب، 2021.

المراجع و المصادر

- غيدنز، أنتوني.علم الاجتماع. تر: وتقديم الدكتور فايز الصياغ. المنظمة العربية للترجمة، مؤسسة الترجمان توزيع: مركز دراسات الوحدة العربية، ط1 أكتوبر 2005.
- ميج، بيرنار.الفكر الاتصالي من التأسيس إلى منعطف الألفية الثالثة. تر: أحمد القصوار. دار توبقال للنشر، ط1، الدار البيضاء، المغرب، 2011.
- هيلز، جون ولوغران، وجوليان وبياشو، دافيد.الاستبعاد الاجتماعي: محاولة للفهم. تر: وتقديم محمد الجوهري. سلسلة عالم المعرفة، ع: 344، الكويت، أكتوبر 2007.
- ويبر، إدغار."الثقافات ومسار تطور العولمة".تـر:عبد الرحمن بوعلي.مجلة ضفاف، العدد: 4، وجدة، المغرب، ماي 2003.
- اليحياوي، يحيى. احتقار الديموقراطية: دراسات في آليات الاستبداد الجديد. منشورات عكاظ، د. ط، الرباط، المغرب، مارس 2005.

- Allan, Martin."Digital Literacy for the Third Age: Sustaining Identity" in an Uncertain World, eLearning Papers, Nº 12. February2009. pp: 1-15.
- Amar,Kanekar and Joseph,Otundo."Ethical, privacy, and confidentiality issues in the use and application of social media". Chapter 7. Effective Use of Social Media in Public Health. 2023. pp.145-167.
- Digital Global Overview Report.Simon Kemp."Digital 2024: Morocco". 23 February 2024. Accessed on: 10/01/2025. At: https://bit.ly/4avLDwl
- Ederyn, Williams and Raymond, Williams.Television: Technology and cultural form.London, England: Routledge.2nd Edition,1990.
- Lefebvre, Henri. Critique of everyday life (Vol. 1). London, England. First published by Verso 1991. This edition published by verso 2008.
- Madeleine,Grawitz.Méthodes des sciences sociales, Paris, éditions dalloz. 9 éme édition, 1993.
- Olga,Kyslova and Ekateryna,Berdnyk."New media as a formation factor for digital sociology: the consequences of the networking in the society and the intellectualization of the communications". Studies of Changing Societies: Comparative and Interdisciplinary Focus, Vol. 3'(7). 2013. pp. 67-106.
- Rantanen, Terhi."The message is the medium: an interview with Manuel Castells", Global media and communication, Vol. 1 (2), 2005.pp.135-147.
- Simmel, Georg. On individuality and social forms. Chicago, IL: University of Chicago Press, 1971.
- Stuart, Hall. "Cultural studies: Two paradigms". In J. Storey (Ed.), What is cultural studies? A reader. London, UK: Arnold.1996, pp. 25–244.
- van Dijck, J. The culture of connectivity. Oxford, UK: Oxford University Press,2013.
- William H. Sewell Jr. Logics of history:Social Theory and Social Transformation. Chicago, IL: University of Chicago Press,2005
- Zygmunt, Bauman.Identity: Conversations with Benedetto Vecchi, Cambridge; Malden, MA: Polity Press, 2004.

القيم الاجتماعية في الفيسبوك

بين تقديم الذات وتحقيق رأسمال اجتماعي

مراجعة استكشافية

مونية المنصور

باحثة في الصحافة والإعلام

الملخص

إنّ المتتبع للظروف الاجتماعية السائدة يدرك أنّ استخدام مواقع التواصل الاجتماعي قد أثّر على البناء الاجتماعي كما أدّى إلى انتشار سريع ومؤثر لأنماط مختلفة من القيم طالت أسلوب العيش من ملبس ومطعم وترفيه، وهي تحمل كلها رؤية مختلفة للعالم. وتعدّ وسائل التواصل الاجتماعي رافدا أساسيا وركيزة مهمة في بناء حياة الإنسان على أصعدة شتّى، وضمنها المساهمة في تطوير قدراته التفاعلية ممّا أحدث تغييرات في سلوك الفرد وقيمه واتجاهاته.

تركّز هذه الورقة البحثية على علاقة تقدير الذات باستخدام الفيسبوك على ضوء مجموعة من الأبحاث التي حاولت استنتاج سمات شخصية المستخدم انطلاقا من مجموعة المتغيرات التي تدخل في طريقة استعماله لهذا الوسيط الاجتماعي، و أشكال تفاعله وفي المحتوى الذي ينشره، منطلقين في ذلك من ثلاثة عناصر أساسية تشكّل خاصيات كبرى للفيسبوك وهي الصورة والإعجاب والتعليق، متسائلين عمّا إذا كان يخدم الفيسبوك القيم التي تدعم تقدير الذات أم يساهم في تدنيها وعلاقة ذلك ببناء رأسمال اجتماعي. وقد تمّ اختيار الفيسبوك على اعتبار شعبيته وانتشاره حسب الإحصائيات المدلى بها، وفقا للتقرير العالمي (Kemp, 2021) وصل عدد المستخدمين النشيطين للشبكات الاجتماعية في العالم نحو4,2 مليار مستخدم مع بداية سنة 2021، حيث ارتفعت نسبة انتشار الخدمة إلى نحو 53,6 في المائة من إجمالي سكان العالم المقدر عددهم بنحو 7,8 مليار نسمة.

كلمات المفاتيح؛

شبكات التواصل الاجتماعي- الفيسبوك - تقدير الذات - رأسمال اجتماعي.

Abstract

Those who follow the prevailing social conditions realize that the use of social media has affected the social structure and has led to the rapid and influential spread of different patterns of values that affect the way of life, including clothing, food and entertainment, all of which carry a different worldview. Social media is an important pillar in building human life on various levels, including contributing to the development of its interactive capabilities, which has led to changes in individual behavior, values, and attitudes.

This paper focuses on the relationship between self-esteem and the use of Facebook in light of a set of researches that tried to deduce the personality traits of the user based on the set of variables that go into the way he uses this social medium, the forms of interaction and the content he publishes, starting from three basic elements that constitute major characteristics of Facebook, namely the picture, the like and the comment, asking whether Facebook serves the values that support self-esteem or contributes to its decline and its relationship with the construction of social capital. Facebook was chosen due to its popularity and spread according to statistics according to the global report (Kemp, 2021). The number of active users of social networks in the world reached about 4.2 billion users at the beginning of 2021, as the penetration rate of the service increased to about 53.6 percent of the world's estimated 7.8 billion people.

Keywords :

Social Networking - Facebook- Self-Esteem-Social Capital.

لقد تحوّل الافتراضي بصفة عامّة إلى وجود حقيقي في حياة الناس بهوياته ومساحاته، مغيرا علاقتنا بالزمان والمكان، بل بعلاقة الإنسان بذاته وبذوات الآخرين، واضعا إيانا أمام هوية جديدة موزعة على فضاءات لا يمثل فيها الجانب الواقعي سوى دور بسيط، وهو في الحقيقة لا يعدو أن يكون عبور نحو عالم افتراضي لا متناه.

لماذا الفيسبوك؟

أصبح حرف f الصغير رمزا ثقافيا جديدا، وأصبح عالم زوكربيرغ الأزرق هو المظهر الثقافي لما بعد الحداثة، واليوم أضحى الفيسبوك من أكبر المساحات الافتراضية وأكثرها شعبية بأزيد من 223 مليار مستخدم نشيط شهريا يساهمون في بناء ثقافة جديدة وتنشئة رقمية مختلفة، مبنية على استخدام رموز تعبيرية تحيل على المشاعر في لعبة الإعجاب والتعليق ومشاركة نمط الحياة ,IslamKhan,2018 p71)).

يعدّ الفيسبوك المنصة الأكثر شعبية وسط شبكات التواصل الاجتماعي، بل هو الموقع الأول بينها اعتبارا من ماي 2011، حيث يبلغ عدد زواره 157,2 مليون زائر شهريا، متقدما بذلك على منصة إكس الذي يبلغ عدد زائريه 27 مليون زائر كل شهر(Nadkarni, 2011, p1).

وقد ظهر الفيسبوك في الأصل لخدمة مجتمع محدّد جغرافيا وهو جامعة أمريكية، حيث كانت العضوية مقتصرة فقط على الأشخاص الذين يتوفرون على بريد إلكتروني خاصا بالمؤسسة، وكان ذلك عام 2004، وبحلول سنة 2007 تم الإبلاغ عن وجود أكثر من 21 مليون عضو مسجّل على الموقع، ممّا أدى إلى توليد 1,6 مليار مشاهدة يومية للصفحات.وقد تمّ دمج الموقع بإحكام في الممارسات والعادات اليومية لمستخدميه، حيث يقضي المستخدم العادي حوالي عشرين دقيقة يوميا على الموقع، ويقوم ثلثا المستخدمين بتسجيل الدخول مرة واحدة على الأقل يوميا. سنة 2006، استخدم الفيسبوك بأكثر من ألفي كلية في الولايات المتحدة الأمريكية، وكان الموقع السابع الأكثر شعبية على شبكة الويب العالمية فيما يتعلق بإجمالي عدد مرات مشاهدة الصفحة(Ellison,2007,p 1144).

وقد أسال هذا الوسيط التواصلي الاجتماعي الكثير من المداد لدى الأكاديميين والدارسين الذي حاولوا سبر أغوار شخصية المستخدم نفسيا واجتماعيا وثقافيا انطلاقا من طبيعة الاستعمال واستقراء الصفحة الشخصية وأشكال التفاعل داخل فضاء متّسم بالمرونة والسيولة والحرية، في ظل إحصائيات تشير إلى أنّ الفيسبوك يسبب الإدمان ويستهلك الكثير من الوقت، إذ يقضي المستخدم في الشبكات الاجتماعية وقتا يصل متوسطه إلى ساعتين وخمسة وعشرين دقيقة، وقد كان لأزمة كورونا وما تلاها من تداعيات وإجراءات حدّت من حركة الناس الأثر الكبير على زيادة استخدام الأنترنيت عموما ووسائط التواصل الاجتماعي خصوصا، حيث استقبلت خلال سنة 2020 ما يقارب نصف مليار مستخدم نشيط جديد.

الفيسبوك: كتاب قراءة الشخصية

حاولت معظم الدراسات الحديثة حول وسائط التواصل الاجتماعي فهم سلوك المستخدمين لها كعملية اجتماعية تفاعلية مع الآخرين ، وقد تمكّنت بالفعل العديد منها من استنتاج شخصية المستخدم عبر شبكة من الرموز

والعلامات على مواقع التواصل الاجتماعي، الأمر الذي أثّر بشكل مباشر على أبحاث الذكاء الاصطناعي، في إطار التنبؤ بشخصية المستخدم بغضّ النظر عن طبيعة نشاطه الرقمي.

وقد ربطت العديد من البحوث بين الفيسبوك وبناء الصورة الاجتماعية وزيادة التأثير الاجتماعي للفرد، كما أفادت دراسات أخرى أنّ عرض الذات يرتبط بشكل إيجابي بالحساسية الاجتماعية، فعندما يتعرّض الأفراد عموما لمحفزات مثل استعراض صورهم أو النظر في المرآة يزداد وعيهم بأنفسهم، وبالتالي يكونون أكثر قلقا بشأن أحكام الآخرين عن أنفسهم، ويصبحون بالمقابل أكثر وعيا بالمعايير والقواعد الاجتماعية، وبذلك يمكن القول إنّ مشاركة صور السيلفي من شأنها أن تزيد من الحساسية الاجتماعية (Shin, 2017, p142).

توفرّ مواقع التواصل الاجتماعي عموما ثلاثة إمكانيات: إنشاء ملف شخصي، التحكم في قائمة المستخدمين الذين يرغب صاحب الملف مشاركة الاتصال معهم، ثمّ تتبع وعرض الاتصالات الفردية التي يقوم بها الآخرون. وقد خلصت دراسات حول تقدير الذات واستخدام الفيسبوك، الذي تحركه حاجتان اجتماعيتان رئيسيتان تحفزان على استخدامه، قد تحضر واحدة وتتوارى الأخرى كما قد تتوفران معا . أولاهما الرغبة في الإنتماء وهو دافع داخلي للتواصل مع الآخرين وكسب القبول الاجتماعي وتساهم فيه شروط ديموغرافية وثقافية إضافة إلى السمات الشخصية للفرد. والثانية هي الرغبة في تقديم الذات وهي عملية مستمرة لإدارة الانطباعات. وقد رصدت الدراسات التي وقفت عند محاولة فهم العلاقة بين طريقة استعمال الفيسبوك وسمات المستخدم مجموعة من المميزات النفسية والاجتماعية من قبيل النرجسية والانطوائية والخجل وتقدير الذات وغيره، على اعتبار وجود روابط وطيدة بين الشخصية وطريقة استعمالها للفيسبوك، كالمنفتحين الذين أثبتت دراسات أنهم يقيمون علاقات صداقة أكثر على الأنترنيت، ويشاركون أكثر صورهم ومقاطع فيديو، إلاّ أنّهم ينالون إعجابا وتعليقات أقل مقارنة مع عدد الأصدقاء الذين يتوفرون لديهم ، كما أنّهم يكونون أكثر تعبيرا عاطفيا ويتصرفون بشكل ينزع نحو الاستعراض، ويميلون إلى ارتداء ملابس أكثر أناقة، وكلّما قاموا بتحميل صور أكثر كلما كشفوا عن ذواتهم الحقيقية التي تبدو في الصور من خلال سرد قصص الحياة ولو كانت وهمية أو غير حقيقية (Eftekhar,2014,p 172) ، إضافة لذلك يشارك المنفتحون معلومات أكثر ويميلون إلى الانخراط في الأنشطة الاجتماعية على الفيسبوك، مقارنة مع الأقل انفتاحا أو الانطوائيين، أو الخجولين الذين يتوفرون على قائمة محدودة من الأصدقاء، أولئك الذين يميلون إلى كتابة منشورات طويلة ويستعملون مصطلحات ذات حمولة سلبية ويكونون على استعداد لمشاركة تجاربهم السيئة بالتفصيل. أو النرجسيين الذين يتسمون بالترويج الذاتي المفرط من خلال الصور وملفات التعريف (Nadkarni, 2011, p9)، إلاّ أنهم ينجحون في الحصول على الدعم الاجتماعي أكثر حيث يحصلون على تعليقات كثيرة (Shen,2015,p 40).

يعرّف تقدير الذات في علم النفس على أنّه التقييم الإيجابي أو السلبي للذات، وقد أشارت العديد من النظريات إلى أنّ الحفاظ على هذا التقدير ورفعه هو حاجة أساسية للإنسان، وقد وجدت معظم الدراسات أنّ الأشخاص الذين يتمتعون بتقدير ذاتي أقل يقضون وقتا أطول على فيسبوك، وقد تمّ تفسير ذلك بكون الأشخاص الذين يواجهون صعوبات في تشكيل علاقات اجتماعية يكونون أكثر تحفيزا لاستعمال هذه الشبكات كتعويض عن الفشل. ومع ذلك ومن منظور معاكس، وجدت دراسات قليلة أدلة على أنّ الأشخاص الذين يتمتعون بتقدير إيجابي للذات يمضون وقتا أطول على الفيسبوك، معتبرة أن الأشخاص النشيطين اجتماعيا والذين يتمتعون بمستويات عالية من تقدير الذات يميلون إلى استخدام مواقع التواصل الاجتماعي كوسيلة لتوسيع شبكة علاقاتهم الاجتماعية بشكل أكبر (Bergagna, 2018, p831).

ولعلّ عدم تناسق الأدبيات في هذا الشأن، يرجع لكون أغلب الدراسات تناولت الفيسبوك في كليته دونما الوقوف بشكل مدقّق عند التمييز بين مختلف طرائق الاستعمال أو دوافع الاستخدام والتي تمّ تلخيصها في ثلاثة دوافع رئيسة وهي:

- التفاعل الاجتماعي
- محاكاة صور ذاتية
- البحث عن العلاقات

تساهم وسائط التواصل الاجتماعي في تنمية أنماط سلوكية جديدة قد تتعارض مع القيم الاجتماعية السائدة وقد تساهم في توسيع الفجوة بين الفرد وأسرته والزج به في عزلة نفسية واجتماعية، حيث أكّدت دراسات على أنّ الاستخدام المفرط للانترنيت يؤثر بشكل كبير وسلبي على قدرة الفرد على التفاعل، عكس دراسة أجريت سنة 2021 على مجموعة من الشباب السعودي بينت أنّ هناك تأثير إيجابي لوسائط التواصل الاجتماعي بخصوص تعزيز قيم الاعتدال والوسطية المتعلقة بالانفتاح على التنوع الثقافي الذي تتيحه هذه الوسائط، بل وتعزيز مشاركة جميع شرائح المجتمع في مختلف القضايا واكتساب قيم التسامح واحترام التنوع والاختلاف وخلق التوازن بين مصلحة الفرد ومصلحة الآخرين (AlAsmari,2021, p6-10).

ولأنّه أضحى جزءا لا يتجزّأ من نسيج حياتنا الاجتماعية، فإنّ الفيسبوك يوفّر بيئة مثالية لدراسة كيفية تقديم الناس لأنفسهم. يتيح هذا الوسيط الاجتماعي خاصية تقديم الذات انطلاقا من صورة الملف الشخصي، وتعكس ملفات تعريفه معالم الشخصية عموما للمستخدمين والتي تدخل فيها اختيار الصورة الشخصية للملف وعدد الأصدقاء وطبيعة المعلومات الشخصية المنشورة، والتي تقود إلى تحقيق جاذبية اجتماعية وتشكيل الانطباع المرغوب فيه لدى المستخدم.

في ذات المضمار، أظهر سيدمان(2013) أنّ المستخدمين ذوي الضمير الحي هم الأكثر حذرا بشأن تقديم أنفسهم على الفيسبوك وهم الأقل ميلا للانخراط في أنشطته.

بالرغم أنّ العلاقة بين تحديد معالم الشخصية واستخدام الفيسبوك تبدو معقدة وقد تتأثر بالعوامل الثقافية والاجتماعية، إلاّ أنّنا سنقف عند مجموعة من المتغيرات التي استند عليها الباحثون في تحليل الشخصية من خلال الصفحة على الفيسبوك، باستحضار مجموعة من العناصر المرتبطة بالصورة الشخصية والمعلومات المشاركة مع الأصدقاء، انطلاقا ممّا توفّره شبكات التواصل الاجتماعي وبينها فيسبوك من أشكال التغذية الراجعة بين الجمهور والناشر كالإعجابات والتعليقات والرسائل الخاصة. فما القيمة الاجتماعية لهذه السلوكات؟

لغة الفيسبوك

يستخدم الأفراد جميع أشكال الاختصارات والمصطلحات الجديدة للتعبير عن رسائلهم وآرائهم وأفكارهم، حتى أنّ الشباب اخترعوا لغة رقمية يهمين عليها الإيموجي في إطار نظام دلالي يتطلّب استخدام الإشارات والرموز المتفق عليها لنقل المعنى من شخص لآخر، وهو ما يعتبره البعض ترديا لغويا وانحرافا تربويا يؤثّر سلبا على عادات المستخدمين اللغوية الذين يمكن أن تتولّد لديهم مهارات لغوية ضعيفة، ويدقّ ناقوس الخطر على المنظومة التربوية، في حين أن نظرية الحتمية التكنولوجية لثورنستين فليبين (1829) تفترض أنّ تكنولوجيا المجتمع هي التي تحدّد تطور هياكله الاجتماعية وقيمه الثقافية (Nwala,2019, p12). حيث إنّ استخدام اللغة لا يهدف فقط إلى التواصل مع الآخرين، بل الحفاظ على مجموعة من الروابط الاجتماعية، والإحساس المشترك

بالقيم الجماعية.

إعجاب أم تعليق

يوفّر الفيسبوك بيئة تحرّض المستخدمين على سلوك تفاعلي نشط يوفّر كتابة التعليقات أكثر من أي وسيط اجتماعي آخر والتي قد يميل فيها المستخدمون إلى الإعجاب أكثر كالأنستغرام مثلا، علما أن الإعجاب ميزة تواصل شائعة جدا على الفيسبوك أيضا، من خلاله يمكن نقل رسائل مختلفة، ودلالتها الحرفية هي كلمة أعجبني، وقد تلعب ميزة الإعجاب دورا محوريا في تعزيز الصداقات عبر الأنترنيت، كما قد يشير الإعجاب إلى الاستمتاع أو الموافقة أو الاهتمام وتسجيل الحضور(Eftekhar,2014,p.172). تعمل الإعجابات كإشارات اجتماعية للقبول والحفاظ على العلاقات الشخصية، فهل المستخدم على الفيسبوك الذي يحصل على المزيد من الإعجابات لمنشوراته يكون أكثر تأثيرا من الشخص الذي يحصل على عدد أقل من الإعجابات؟ وما القيمة الاجتماعية التي تحملها الإعجابات على الفيسبوك؟

قامت دراسات بفحص مواقف الناس وسلوكياتهم المتعلقة بتلقي ردود الفعل على وسائل التواصل الاجتماعي، وقد وجدت أنّ الناس بشكل عام يهتمون بمن يعجب بمنشوراتهم أكثر من عدد الإعجابات التي يتلقونها، ويرغبون في الحصول على تعليقات أكثر من الأصدقاء المقربين. اعتبر الأفراد الذين لديهم مستويات أقل من تقدير الذات أكثر عرضة للاعتقاد بأن الإعجابات ذات أهمية كبيرة، لذلك فإنهم يستاؤون عندما لا يتلقوا ما يكفي منها (Shahabaznozhad,2020,p 1501).

ينظر إلى الإعجاب والتعليق وغيرهما كوسيلة سهلة للحفاظ على التواصل من لدن الأقارب والأصدقاء لا سيما البعيدين منهم الذين يتفاعلون في الصفحة دون كبير عناء، لذلك تكون تفاعلاتهم بمثابة الإعلان والتأكيد عن الحضور الرقمي للشخص، وقد تقدّم إشارات على الدعم والتوافق في الرأي .من جهة أخرى قد ينظر إلى الإعجابات على أنّها أقل شأنا لأنها سهلة الإنتاج مقارنة مع التعليقات أو المنشورات المباشرة على الحائط. وقد تشير الإعجابات التي يتلقاها الشخص إلى شعبيته أو تمتعه بمميزات خاصة، لذلك يمكن أن تعتبر مؤشرا على القبول الاجتماعي(Shahabaznozhad,2020,p 1502). في ذات السياق، يصف الحباشتيال Al habashetal (2013) الإعجاب بكونه فقط استجابة عاطفية، في حين أنّ التعليق مشاركة ايجابية تمثّل سلوكيات نشيطة، واعتبر النقر وقراءة المحتوى دون تفاعل أمثلة على سلوكيات المشاركة السلبية في وسائط التواصل الاجتماعي.

ويهتمّ الأشخاص الذين يعانون من تدني تقدير الذات أكثر بتلقي الإعجابات، لأنّهم يرون فيها إشارات اجتماعية تدخل في خانة تقدير الذات، ويعتبرونها دليلا على تصرفهم بشكل مناسب في بيئة رقمية، لذلك فإنّ طبيعة الشخصية تؤثر على تمثل الفرد لتلقي الإعجابات أو التعليقات، وأنّ ما قد يكون إشارات بلا دلالة بالنسبة للبعض، يعتبره البعض الآخر إشارات اجتماعية مهمة تدفعة لتقدير ذاته.

الصورة:

تعدّ مواقع التواصل عموما مكانا لعرض الذات والصور التي يتمّ تحميلها بشكل يساير إيقاع الحياة اليومية، لذلك وجد الباحثون في الصور مؤشرات جيدة للتنبؤ بالسمات الشخصية لمستخدمي فيسبوك من منطلق أنّها تعبير عن خصائص كامنة من حيث الأفكار والمشاعر والأفعال يمكن أن تقدّم تقييمات عن الشخصية(Shen,2015,p 33).

وتحصل غالبا المنشورات النصية المقرونة بصور على إعجابات أكثر مقارنة بالمنشورات النصية وحدها، في حين أن الصورة الشخصية تجذب الانتباه أكثر وتحصد على أكبر عدد من الإعجابات (Basalingappa,2016,p24).

تشكّل الصورة الشخصية في الفيسبوك وسيلة لتقديم الذات وعرضها للحفاظ على التواصل البصري مع الأصدقاء في زمن أصبحت فيه الثقافة البصرية جزءا لا يتجزأ من الحياة الاجتماعية الحديثة، كما أنّ تصفّح الصور على الأنترنيت عموما يعدّ النشاط الترفيهي الأكثر شيوعا على الأنترنيت، متجاوزا الاستماع إلى الموسيقى(Eftekhar,2014,p 162). فبعد سبع سنوات على إطلاقه، تمّ تحميل حوالي 265 مليار صورة على الفيسبوك، لذلك عملت هذه المنصة على تطوير مجموعة من الخاصيات التي تستجيب لهذا الإقبال بل وتشجّعه، كتسهيلات الوسم الجديدة التي تحفّز على وضع علامات على المزيد من الصور. ولإغراء المستخدمين أكثر يستخدم الفيسبوك استراتيجيات تواصل مختلفة بطرح أسئلة من قبيل: مع من كنت؟ أو اقتراح أسماء الأصدقاء الذين سيتمّ وسمهم عبر خاصية التعرّف على الوجه، الذي تتمّ فيه مطابقة نموذج مصمّم مسبقا لوجه المستخدم تلقائيا مع الصور التي تمّ تحميلها حديثا.

وقد خلصت دراسات أنّ الأفراد الأكثر رضا عن علاقاتهم الاجتماعية هم الأكثر عرضة لنشر صور لأنفسهم مع شريكهم كصورة رئيسية لملفاتهم الشخصية، وأنّ الأفراد الذين يعانون من النرجسية العالية هم الأكثر عرضة للانخراط في الترويج للذات على الفيسبوك. (Muise,2013,p 415).

في حين توصّلت دراسات أخرى أنّ العصابيين (المزاجيين) يقومون بتحميل المزيد من الصور الشخصية بشكل كبير، وينخرطون بشكل فعال في الإفصاح العام عن الذات وعرض جوانب من شخصيتهم الظاهرة والخفية من خلال ملفاتهم الشخصية، حيث ينظرون إلى الفيسبوك كملاذ آمن للتعبير عن الذات، ممّا يسمح لهم بالتعويض عن مختلف أوجه النقص والحرمان والتهميش التي يعانون منها خارج الفضاء الرقمي. (Eftekhar,2014,p 165). في ذات السياق، توصّلت إحدى الدراسات إلى أن المستخدمين الذين لا يتمتعون باستقرار عاطفي كانوا أكثر قابلية لتحميل صور ذاتية (Yang,2019).

تتيح مواقع التواصل الاجتماعي للمستخدمين فرصة تصوير أنفسهم بحرية أكبر، ويكتسب الناس انطباعا عن المستخدم استنادا إلى ملفه الشخصي والمحتوى وتفاعلاته مع أصدقائه. حيث يتوخّى المستخدمون عموما تحقيق القبول الاجتماعي عبر وسائط التواصل الاجتماعي، والسعي جاهدين إلى إظهار صورة إيجابية عن أنفسهم، لذلك يهتمّون بالطريقة التي يديرون بها تقديم أنفسهم، فهم يتحدثون عن أنفسهم بشكل عام بعبارات إيجابية، ويتجنبون الأحاديث السلبية، وقد أظهرت دراسة واسعة النطاق أنّه كلما كان المستخدم محبوبا أكثر كلما ازدادات احتمالية الإشارة إليه في صور الفيسبوك وهو المعروف بخاصية (TAG Eftekhar,2014,p 166).

السيلفي أو هوس المظهر

تمثّل صور السيلفي استراتيجية شائعة لعرض الذات على وسائل التواصل الاجتماعي، تعطي الانطباع على الانفتاح ومجاراة كل ما هو جديد، على اعتبار أنّ نشر الصور العادية يمكن أن ينظر إليها كشأن قديم أمام الظاهرة الجديدة المسماة سيلفي. يدفع السيلفي المستخدمين إلى تقديم النسخ الأكثر جاذبية عن أنفسهم للآخرين من أجل ترك انطباع إيجابي، حيث يميل المستخدمون عادة إلى التقاط الصور الشخصية من زوايا مريحة باستخدام إضاءة ملائمة، وقد يلجؤون إلى تصحيح الألوان أو تعديل البشرة عن طريق الفوتوشوب لجعل الجسم يبدو أنحف أو أطول... وبذلك يتمكّن مستخدمو هذه الوسائل من إدارة الانطباعات التي يودون تركها لدى الآخرين من خلال تقديم أنفسهم بعيوب أقل .

ووفقا لقواميس أكسفورد، فإنّ كلمة عام 2013 هي سيلفي، وقد تمّ تصميم هذه الكلمة لوصف فعل التقاط الصور الذاتية ومشاركتها على وسائل التواصل الاجتماعي، فقد أصبح التقاط الصور الذاتية أمرا شائعا مع ظهور الأجهزة الذكية المختلفة.

أظهرت مجموعة من الدراسات التي بحثت عن علاقة السمات الشخصية بصور السيلفي الملتقطة معتبرة هذه الصور أداة فعالة لتقديم الذات وفق مفهوم مستخدمي هذه الوسائط المثالي للذات. وقد اختبرت دراسات أخرى التقاط الصورة بميزة السيلفي مع أو بدون تنقيح الصورة في علاقة بتغيرات المزاج، لذلك ركّزت دراسات على قياس الحالة المزاجية قبل وبعد التلاعب بصورة الجسد. في هذا الباب أفادت نساء التقطن صور السيلفي ونشرنها على وسائل التواصل الاجتماعي بأنّهن شعرن بمزيد من القلق ونقص في الثقة وفي الجاذبية الجسدية، وقد وجدت ذات الآثار السلبية حتى عندما أتيح لهؤلاء النساء إعادة التقاط صور السيلفي وتنقيحها. خاصة أنه قد تم الانتباه أنّ النساء على وجه الخصوص يقمن بتحميل الصور على مواقع التواصل الاجتماعي بشكل متكرّر مقارنة بالرجال، ويقضين وقتا أطول في تحديث وإدارة وصيانة ملفاتهن الشخصية (Mills,2018,p 86). وعليه، فإنّ سلوك نشر السيلفي يمكن توقّعه أكثر من الإناث اللواتي يبذلن جهدا أكبر في إدارة الانطباع من خلال صورهن الذاتية، لذلك غالبا ما يبدين فيها مبتسمات (Kramer, 2017, p2)).

وقد وثّقت دراسات مختلفة انتشار

عدم الرضا عن الجسم والوزن على نطاق واسع بين الفتيات والنساء، وقد تبيّن أنّ وسائل التواصل الاجتماعي تشكّل لحظة لـبروز هذه المخاوف المتعلقة بالمظهر، بالنظر إلى ما تتيحه هذه الوسائط من فرص للمقارنة الاجتماعية، ممّا يخلق عدم الرضا عن الجسد لا سيما وأنّ هذه الوسائط تقدّم صورا عن الجسد المثالي الرشيق والمتناسق، ويتمّ عرضه على أنّه طبيعي ومرغوب فيه ويمكن تحقيقه لكل امرأة. لذلك غالبا ما تسعى النساء اللواتي تستخدمن هذه الوسائط لتحقيق معيار هذا الجمال غير الواقعي وغير الطبيعي، وعندما يفشلن في ذلك يشعرن بالخجل، وقد أظهرت الدراسات عموما أنّ التعرض المتكرّر للإنترنيت ولوسائط التواصل الاجتماعي خاصة يؤدي إلى مستويات عالية من عدم الرضا عن صورة الجسد (Mills,2018,p 88).

تعدّ وسائط التواصل الاجتماعي مرتعا خصبا للمقارنات الاجتماعية، لأنّها تتيح للناس أن يعرضوا أنفسهم ويتلقوا ردود أفعال إزاء ذلك ويتفاعلوا معها Shin, 2017, p140).إنّ الأفراد يستخدمون وسائط التواصل الاجتماعي من أجل بناء مفاهيمهم الخاصة في المقارنة الاجتماعية والتقييم الـذاتي، حيث يكون الناس عموما حساسين تجاه ملاحظات الآخرين، ويعمدون إلى تفسير المعلومات بشكل شخصي بناء على مشاعرهم وانفعالاتهم وحالتهم الذهنية ووجهات نظرهم.

يميل الأفراد إلى مقارنة أنفسهم بالآخرين من حيث القدرات والخصائص الشخصية وقد كان فيستنجر (1954) أول من نظّر بأنّ مقارنة الـذات بالآخرين هي حاجة إنسانية أساسية لاكتساب معطيات عن الذات، وغالبا ما يهتم الأفراد الذين يعانون من تدني احترام الذات أو الذين تكتنف تصوراتهم عن ذواتهم بعض التشويش أو عدم التأكيد إلى إجراء مقارنات اجتماعية (Bergagna, 2018, p833).

يمثّل الفيسبوك واحـد من الأدوات للمقارنة الاجتماعية داخل الفضاء الرقمي، فيعمد الأشـخـاص إلى مقارنة أنفسهم بـالآخـريـن بـنـاء عـلـى عـدد الإعجابات وأنـواع التعليقات التي نشرها الآخرون على حالاتهم وصورهم، فيكونون عرضة لتدفق مستمر من المعلومات ممّا يجعلهم يشعرون بأنهم أفضل أو أسوأ.

ويعدّ ارتفاع عدم الرضا عن الجسم بـين النساء عامل خطر رئيس لتطور اضطرابات الأكل وانخفاض تقدير الذات والسقوط في الاكتئاب بسبب القلق المتزايد على المظهر والتخوف من التقييم السلبي للآخرين.

وعلى صعيد آخر، فقد تبين أن النرجسية ذات صلة بكل من إنتاج الصور وإدراكها، حيث صنفت دراسة أنّ الأشخاص في صور السيلفي أقل جدارة بالثقة وأقل جاذبية اجتماعيا، وأقـل انفتاحا على التجارب الجديدة (Kramer, 2017, p4).

ساهمت الصورة الشخصية وضمنها السيلفي في تنميط قيمة الجمال بسبب التحسينات التي تتيحها التطبيقات والتي تميل إلى تفضيل شكل أنف معين، وبشرة زجاجية صافية، وشكل فك محدد، وشفاه معينة، فيتحول الجسد إلى مادة استعراضية افتراضية بامتياز.

الـفـيـسـبـوك رأسـمـال اجتماعي:

يعرّف بوريو وواكانت (1992) رأس المال الاجتماعي بأنّه مجموع الموارد الفعلية والافتراضية التي تتراكم لفرد أو مجموعة بحكم امتلاك شبكة دائمة من العلاقات الاجتماعية والمؤسساتية، ويمكن أن تختلف المـوارد من حيث الشكل والوظيفة بناء على طبيعة هذه العلاقات. وقد تمّ ربط رأس المال الاجتماعي بتحصيل مجموعة من النتائج الإيجابية، مثل تحسين الصحة العامة وانخفاض معدلات الفقر وتحقيق الكفاءة في الأسواق المالية، وعندما ينخفض رأس المال الاجتماعي، فإنّ المجتمع يعاني من زيادة الاضطرابات الاجتماعية وانخفاض المشاركة في الأنشطة المدنية والسياسية، بل واحتمال فقدان الثقة في مؤسسات المجتمع كلها. بالمقابل، يزيد رأس المال الاجتماعي في تحقيق شرط الالتزام تجاه قضايا المجتمع والقدرة على التعبئة بخصوص الأعمال الاجتماعية.

وقد وجد الباحثون الذين اشتغلوا على مفهوم رأسمال الاجتماعي أنّ أشكالا مختلفة منه رأس ، بما فيها المرتبطة بالأقارب والجيران والأصـدقـاء ترتبط بما أسموه بالرفاه الاجتماعي والمتعلّق باحترام الذات والرضا عن الحياة، لأن هؤلاء قادرين على تقديم الدعم العاطفي. Ellison,2007,p 1165)).

يميز بوتنام (2000) بين رأس المال الاجتماعي الذي يمثل جسرا فقط bridging ، وبين رأس المال الاجتماعي المتماسك العرى bonding. فإذا كان النوع الأول يدخل في خانة العلاقات الفضفاضة أو العابرة التي لا يحصل فيها الدعم العاطفي، بالرغم من تقديمها لمعلومات قد تكون مفيدة، فإن النوع الثاني يحرص على إرساء روابط قوية ومتماسكة كتلك التي تجمع بين الأقارب والأصدقاء. (Ellison,2007,p 1146). بالمقابل، اعتبر الأنترنيت بشكل عام انتقاص من الوقت الذي يقضيه الفرد مع الآخرين وجها لوجه ممّا يسبب في تآكل رأسمال الاجتماعي للفرد، حيث أثبتت دراسات أنّ الوقت يضيع أحيانا بسبب الانخراط في أنشطة التصوير المتعلقة بالمظهر نتيجة تعاظم مخاوف بشأن صورة الجسد وتدني احترام الذات في اجراء مقارنات بين مظهرهم ومظهر باقي الأصدقاء (Mills,2018,p 87). علما أنّ مجموعة من الدراسات خلصت إلى أن التفاعلات التي تتمّ عن طريق الأنترنيت كان لها تأثير إيجابي على التفاعل والمشاركة الاجتماعية.

فهل يوفّر الأنترنيت روابط قوية من حيث إنّه يوفّر للناس تواصلا سلسا مع أشخاص قد يشبهوننا في الذوق والاهتمامات والأهداف؟

وهل يمكن لشبكات التواصل الاجتماعي عموما والفيسبوك خصوصا أن يشكّل أداة للحفاظ على رأس المال الاجتماعي فعليا، لاسيما في حالة الانقطاع مثلا عن شبكة الأنترنيت؟

وهل تؤدي التفاعلات الرقمية إلى إبعاد الناس عن عالمهم غير المتصل بالأنترنيت، بل هل يمكن أن تدعم علاقاتهم حتى عندما تبعدهم التغيرات الحياتية عن بعضهم البعض؟

نتصوّر أنّ شبكات التواصل الاجتماعي قد تكون فعّالة ومفيدة خاصة للأشخاص الذين يعانون من صعوبة في تشكيل علاقات أو أولئك الذين يعانون صعوبات نفسية في التواصل مع الآخرين، فتمثّل لهم هذه الشبكات تكسيرا للحواجز أو تخفيضا منها فقط، وكأنهم يعيشون عزلة يسعون للخروج منها عن طريق التواصل الرقمي، في استجداء لهذا الإعجاب أو لذاك التعليق، وبالتالي يمكن أن يشكّل الفيسبوك تعويضا اجتماعيا ونفسيا عن نقص في التواصل وعدم النجاح في تكوين علاقات. بالمقابل، تبنى أو تهدم العلاقات الاجتماعية في وسائط التواصل الاجتماعي حسب التغيرات الكبيرة تماما كما يحدث عندما ينتقل الشخص من مكان جغرافي لآخر، فيكون احتمال فقدان الاتصال مع معارفه وارد جدا.

خلصت العديد من الـدراسـات إلى

وجود علاقة وثيقة بين استخدام الفيسبوك وتكوين رأسمال اجتماعي، بل ذهبت إلى أنها تساهم في دعم الروابط الاجتماعية القائمة، وتساعد على إنشاء روابط جديدة، وتقول الدراسات إنّ العلاقات التي تبدأ عـلى الأنترنيت نـادرا مـا تبقى هناك. (Ellison,2007,p 1144).

تقدّم وسائط التواصل الاجتماعي كوسيلة مصممة لتسهيل التفاعل الاجتماعي وتمكين المستخدمين من التعبير عن أنفسهم والمشاركة والتواصل وبناء العلاقات الاجتماعية إلكترونيا. لذلك توفّر وسائل التواصل الاجتماعي أداة لتوسيع نطاق التفاعلات برؤية مغايرة، تعدّ مهمة في سياق التعلم الاجتماعي Neumann (, 2024 , P1119)، وهـي وسيلة تقلّل من الحواجز التي تمنع الناس من التفاعل.

بالمقابل، أثبتت العديد من الدراسات أنّ مستخدمي شبكات وسائط التواصل الاجتماعي قد سجلوا بالفعل انخفاضا في معدلات التفاعل مع الأسرة والمحيط الاجتماعي، ممّا يتطلب إعـادة النظر في منظومة القيم التي تروّجها شبكات التواصل الاجتماعي، والتي بالرغم من اتهامها بالتأثير السلبي، فإنّ البعض يراها وسيلة مهمة لتعزيز التماسك بين المجتمعات وتقريب الـرؤى بينها والتعرف عـلى الشعوب المختلفة وتعزيز قيم الوسطية خاصة في دورها الفاعل والمتميز كوسيلة اتصال فعالة في حركات التغيير الاجتماعي.

يشكّل الفيسبوك بيئة ثقافية ممتدة تخلق هوية جديدة زائفة وشعورا وهميا بالتضامن مع شبكاته الواسعة، وفوق كل ذلك فهو يؤسس لصورة افتراضية لا ترتبط بالواقع، حيث تصبح كل القيم افتراضية، ويتمّ استبدال التضامن الاجتماعي بالتضامن الافتراضي أو الرقمي. IslamKhan,2018, p76)). من هـذا المنطلق، يمكن فهم واستيعاب مظاهر الحياة الاجتماعية من خلال النظر إلى مختلف التفاعلات التي تحدث بين الأفراد ودوافعهم الموضوعية والذاتية.

صـــداقـــة مـــع وقـــف التنفيذ

عند الحديث عن علاقة الفيسبوك بتشكيل رأس المال الاجتماعي، تطفو كلمة مفتاح يتمحور حولها التشبيك الاجتماعي التفاعلي الرقمي، وهي كلمة صداقة، التي يجتهد المستخدمون بحرص في كسبها ولو كانت صداقة وهمية خالية من أي دفء إنساني. وقد بحث العديد من الدارسون في هذه القيمة بصيغتها الرقمية، وتوصّلوا إلى أنّ الحفاظ على الصداقات هو أحد الدوافع الرئيسة لاستخدام الفيسبوك الذي يعدّ أنجع وسيلة للبقاء على تواصل مع الأصدقاء، وهناك صداقات تم اكتسابها من خلال الألعاب عبر الأنترنيت، وخلصت أن صداقات اللاعبين الجامعيين عبر العالم الافتراضي كانت ذات جودة أعلى بكثير من صداقاتهم خارج الأنترنيت. أما بالنسبة لغير اللاعبين فقد تمّ الحصول على نتائج عكسية. بالمقابل، أجريت دراسـة ثانية قامت باستخدام عينة أكبر غير جامعية ووجـدت أنّ الـصـداقـات غـير المتصلة بالأنترينت كانت أعلى جودة من الصداقات عبر الانترنيت إن بالنسبة لهواة ألعاب الأنترنيت أو غير اللاعبين. M .Frederik, 2020,p 2)).

يميل الأفراد الإنطوائيون إلى استخدام منصات التواصل الاجتماعي دون الكشف عن هويتهم مثل غرف الدردشة والمنتديات، حيث تكون لديهم تفاعلات محدودة، ويرون في الفيسبوك مكانا إضافيا للتواصل للحفاظ على شبكات صداقاتهم وتطويرها. لذلك ليس من المستغرب أنّ المستخدمين الخجولين أفادوا بأنّ لديهم أصدقاء أقل، حيث يقضون وقتا أطول على الفيسبوك لأنّهم يجدون هذا الفضاء أكثر جاذبية مقارنة مع المستخدمين الأكـثر انفتاحا، وهذا يتوافق ونظرية التعويض الاجتماعي، حيث إنّ الشاشة تمكّن المستخدمين من تعويض صعوبات التواصل وجها لوجه (Eftekhar,2014,p 164).

وقـد أشـارت بعض الـدراسـات إلى أن الفيسبوك يساهم في تحقيق نسبة من الرفاه النفسي ممّا يعني أنّـه يلبي حاجيات للمستخدمين الذين يعانون من انخفاض تقدير الذات أو الرضا عن الحياة (Ellison,2007,p 1143). في ذات السياق، وحسب عالمة النفس كورتني سيتر، فإنّ مستويات الدوبامين الناتجة عن استخدام وسائل التواصل الاجتماعي قمينة بأن تولّد ارتفاعا هرمونيا إيجابيا يعادل ما يحصل عليه بعض الناس يوم زفافهم . (Mueller, 2019, p4). واعتبرت دراسة من بين الأسباب التي تجعل المستخدمين نشيطين على شبكات التواصل الاجتماعي هو المستوى العالي من المتعة والسعادة التي يحصلون عليها، وترتبط قيمة المتعة بالتجارب التي يمكن إدراكها بعد التفاعل في هذه الشبكات (Maqableh,2021,p 247).

خاتمة:

لقد أحدثت الثورة الرقمية تغييرات كثيرة في حياتنا أثرت على نظرتنا وإداركنا لذواتنا وللآخرين، ممتدّة بذلك إلى المنظور المعرفي والثقافي والقيمي، ممّا جعلنا نعيش حالة رقمية متسارعة ومكثّفة أثرت على الأنا التي أصبحت بمثابة علامة تجارية تعيش توترا متواترا مع الذات الواقعية، ممّا يوجب تكثيف الدراسات وتعميقها من أجل إيجاد توازن بين حياتنا الرقمية وحياتنا الواقعية، في ظل العيش لوقت طويل في وسائط اجتماعية نجحت في خلق قطيعة مع الطرق العلائقية السابقة.

■

المراجع و المصادر

- Basalingappa Anita & others. (2016). Understanding Likes on Facebook: An exploratory study, Online Journal of Communication and Meadia Technologies . Vol 6. July 3. DOI: 10.29 333/ojcmt/2566

- Bergagna Elisa & others. (2018). Self –Esteem, Social comparison and Facebook, Europe ‘s Journal of psychology. Vol 14. 4. DOI: 10.59 64/ejop.v 14i4.1592

- Eftekhar Azar & others. (2014). Capturing personality from Facebook photos and photo-related activitiesHow much exposure do you need? ELSEVIER: Science Direct. Computers in Human Behavior 37/162-170

- Ellison Nicole & others. (2007). The benefits of Facebook “Friends” social capital college students’use of online social network sites. Journal Computer-Mediated Communication. Michegan state University. DOI:10.1111/J.1083-6101.2007.00367.X

- Frederick Christina. (2020). Examining the Qualities og Online and Offline Friendships: A Comparison Between Groups. Aeronautical University. 1413

- IslamKan Saiedul & others. (2018). Facebook as a culture: A sociology study. See discussions, stats and authorprofiles for this publication at www.researchgate.net/330277089. December. DOI: 10.53935/2641-5305.v112.10

- Maqableh Mahmoud & others. (2021). The effect of Facebook users’satisfacion and trust on stickiness: The role of perceived values. Internatinal Journal of Data and Network Science (5).March 13. 245.256

- Mills Jennifer & others. (2018). Selfies Harm: Effects on mood and body image in young women. ELSEVIER: Body Image. 27/86-92 .

- Mueller Milton & others. (2019). Challenging the Social Media Moral Panic. Preserving Free Expression under Hyper. Policy Analysis .July CR 876

- Muise Ammy & others. (201 3). Can you see how happy we are: Facebook Images and relationship satisafaction. Social Psychological and Personality. July.

- Nadkarnai Ashwimini & others. (2012). Why DO people use Facebook? NIH Public Acces Auther Manuscript .February 1. DOI: 10.1016/j.paid.2011.11.007

- Neumann Dominik & others. (2024). Morality in Social Media: A scoping review. New Media and Society . Vol 26 /2/1096-11-26. DOI: 10.1177/14614448231166056

حرية التعبير الافتراضي بمنظار المجلس الوطني لحقوق الإنسان

سفيان الكمري
باحث في القانون العام والعلوم السياسية
جامعة الحسن الأول سطات

الملخص

تفاعل المجلس الوطني لحقوق الإنسان بصفته مؤسسة رسمية في العديد من أعماله وأنشطته الميدانية مع موضوعة حرية التعبير الافتراضي، وقد اتسم موقفه من الموضوع بكثير من الجرأة والتقدم بالقياس على مواقف باقي الفاعلين الرسميين في المغرب، غير أن هذا الموقف تعرض للاختبار في سياق تعاطي المجلس مع بعض الحركات الاحتجاجية التي شهدها البلد في السنوات الأخيرة. كما أن إشكالات الواقع السياسي واتجاهات النقاش العمومي جعلت مسار إعمال موقف المجلس معقدا وعسيرا.

الكلمات المفتاحية: حرية، التعبير الافتراضي، الاحتجاج، الضبط.

ABSTRACT

As an official institution, the National Council for Human Rights has interacted in many of its work and field activities with the topic of virtual freedom of expression. Its position on the subject has been very bold and progressive in relation to the positions of other official actors in Morocco, but this position has been tested in the context of the Council's engagement with some of the protest movements that the country has witnessed in recent years. The problems of political reality and trends in public debate have made the implementation of the Council's position complex and difficult.

Keywords : Freedom, virtual expression, protest, tuning.

مقدمة:

تشكل اليوم الوسائل الحديثة للتواصل الاجتماعي بديلا حقيقيا عن الفضاءات التقليدية على مستوى تبادل المعلومات والتعبير عن الآراء والأفكار (هدم النخبوية السياسية والثقافية والفكرية والاجتماعية)، وهي بطبيعتها تتجاوز المبادئ الكلاسيكية للدولة القطرية "الوستفالية [1]" (مبدأ السيادة القديم والجامد)، ولذلك عجزت أغلب الأنظمة السياسية -حتى الأكثر "سلطوية" منها- على القضاء والحد من تلك الوسائل، حيث أن وسائل التواصل الاجتماعي وفق الفهم الجديد ليست في ملكية أي دولة لأنها عابرة للحدود[2] .

الهوامش

1 . المقصود هنا هو معاهدة صلح "ويستفاليا" المنعقدة في عام 1648 كأحد أهم الاتفاقيات الدولية في التاريخ الحديث، والتي أدت إلى إيقاف الحروب الدينية في أوروبا التي امتدت لمدة 30 عاما، وإرساء مبادئ الدولة القطرية (القومية) والقواعد المنظمة للعلاقات الدولية.

2 . للمزيد حول هذا الموضوع ينظر:

كريمي. علي، "التنظيم القانوني للصحافة الإلكترونية العربية وموجبات الشرط السياسي والتكنولوجي"، مقال منشور بالموقع الإلكتروني لمركز الجزيرة للدراسات بتاريخ 11 فبراير 2019، الرابط الإلكتروني: https://studies.aljazeera.net/ar/mediastudies/2019/02/190211073309558.html#:~:text=%D8%

تاريخ المشاهدة: 22/01/2025

- Nwala Michael & others. (2019). The Social Media and Language Use: The case of Facebook. Advances In Language and Literary studies. August 31. ISSN: 22 03-4714.

- Olovede Mukhtar O. (2022). Effects of Social Media on Morality of Youths I, Nigeria and the Role of Religion. Conference Paper/ See discussions. June. 361265662

- Putri Anindya & others. (2022). The connection of moral with social media. Conference Paper/ See discussions. June. 361265662

- Shahabaznozhad Hamidreza & others. (2020). The role of social media content formation platform users engagement behavior Journal of Interactive Marketing, Elsevier 53/4765. September. DOI: 10.1016/j.intmar/2020.05.001.

- Shen Jianqiang & others. (2015). A study of Facebook behavior: What does it tell about your neuroticism and extraversion. ELSEVIER: Computer Human Behavior 32-38.

- Shin Young SOO & others. (2017). Selfies and Self-esteem and Social Sensitivity. ELSEVIER: Personality and Idividual Differences. 111/139.145 .

- Yang Cheng-Liang. (2019). The relationships between personality and Facebook photographsies: A study in Taiwan. Cogent business and management .doi.org/10.1080/233311975.2019.1577521

ويشكل الطلب المكثف على الفضاء الإلـكـتروني الافـتراضي لتصريف المواقف والآراء حـول أحـداث ووقـائـع عمومية نوعا من التأسيس لسلطة شعبية جديدة على مستوى ممارسة حرية التعبير. كما يعتبر تدخل السلطة العمومية (بوسائلها القانونية والقضائية والقمعية) في مواجهة هاته الأشكال التعبيرية الافتراضية من أجل إما إحتوائها أو ضبطها وتنظيمها، تأسيس لنوع من الصراع المفتوح الذي لن ينتهي بسهولة إلا بإيجاد حلول عمومية قد تتم في إطار التوافق الموسع أو خارجه.

ومع أنه لا يوجد على المستوى الدولي زخم قانوني كبير في حماية حرية الولوج واستخدام وسائل التواصل الاجتماعي، فإنه يتم غالبا استدعاء النصوص المرجعية العامة في العهد الدولي للحقوق المدنية والسياسية من أجل شمول حرية التعبير داخل الوسائل المذكورة بالحماية، هذا دون إغفال بعض قـرارات الأمم المتحدة وتعليقات لجانها المؤكدة على ضرورة احترام الدول للحق في التعبير على الأنترنيت ومواقع التواصل الاجتماعي.

مغربيا، عـرفـت وسـائـل التواصل الاجتماعي فورة كبيرة من حيث الاستخدام إبان وبعد ما سمي إعلاميا بأحداث "الربيع العربي"، وأسهمت في توجيه الرأي العام والضغط على الفاعل الرسمي في مجموعة من المحطات، بـدءا من قضية المواطن الإسباني "دانييل كالفان" الذي تم إصدار عفو ملكي عليه بعدما كان محكوما عليه بالسجن ثلاثين سنة على خلفية اغتصابه لعدد من الأطفال، ثم قضية مقتل الشاب "محسن فكري" في الحسيمة وما تلاها من مظاهرات حاشدة بمنطقة الحسيمة أطلق عليها إعلاميا اسم "حـراك الريف"، هذا بالإضافة إلى مجموعة من القضايا الأخرى[3] التي جعلت الدولة تقتنع فعلا بكون وسائل التواصل الاجتماعي شكل جديد من أشكال التعبير عن الرأي[4].

من هنا إطلاق بعض الفعاليات الرسمية نقاشات حول موضوع شبكات التواصل الاجتماعي في علاقتها بحقوق الإنسان، يمكن في هذا السياق استحضار أعمال المجلس الوطني لحقوق الإنسان بصفته مؤسسة وطنية معنية بالتفاعل مع القضايا الحقوقية، حيث يضطلع بالعديد من المهام على مستوى تقييم السياسات والقوانين والبرامج العمومية ذات الصلة بمجال حقوق الإنسان وتقديم المشورة والحلول الممكنة من أجل الإسهام في الانتقال الديمقراطي والحقوقي بالمغرب.

وترصد العديد من منشورات المجلس الوطني لحقوق الإنسان وأنشطته إشكالية حرية التعبير في الوسائط الافتراضية، وتقترح بعض الصيغ الإصلاحية لمعالجة الإشكالية المذكورة، مما يبرر اختيار هذا الموضوع، حيث ستتم محاولة مقاربته من خلال التعاطي مع الأسئلة التالية: كيف تجسدت التعبيرات الافتراضية في مواقف المجلس؟ وماذا قدم المجلس من وصفات علاجية لواقع الشبكات الافتراضية التي فرضت نفسها كفضاء جديد للتداول العمومي في قضايا السياسة والاقتصاد والاجتماع وغير ذلك من قضايا الشأن العام؟

ولأن هدف الدراسة هو ممارسة نوع من "التقييم على التقييم" من أجل مقاربة طبيعة رصد وتناول المجلس الوطني لحقوق الإنسان للمشكلات التي تواجه التعبيرات الافتراضية بشبكات التواصل الاجتماعي والـحـلـول التي يقترحها لتجاوز تلك المشكلات، سواء ذات الطبيعة البنيوية أو ذات الطابع التقني، فإن المقاربة المنهجية التي تبدو أكثر ملاءمة لطبيعة الموضوع هي الممكنات التي تتيحها مناهج الخطاب لاستجلاء موقف المجلس من مجموعة من القضايا والمشكلات المرتبطة بحرية التعبير بالشبكات الاجتماعية الافتراضية. كما ستتم الاستعانة بمقاربة نقدية من أجل ممارسة ما نسميه هنا بالتقييم على التقييم لمواقف ومقترحات المجلس الوطني لحقوق الإنسان بخصوص حرية التعبير الافتراضي، وسيكون الباحث أيضا مضطرا لتسخير المنهج النسقي من أجل محاولة فهم أشكال تفاعل المجلس مع الأشكال الاحتجاجية في علاقتها بالسياقات السياسية الداخلية والخارجية المؤطرة لها.

ستتم بداية محاولة استجلاء الموقف العام للمجلس الوطني لحقوق الإنسان من التعبيرات الافتراضية، قبل أن يتم تفكيك الموقف المذكور من خلال بحث أهم المحددات والعناصر المتحكمة في بنائه، وبعدها سيكون مفيدا اختبار موقف المجلس من خلال تحليل أشكال تعاطيه مع بعض الحركات الاحتجاجية في المغرب، وفي النهاية ستكون الفرصة مواتية لاستخلاص مجموعة من المستنتجات العامة بخصوص موقف المجلس في ضوء اتجاهات الواقع السياسي ومـسـارات النقاش العمومي بالمغرب.

أولا: الـمـوقـف الـعـام للمجلس مـن التعبيرات الافتراضية

قام المجلس الوطني لحقوق الإنسان سنة 2020 في سياق التفاعل مع موضوع التعبيرات العمومية المُمارسة على الشبكات الافتراضية بتنظيم لقاء مفتوح حضره العديد من الفاعلين والمتدخلين، الرسميين وغير الرسميين، وقد خصص اللقاء لفتح نقاس موسع في الإشكاليات المرتبطة بحرية التعبير في وسائل التواصل الاجتماعي[5].

دعا المجلس في اللقاء المذكور إلى أن بروز التعبيرات الافتراضية يؤكد "تبلور نموذج ناشئ للحريات العامة الذي يحدد أشكال جديدة للتعابير العمومية، تعتمد بالأساس على الفضاء الرقمي باعتباره أرضية للتداول والتوافق والتعبئة، بشكل أضحت معه هذه الشبكات حاضنة فعلية لحرية الرأي والتعبير والتجمع والتظاهر ومطالبة السلطات العمومية بخصوص توفير الخدمات العمومية" [6].

ويذهب المجلس إلى أن التعبيرات الافتراضية "من الصعب إخضاعها لمقتضيات قانونية سـواء للحد من انتشارها أو تقييدها. كما أن نطاق هذه التعابير يتسع باستمرار ولم يعد محصورا على النخب، بل تعدى ذلك ليشمل العديد من المكونات المجتمعية، فضلا عن تزايد تأثير ما بات يعرف بالإعلام الجديد"[7].

ولكن المجلس يربط موقفه هذا بضرورة مراعاة ثلاث تحديات أساسية ينبغي العمل على تدليلها، هي تباعا:

- توسيع الفضاء الرقمي لولوج الجميع للإنترنيت يعني تجاوز المجال السيادي؛
- صعوبة خضوع التعبيرات الافتراضية للمقتضيات القانونية الحالية التي لا تراعي خصوصية حرية التعبير الافتراضي؛
- خطورة تعرض الرأي العام والجمهور للتضليل وانتشار الأخبار الزائفة واستغلال الفضاء الافـتراضي لمآرب أخرى تمس قيم حقوق الإنسان[8].

ويضاف لما سبق، أن المجلس أطلق منصة للمساهمة في النقاش العمومي حول كيفية مواجهة التحديات المرتبطة بضمان ممارسة الأشكال الجديدة لحرية الرأي والتعبير، وكذا التفكير الجماعي في الأبعاد المتعلقة بأخلاقيات استعمال وسائل التواصل الاجتماعي كأدوات لممارسة الحريات، ثم استلهام بعض التجارب والممارسات الفضلى من أجل بلورة ما أسماه المجلس ب "الميثاق الوطني لأخلاقيات استعمال الفضاء الرقمي في المجال العام[9].

ويكاد الموقف العام السابق يتكرر في مختلف أعمال المجلس الوطني لحقوق الإنسان، وفي كل مناسبة أتيحت لطرح موضوع الحرية في علاقتها مع وسائل التواصل الاجتماعي.

ثانيا: مـحـددات موقف المجلس مـن التعبيرات الافتراضية

انطلاقا من موقف المجلس الوطني لحقوق الإنسان بخصوص مختلف أشكال التعبيرات العمومية بالفضاءات الافتراضية، يمكن هنا التوقف عند مختلف الاعتبارات والمحددات التي تحكمت في بلورة الموقف المذكور من خلال العناصر التالية :

▪ التوجهات الدولية الجديدة:

يعتبر المجلس أن ضرورة حماية حرية التعبيرات الافتراضية تنطلق من مسار عالمي ودولي يتجه نحو الاعـتراف بهذا الشكل الجديد من الحرية الذي فرض نفسه بقوة، وذلك سيرا على ما تم تأكيده وترسيخه من طرف العديد من الآليات الأممية الداعية إلى "إلغاء القيود القانونية الصارمة والممارسات الحكومية في المراقبة الرقمية"[10]، أو من خلال اتجاهات الاجتهاد القضائي المقارن في التسوية بين حرية التعبير التقليدية وحرية التعبير الافتراضية، مادام أن العبرة هي بالمضمون الذي يتم نشره وليس الواسطة التي يتم

الهوامش

5 . المجلس الوطني لحقوق الإنسان، التقرير التركيبي لنتائج الرصد واللقاءات التشاورية الوطنية بعنوان "حماية حقوق الإنسان في العالم الرقمي ونظم الذكاء الاصطناعي"، منشورات المجلس الوطني لحقوق الإنسان، الرباط، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، 2023، ص 65

6 . المرجع السابق، ص 66

7 . نفس المرجع السابق، نفس الصفحة

8 . نفس المرجع السابق، نفس الصفحة

9 . نفس المرجع السابق، ص 73

10 . نفس المرجع السابق، ص 28

عبرها نشر الرأي (صحافة مكتوبة، سمعية، بصرية إلكترونية أو داخل مواقع التواصل الاجتماعي)[11].

وهكذا، فقد اعتبر المجلس انطلاقا من التراكم الدولي المذكور، أن التعاطي مع قضية تقييد الحريات الافتراضية ينبغي أن يكون وفق المعايير الدولية المتعارف عليها، والتي هي تباعا: الشرعية التي تفترض التنصيص القانوني على القيد صراحة، والهدف المشروع، ثم التناسب والضرورة في التقييد من أجل بناء مجتمع ديمقراطي.

▪ التحولات الاجتماعية:

يستحضر المجلس باستمرار مختلف التحولات السوسيولوجية التي عرفها المغرب في السنوات الأخيرة، والتي في مقدمتها تطور وسائل التواصل الاجتماعي، حيث أنها حفزت ووفرت إمكانيات غير مألوفة للنقاش والتبادل والتداول وتعبئة المواطنات والمواطنين[12] خارج مؤسسات التنشئة الاجتماعية التقليدية مثل الأسرة[13]. مما يستدعي الاخذ بعين الاعتبار هاته التحولات لدعم مسارات الانتقال الحقوقي بالمغرب.

يعي المجلس جيدا أن هاته التحولات تبقى طبيعية خصوصا وهي ترتبط بتزايد الطلب الشبابي على الحقوق والحريات، كما أنها تتصل بالتحولات العميقة التي طرأت على الذهنيات وأنماط التفكير لدى العديد من فئات المجتمع المغربي خلال العقود القليلة الماضية، وهو المعطى الذي أسهم في إحداث نقلة متسارعة على مستوى منظومة القيم المؤسسة لعلاقة الفرد بالمجتمع بشكل عام وطريقة تمثل الفرد للعلاقة مع السلطة والدولة بشكل خاص[14]، غير أن هاته التحولات أنتجت كذلك توترات في علاقة الفرد بالدولة، وجعلت الأخيرة أمام تحديات كبرى على مستوى تدبير بعض القضايا الحقوقية[15] مثل حرية التعبير ومختلف أشكال الاحتجاج الافتراضي ضد سياسات وقرارات المؤسسات الرسمية.

▪ تصاعد الأشكال الاحتجاجية الافتراضية:

يرصد المجلس في كثير من أعماله المنشورة تزايد إقبال المواطنات والمواطنين على وسائل التواصل الاجتماعي للتعبير عن تظلمهم واحتجاجهم من قضايا عامة ذات طبيعة سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية، ويرجح أن تكون سهولة الولوج إلى وسائل التواصل الاجتماعي أحد العوامل المفسرة لتنامي السلوك الاحتجاجي في السنوات الأخيرة، إذ بفضل الإمكانيات التي تتيحها الوسائل المذكورة على مستوى التداول والتوافق والتعبئة، تحولت العديد من الدعوات الافتراضية إلى تعابير عمومية خرجت إلى الواقع لتساءل العديد من السياسات العمومية[16]، من هنا يقترح المجلس السلطات العمومية إلى التعاطي الإيجابي مع هاته الأشكال الجديدة من التعبيرات العمومية، وذلك من خلال:

_ العمل على فتح تحقيقات في جميع الادعاءات المرتبطة بتدبير الشأن العام المعبر عنها في العالم الافتراضي، ونشر نتائج التحقيقات بما يساهم في تطوير ممارسة حرية التعبير ويعزز الثقة؛

_الاسترشاد بالممارسات الفضلى والاجتهادات المتقدمة المتبلورة في بعض التجارب المقارنة، وذلك من خلال التعامل مع حرية التعبير على أنها لا تشمل فقط الأفكار التي يتم تلقيها بشكل إيجابي أو التي تعتبر غير مؤدية أو محايدة، وإنما أيضا الأفكار التي تغضب أو تصدم أو تزعج[17].

▪ تنامي المتابعات القضائية في ارتباط بالتعبيرات الافتراضية :

لقد "انشغل" المجلس كثيرا بالمتابعات القضائية التي تمت في السنوات الأخيرة في حق "مدونين" وناشطين حقوقيين على وسائل التواصل الاجتماعي، حيث عبر عن "قلقه" بخصوص هاته المتابعات التي قد تندرج في إطار أشكال التعبير التي لا تتعارض مع المبادئ الديمقراطية التي من المفترض أن تحميها حرية التعبير كما هي متعارف عليها في المنظومة الدولية لحقوق الإنسان، والتي لا تتضمن أية دعاية للحرب أو دعوة إلى الكراهية الوطنية أو العنصرية أو الدينية التي تشكل تحريضا على التمييز أو العداوة أو العنف أو تتضمن استغلال الأطفال في المواد الإباحية والتحريض المباشر والعلني على ارتكاب الإبادة الجامعية والتحريض على الإرهاب[18].

ولذلك يوصي المجلس في هذا السياق، بضرورة إحداث ضمانات قانونية لممارسة هاته الأشكال الجديدة من حرية التعبير في العالم الافتراضي، مع شمول الضمانات المذكورة لحماية حق المواطنين في التبليغ عن الفساد عبر الآليات الافتراضية[19].

▪ انتشار الأخبار الزائفة والمضللة وبروز المضامين التحريضية:

تعقب المجلس العديد من مظاهر التحريض، ثم ما أسماه ب "آفة انتشار الأخبار الزائفة والمضللة بوسائل التواصل الاجتماعي"، وذلك في العديد من السياقات، يبقى أهمها:

- السياق الانتخابي من خلال التأثير على قناعات المواطنين وإعاقة حقهم في المشاركة في الحياة العامة عبر توظيف وسائل التواصل الاجتماعي في إذكاء الكراهية وخلق تقاطبات عنيفة[20]؛

- سياق وباء كوفيد 19 عبر ترويج أخبار زائفة مثل عدد الوفيات بسبب الفيروس[21]؛

- بروز دعوات تحرض على قوات حفظ النظام العام في صفحات التواصل الاجتماعي في مرحلة الطوارئ الصحية للوقاية من فيروس كورونا سنة 2021"[22].

- حادثة انتشال طفل من بئر نواحي شفشاون، وما رافق ذلك من بروز عناوين وجمل صحفية عبر الوسائط الافتراضية حافلة بالإثارة والتزييف، وذلك لأغراض دعائية أو تجارية[23]؛

- حملة مقاطعة بعض المنتجات التجارية بالمغرب سنة 2018 عبر مواقع التواصل الاجتماعي[24]؛

- قضية السيدة هاجر الريسوني التي تعرضت عبر وسائل التواصل الاجتماعي أيضا لحملة القدف والسب والتشهير ذي الطبيعة التمييزية بسبب الإيقاف الإرادي لحملها[25].

إن من شأن التضليل أن يؤثر على حرية التعبير، ومن ثمة ينتهك حقوق الإنسان، فالتضليل الكثيف يجعل ممارسة الحرية _حسب المجلس_ غير ممكنة، وذلك عبر نبذ آراء المخالفين والتأثير في حريتهم في إبداء رأيهم دونما خوف من تأليب الغالبية ضحية التضليل، كما أن الأخير قد يؤثر في ممارسة حرية التظاهر السلمي من خلال "اصطناع" أتباع ومساندين[26].

الهوامش

11 . المجلس الوطني لحقوق الإنسان، رأي حول مشروع القانون رقم 71.17 القاضي بتغيير وتتميم القانون رقم 88.13 المتعلق بالصحافة والنشر، منشورات المجلس الوطني لحقوق الإنسان، 2022، ص 20

12 . ينظر:

التقرير التركيبي للمجلس الوطني لحقوق الإنسان لنتائج الرصد واللقاءات التشاورية الوطنية، مرجع سابق، ص 19

المجلس الوطني لحقوق الإنسان، مذكرة حول النموذج التنموي الجديد بعنوان "فعلية الحقوق والحريات في المغرب من أجل عقد اجتماعي جديد"، غشت 2020، ص 19

13 . المجلس الوطني لحقوق الإنسان، التقرير السنوي عن حالة حقوق الإنسان بالمغرب لسنة 2023 "إرساء دعائم نظام وطني لحماية الحقوق الاقتصادية والاجتماعية"، فبراير 2024، ص 30

14 . ينظر: المجلس الوطني لحقوق الإنسان، مذكرة حول النموذج التنموي الجديد، مرجع سابق، ص ص 16 _ 17

15 . المجلس الوطني لحقوق الإنسان، التقرير السنوي عن حالة حقوق الإنسان بالمغرب لسنة 2019 بعنوان "فعلية حقوق الإنسان ضمن نموذج ناشئ للحريات، ص 10

16 . ينظر: المجلس الوطني لحقوق الإنسان، التقرير التركيبي حول نتائج الرصد واللقاءات التشاورية الوطنية بعنوان "حماية حقوق الإنسان في العالم الرقمي ونظم الذكاء الاصطناعي، مرجع سابق

17 . المجلس الوطني لحقوق الإنسان، التقرير السنوي حول حالة حقوق الإنسان بالمغرب لسنة 2022 حول "إعادة ترتيب الأولويات لتعزيز فعلية الحقوق"، أكتوبر 2022، ص 27

18 . ينظر:

التقرير السنوي للمجلس الوطني لحقوق الإنسان حول حالة حقوق الإنسان بالمغرب لسنة 2022، مرجع سابق، ص 77

التقرير السنوي للمجلس الوطني لحقوق الإنسان عن حالة حقوق الإنسان بالمغرب لسنة 2019، مرجع سابق، ص 30

المجلس الوطني لحقوق الإنسان، التقرير السنوي عن حالة حقوق الإنسان بالمغرب لسنة 2020 بعنوان "كوفيد 19 وضع استثنائي وتمرين حقوقي جديد"، مارس 2021، ص 73

19 . التقرير السنوي للمجلس الوطني لحقوق الإنسان حول حالة حقوق الإنسان بالمغرب لسنة 2022، مرجع سابق، ص 26

20 . التقرير التركيبي للمجلس الوطني لحقوق الإنسان لنتائج الرصد واللقاءات التشاورية الوطنية، مرجع سابق، ص 32

21 . المرجع السابق، ص: 69

22 . المرجع السابق، ص: 28

23 . التقرير التركيبي للمجلس الوطني لحقوق الإنسان لنتائج الرصد واللقاءات التشاورية الوطنية، مرجع سابق، ص ص 33 _ 34

24 . التقرير السنوي للمجلس الوطني لحقوق الإنسان عن حالة حقوق الإنسان بالمغرب لسنة 2019، مرجع سابق، ص 30

25 . التقرير السنوي للمجلس الوطني لحقوق الإنسان عن حالة حقوق الإنسان بالمغرب لسنة 2019، مرجع سابق، ص 30

26 . التقرير التركيبي للمجلس الوطني لحقوق الإنسان لنتائج الرصد واللقاءات التشاورية الوطنية، مرجع سابق، ص 29

ولأجل تجاوز الإشكالات السابقة، يرى المجلس أن هناك حاجة ملحة "للتعاون مع منصات التواصل الاجتماعي ووسائل الإعلام لمحاربة الأخبار الزائفة وحماية حق المستعملين في التوصل بمعلومات صحيحة[27]، غير أنه من ناحية أخرى؛ رأى أن هناك ضرورة لتجريم التحريض على العنف والكراهية والتمييز، من خلال التنصيص على مقتضيات صريحة تأخذ بعين الاعتبار تطور هذه الظاهرة في منصات التواصل الاجتماعي...[28] مع عدم التشدد في تطبيق القانون الجنائي على فعل التشهير إلا في أشد الحالات خطورة، لأن من شأن ذلك أن يؤثر ويحد من ممارسة حرية التعبير[29].

- **ضعف الترسانة القانونية الحالية:**

انطلاقا من ظهور فاعلين جدد في حقل الإعلام والتواصل نتيجة الإقبال المكثف على شبكة الأنترنيت ووسائل التواصل الاجتماعي التي نجحت في أن تتحول أحيانا غلى ممارسة الوظيفة الصحفية بأشكال أكثر براعة، فقد دعا المجلس إلى تجاوز التفكير في حرية التعبير من منظور قانون الصحافة التقليدي الذي يعتمد على مفهوم حرية الصحافة[30]، بل يجب تبني تبني مفهوم حرية تداول المعلومات، الذي يشمل جميع أشكال التعبير: مكتوبة أو سمعية بصرية، ورقية أو افتراضية... إلخ

وينبغي أن يخضع قانون تداول المعلومات المأمول إقراره على تسع مبادئ أساسية، وهي الحد الأقصى من الإفصاح، الالتزام بالنشر، الترويج للحكومات المفتوحة، محدودية نطاق الاستثناءات، تسهيل الحصول على المعلومات، التكلفة المناسبة لطلبات الاطلاع على المعلومات، الاجتماعات المفتوحة، اعطاء الأسبقية للإفصاح عن المعلومات وحماية المبلغين[31]، ومن الأهداف التي يفترض أن تحققها هاته الصيغة القانونية: تعزيز أوجه المشاركة المواطنة، تحسين حكامة المؤسسات وتفعيل آليات المساءلة، دعم آليات مكافحة الفساد[32].

وفق هذا المنظور، "عارض" المجلس مقتضيات مشروع القانون 20.20 المتعلق باستعمال شبكات التواصل الاجتماعي وشبكات البث المفتوح والشبكات المماثلة، والذي جرى تداول نسخة "مسربة" منه على الوسائط الافتراضي، وأُطلق عليه حينها "قانون تكميم الأفواه"، وقد برر المجلس موقفه الرافض للمشروع من خلال: اعتماد مقاربة تقليدية لتقييد استعمال المنصات الرقمية دون الأخذ بعين الاعتبار خصوصياتها والممارسات الناشئة عن استعمالها وتتجاوز مبررات تقييد حرية التعبير كما هي متعارف عليها دوليا (المشروعية، التناسبية، الضرورة)، ثم غياب التشاور الواسع مع مختلف الفاعلين[33]. كما أن المجلس في سياق مواكبة التعبيرات العمومية الجديدة، أوصى بضرورة تحيين التشريع المنظم للحملات الانتخابية بكيفية تأخذ بعين الاعتبار تطور الوسائل والتقنيات المستعملة في إطار الحملات الانتخابية واعتمادها بشكل متزايد على ما هو رقمي عوض ما هو مادي[34].

في النقطة الموالية، سنتوقف عند موقف المجلس الوطني لحقوق الإنسان من التعبيرات الاحتجاجية الافتراضية في ارتباط بحدثين هامين: وهما احتجاجات كل من الحسيمة وجرادة، وذلك لنرى مدى تمثل المجلس لمواقفه السابقة من التعبيرات الافتراضية في تعاطيه مع تلك الأحداث التي ميزت العقد الأخير.

ثالثا: تحليل موقف المجلس من التعبيرات الافتراضية المرتبطة باحتجاجات جرادة والحسيمة

أصدر المجلس الوطني لحقوق الإنسان تقريرين في سياق التفاعل ورصد احتجاجات منطقتي الحسيمة وجرادة، وقد أثار التقريران العديد من الجدل في الأوساط السياسية والاجتماعية[35]، سواء من حيث منهجيتهما ومقاربتهما أو من حيث نتائجهما، وفيما يلي عرض وتحليل لمضامين التقريرين فيما يتصل بإشكالية هاته الورقة (التعبيرات الافتراضية).

- **شبكات التواصل الاجتماعي في سياق احتجاجات جرادة:**

نشر المجلس في مارس 2020 تقريرا حمل عنوان "التقرير الموضوعاتي للمجلس الوطني لحقوق الإنسان حول احتجاجات جرادة"، وقد لاحظ التقرير الاستعمال المكثف لوسائل التواصل الاجتماعي في التعبئة للمظاهرات ونشر أطوارها، فعبر وسيلتي الفيسبوك والواتساب، كان يتم تعميم دعوات الاحتجاج ونشرها على نطاق واسع، وهي الدعوات التي كانت تلقى استجابة واسعة من الساكنة[36].

أقر المجلس بكون المضامين الاحتجاجية الافتراضية كانت تحمل في الغالب طابعا عاديا وغير متجاوز للمشروعية القانونية، حيث ركزت بشكل عام على "المطالبة بإيجاد بدائل اقتصادية بمدينة جرادة وإقليمها، ومحاسبة المسؤولين الذين شاركوا وأشرفوا على تصفية ممتلكات شركة مفاحم المغرب"[37]، كما أن الأشكال الاحتجاجية المدعو لها افتراضيا _بإقرار المجلس_ اتخذت طابعا سلميا مثل طقطقة الآواني المنزلية من أسطح وشرفات المنازل ببعض الأحياء الشعبية[38].

غير أن المجلس يسجل في سياق احتجاجات جرادة أنه تم توظيف الوسائط الافتراضية لتداول معلومات وصور غير واقعية، دون أن يخوض في هذا الأمر كثيرا، داعيا إلى نشر نتائج تحقيق معلن عنه في هذا الموضوع[39].

- **شبكات التواصل الاجتماعي في سياق احتجاجات الحسيمة:**

عمم المجلس في مارس 2020 عبر موقعه الإلكتروني تقريرا تحت عنوان "تقرير حول احتجاجات الحسيمة"، جاء التقرير في 276 صفحة، ركزت في أغلبها على رصد وتحليل وقائع ومجريات ما سمي إعلاميا ب "حراك الريف".

منهجيا، حدد المجلس مقاربة تحليله لما جرى بشبكات التواصل الاجتماعي من خلال العناصر التالية:

- النطاق الزمني للتقرير/الملاحظة: من فاتح يناير 2016 إلى أواخر نونبر 2019؛

- الكلمات المفتاحية للبحث تم تحديدها في: ريف، حسيمة، حراك وترجمتها إلى اللغات الفرنسية والإسبانية والإنجليزية والألمانية والهولندية؛

- الأدوات التقنية المستعملة: youtube، twitter، facebook، google، sparktoro، twitonomy..

وقد مكنت هاته المنهجية بحسب رأي المجلس من بلوغ مجموعة من النتائج، أهمها:

_تحديد الأيام التي كان التفاعل بها

الهوامش

27 . نفس المرجع، ص 18

28 . التقرير السنوي للمجلس الوطني لحقوق الإنسان حول حالة حقوق الإنسان بالمغرب لسنة 2022، مرجع سابق، ص 87

29 . نفس المرجع، ص 84

30 . رأي المجلس الوطني لحقوق الإنسان في مشروع القانون رقم 71.17، مرجع سابق، ص 23

31 . نفس المرجع، ص 13

32 . نفس المرجع، ص 12

33 . التقرير التركيبي للمجلس الوطني لحقوق الإنسان لنتائج الرصد واللقاءات التشاورية الوطنية، مرجع سابق، ص 107

34 . رأي المجلس الوطني لحقوق الإنسان في مشروع القانون رقم 71.17، مرجع سابق، ص: 24

35 . ينظر مثلا :

المجلس الوطني لحقوق الإنسان يرفض "حراك الريف" وممارسة التعنيف، مقال منشور على موقع هسبريس في 9 مارس 2020 على الرابط الإلكتروني:

https://www.hespress.com/%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%AC%D9%84%

تاريخ المشاهدة: 23/01/2025

تقرير..حقوقيون: تقرير المجلس الوطني لحقوق الإنسان حول حراك الريف "أخطاء" و "مغالطات"، مقال منشور على موقع جماعة العدل والإحسان في 12 مارس 2020 على الرابط الإلكتروني: https://www.aljamaa.net/posts/%D8%AD%D9%82%D9%88%D9%82%D9%8A%D9%

تاريخ المشاهدة: 23/01/2025

36 . المجلس الوطني لحقوق الإنسان، التقرير الموضوعاتي حول احتجاجات جرادة، مارس 2020، ص 14

37 . المرجع السابق، ص 15

38 . نفس المرجع، ص 14

39 . ينظر:

التقرير الموضوعاتي للمجلس الوطني لحقوق الإنسان حول احتجاجات جرادة، مرجع سابق، ص 36

التقرير التركيبي للمجلس الوطني لحقوق الإنسان لنتائج الرصد واللقاءات التشاورية الوطنية، مرجع سابق، ص 19

مرتفعا بخصوص موضوع الدراسة؛

_تحديد مصادر النشر الأكثر تفاعلا في الموضوع؛

_دراسة بعض المنشورات الأكثر تفاعلا والتأكد من صحتها حين يتعلق الأمر بنشر الأخبار؛

_دراسة 10 صفحات على "فيسبوك" الأكثر تأثيرا لتحليل المحتوى؛

_التركيز على عينة من الحسابات على موقع تويتر الأكثر تفاعلا في موضوع احتجاجات الحسيمة لدراسة سوسيوتقنية[40]؛ على المستوى الكمي، يؤكد التقرير أن تحليله أفضى إلى نتيجة هامة متعلقة بكون أزيد من 81 بالمائة من المنشورات "المضللة" (التي خضعت لتحليل وملاحظة المجلس) مصدرها خارج المغرب، مما يعني أنها خارج الوقائع والأحداث، أي خارج منطقة الاحتجاجات، وهي منشورات تجد مصدرها بالتحديد في دول أوروبا الغربية مثل: هولندا وبلجيكا واسبانيا.

على المستوى النوعي، تفيد ملاحظة المجلس أن المنشورات المحللة تتضمن "حمولات دينية واستغلال الذاكرة والرموز والشخصيات خارج السياق"، وذلك من أجل "خلق تقاطبات عنيفة وتحريض على مؤسسات دستورية وأشخاص"[41]. كما تتضمن "انتهاكات جسيمة لحقوق الإنسان لم تكن لها علاقة بما في إقليم الحسيمة، ولم سوى أخبار زائفة أو مضللة (فايك نيوز) تهدف إلى: تبخيس عمل الفاعلين في مجال حقوق الإنسان، المؤسساتيين وغير المؤسساتيين _تهييج الرأي العام الوطني والدولي حول أفعال غير واقعة _ التأثير على سلمية الاحتجاجات _ تغييب العقلانية والمنطق في التعاطي مع الإشاعة[42].

يقيم المجلس احتجاجات الحسيمة بكون المحتجين استعملوا العنف غير القانوني المقرون بالكراهية، وأن الحركة الاحتجاجية تحولت منذ العام 2017 إلى "عنف حاد تفصله بعض الاحتجاجات ذات الطبيعة المطلبية"[43].

ورغم أن المجلس سبق وأن اعتبر في العديد من أعماله ضرورة توسيع مساحات التعبير العمومي، خصوصا عندما يتعلق الأمر بشبكات التواصل الاجتماعي، فإنه لم يبد موقفه بخصوص طبيعة التهم الموجهة لبعض المتابعين قضائيا على خلفية إما نشر تدوينات أو صور أو حتى مجرد الضغط على زر "الإعجاب" لتدوينة كتبها شخص آخر[44].

وإذا كان المجلس قد عرض للعديد من المنشورات من حسابات مجهولة، والتي تبين إما التحريض ضد المؤسسات أو الأشخاص[45]، فإنه لم يتوقف بشكل كبير كذلك عند فرضية وجود منشورات أخرى تحرض ضد المحتجين وقياداتهم أو ضد "المكون الثقافي الريفي" او التاريخي للمنطقة التي شهدت الاحتجاجات.

في توصياته حول احتجاجات الحسيمة، دعا المجلس إلى ما يلي:

_التعبيرات الاحتجاجية الافتراضية التي تنطوي على العنف والكرامة والعنصرية لا ينبغي تمتيعها بالحماية، وهي بعيدة عن ممارسة حرية التعبير، وتشكل مسا خطيرا بالمبادئ التي يتوجب حمايتها والنهوض بها في مجتمع ديمقراطي؛

_إنشاء خوارزميات تحفز التعددية وتعزز قدرات المستخدمين، وتمنح لمستخدميها إمكانية اختيار مستوى التعددية المطلوب، وذلك تماشيا مع توصية مركز أبحاث البرلمان الأوروبي؛

_دعوة الرأي العام بتوخي الحذر من حيث مصادر المعلومات والأخبار، وبالتقصي في صحتها وواقعيتها وحماية وسائل التواصل الاجتماعي[46].

بشكل عام، فالملاحظ بخصوص تقرير المجلس حول احتجاجات الحسيمة أنه رسم "صورة متشائمة" بخصوص العديد من القضايا ذات الصلة بالتعبير الافتراضي، وهو في ذلك غيب "الطابع المتفائل" الذي ميز أعماله الأخرى بخصوص توسيع مساحات ممارسة حرية التعبير في وسائل التواصل الاجتماعي.

ختاما: استنتاجات عامة بخصوص موقف المجلس في ضوء النقاش العمومي حول حرية التعبير الافتراضي

لا بد من الإقرار في ختام هاته الورقة بكون موقف المجلس الوطني لحقوق الإنسان من مسألة حرية التعبير الافتراضي يبقى موقفا "متقدما" قياسا على الإجراءات والسياسات الحكومية في الموضوع، فهو يبقى أحد الإطارات المرجعية التي يمكن الاستناد عليها على بعض جوانبها مستقبلا في أي تدبير إصلاحي يروم معالجة "أزمة" التعبيرات العمومية الافتراضية، سواء في مظهرها المتعلق ب "مساحات" ممارستها، أو ما يتعلق ب "حدودها"، خصوصا في الحالة التي تضحي فيها الحرية المذكورة وسيلة للابتزاز والتشهير والتحريض على العنف أو بشكل عام كل ما يمس بقيم

حقوق الإنسان.

غير أنه لا يمكن مسايرة موقف المجلس بشكل كلي، خصوصا وأن الأمر يتعلق بأحد الحريات التي يفترض أنها تخضع لمنظومة حقوق الإنسان، بحيث أن القضية لا يمكن مقاربتها فقط من المدخل القانوني/التقني المرتبط بإيجاد صيغ وأشكال قانونية جديدة، بل إن الأمر يرتبط كذلك بمداخل أخرى، أهمها المدخل السياسي المرتبط بالديمقراطية.

يبقى أساس التفكير في شبكات التواصل الاجتماعي متعلقا بتحليل طبيعة المنظومة السياسية التي تحتضن هاته الوسائل، هل هي منظومة مفتوحة تسمح بالحقوق والحريات عموما، وتُفسح بشكل خاص مجالات ومساحات ممارسة حرية التعبير أمام المواطنات والمواطنين دون الخوف من الأذى والملاحقة، أم أنها منظومة مغلقة قائمة على قمع الآراء ونبذ صوت الآخر المختلف؟؟

كما هو معلوم، فالحقوق والحريات من المنظور الكوني والشمولي مترابطة ومتكاملة، بمعنى أن درجة اتساع ممارسة حق معين ترتبط بباقي الحقوق، فمن النادر أن تكون دولة معينة رائدة على مستوى حق معين ومتدنية إلى أقصى درجات التدني في باقي الحقوق، فمنظومة حقوق الإنسان تخضع لمنطق بنيوي يعضد بعضها البعض، ولذلك فان الحديث عن حريات التعبير الافتراضي بالمغرب، يقتضي استحضار وضعية حريات التعبير التقليدية وباقي الحريات والحقوق الإنسانية، ومن ثمة؛ استحضار طبيعة البيئة السياسية المحلية الحاضنة لشبكات التواصل الاجتماعي.

بهذا الصدد؛ يمكن استحضار ترافع منظمات المجتمع المدني على العديد من المعتقلين على خلفية متابعة مجموعة من المدونين والناشطين الحقوقيين في وسائل التواصل الاجتماعي[47]ومطالبتها بضرورة الكف عن "انتهاك" حرية التعبير الافتراضي بشكل ممنهج ومقصود[48]، بل إن تقارير وازرة الخارجية الامريكية حول حقوق الإنسان سبق وأن أثارت بعض "الانتهاكات" ذات الطبيعة السياسية بالمغرب من قبيل: "اختراق الحسابات الشخصية لبعض

الهوامش

40 . المجلس الوطني لحقوق الإنسان، تقرير حول احتجاجات الحسيمة، مارس 2020، ص 170

41 . المرجع السابق، ص 187

42 . نفس المرجع، ص 161

43 . نفس المرجع، ص 79

44 . نفس المرجع ، ص 124

45 . نفس المرجع، ص ص 124 _ 125

46 . نفس المرجع، ص 201

47 . ستشهد السنوات الأخيرة مجموعة من المحاكمات والملاحقات القضائية لمدونين بسبب "أنشطتهم الافتراضية" التي تم تكييفها باعتبارها أفعال ينطبق عليها الوصف الجنائي، في هذا الإطار يمكن إيراد مجموعة من النماذج، منها:

- الحكم على "شفيق العمراني" بالسجن النافذ ثلاثة أشهر، بسبب متابعته بتهمة "إهانة مؤسسات دستورية" على خلفية بثه فيديوهات على موقع يوتوب؛

- إدانة "رضا بن عثمان" إبتدائيا بالسجن النافذ لمدة ثلاث سنوات، بسبب متابعته بتهمة "إهانة الهيئات المنظمة" و"إهانة موظفين عموميين أثناء قيامهم بوظائفهم" و "بث وتوزيع ووقائع كاذبة من دون موافقة الطرف المعني"، وذلك على خلفية بثه عدة بيانات على موقعي الفيسبوك واليوتوب؛

- متابعة "سعيدة العلمي" بالسجن النافذ لمدة سنتين بسبب "بث وتوزيع ادعاءات ووقائع كاذبة لأشخاص قصد التشهير بهم" و "إهانة موظفين عموميين بمناسبة قيامهم بمهامهم"، وذلك على خلفية تدينات لها على موقع الفيسبوك؛

- الحكم على "ربيع الأبلق" بالسجن النافذ لمدة أربعة أعوام بسبب "الإخلال بالاحترام الواجب للملك"، وذلك على خلفية فيديوهات بثها على موقع فيسبوك.

48 . ينظر:

حقوقيون يطالبون بوقف التضييق على الحريات ومتابعة النشطاء والمدونين والإفراج عن معتقلي الرأي، مقال منشور على موقع لكم في 26 أبريل 2024 على الرابط الإلكتروني:

https://lakome2.com/droit-humain/342018/

تاريخ المشاهدة: 23/01/2025

المعارضين وتسخير بعض الحسابات على مواقع التواصل الاجتماعي في تشويه سمعة المعارضين"[49].

في هذا السياق؛ تشكل مشكلة التشهير بالمغرب إشكالية "معقدة" من حيث التعاطي معها ومعالجتها، سواء كانت مؤسسات الدولة ضحيتها أو الأفراد، ويزيد تأثيرها السلبي عندما توجه ضد "المدافعين عن حقوق الإنسان"، نظرا لما تنتجه من "تكميم أفواه المنتقدين لسياسة الدولة"، وبالتالي خلق رأي عام واحد موجه، وغير مؤسس على منطق التعددية، فهذا "التكتيك الشرس" -وفق تعبير بعض التقارير الحقوقية- يقوم في السياق المغربي على أساس "إطلاق حملات تشهير ضد المعارضين في المواقع الموالية للدولة من خلال إنتاج سيل من المقالات حول المعارضين، تتضمن إهانات ومعلومات شخصية حول السجلات المصرفية وسجلات الممتلكات، ولقطات من محادثات إلكترونية خاصة ومزاعم عن علاقات جنسية وتهديدات بكشفها، بالإضافة إلى استهداف الأقارب"[50].

سبقت الإشارة في هاته الورقة، إلى أن أعمال المجلس الوطني لم تتوقف عند إشكالية التشهير على الشبكات الافتراضية ب "معارضي الدولة ومنتقديها"، وذلك بنفس قدر التعرض للمشهرين بمؤسسات الدولة، وهي إشكالية أيضا وجب معالجتها وحلها حتى لا تنجر الشبكات المذكورة إلى مرتع للفوضى اللأخلاقية. ■

الهوامش

49 . See this topic:

- Report of the us state department on human rights in the world, morocco 2021 human rights report.

- Report of the us state department on human rights in the world, morocco 2022 human rights report.

50 . منظمة هيومن رايتس ووتس، تقرير بعنوان: "فيك فيك" دليل أدوات قمع المعارضة في المغرب، منشور بموقع منظمة هيومن رايتس ووتش في 28 يوليوز 2022 على الرابط الإلكتروني التالي: https://www.hrw.org/ar/report/2022/07/28/382474

تاريخ المشاهدة: 23/01/2025

لائحة المراجع

1. مراجع باللغة العربية:

- المجلس الوطني لحقوق الإنسان، التقرير التركيبي لنتائج الرصد واللقاءات التشاورية الوطنية حول حماية حقوق الإنسان في العالم الرقمي ونظم الذكاء الاصطناعي، الرباط، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، منشورات المجلس الوطني لحقوق الإنسان، 2023.

- المجلس الوطني لحقوق الإنسان، رأي حول مشروع القانون رقم 71.17 الذي يقضي بتغيير وتتميم القانون رقم 88.13 المتعلق بالصحافة والنشر، الرباط، منشورات المجلس الوطني لحقوق الإنسان، 2022.

- المجلس الوطني لحقوق الإنسان، مذكرة حول النموذج التنموي الجديد بعنوان "فعلية الحقوق والحريات في المغرب من أجل عقد اجتماعي جديد"، غشت 2020.

- المجلس الوطني لحقوق الإنسان، التقرير السنوي عن حالة حقوق الإنسان بالمغرب لسنة 2023 بعنوان "إرساء دعائم نظام وطني لحماية الحقوق الاقتصادية والاجتماعية"، الرباط، منشورات المجلس الوطني لحقوق الإنسان، 2024.

- المجلس الوطني لحقوق الإنسان، التقرير السنوي عن حالة حقوق الإنسان بالمغرب لسنة 2019 بعنوان "فعلية حقوق الإنسان ضمن نموذج ناشئ للحريات"، مارس 2020.

- المجلس الوطني لحقوق الإنسان، التقرير السنوي حول حالة حقوق الإنسان بالمغرب لسنة 2022 حول "إعادة ترتيب الأولويات لتعزيز فعلية الحقوق"، أكتوبر 2022.

- المجلس الوطني لحقوق الإنسان، التقرير السنوي حول حالة حقوق الإنسان بالمغرب لسنة 2020 بعنوان "كوفيد 19 وضع استثنائي وتمرين حقوقي جديد، مارس 2021.

- المجلس الوطني لحقوق الإنسان، التقرير الموضوعاتي حول احتجاجات جرادة، مارس 2020.

- المجلس الوطني لحقوق الإنسان، تقرير حول احتجاجات الحسيمة، مارس 2020.

- علي كريمي. "التنظيم القانوني للصحافة الإلكترونية العربية وموجبات الشرط السياسي والتكنولوجي"، مقال منشور بالموقع الإلكتروني لمركز الجزيرة للدراسات بتاريخ 11 فبراير 2019، الرابط الإلكتروني:

https://studies.aljazeera.net/ar/mediastudies/2019/02/190211073309558.html#:~:text=%D8%

- رامي السباعي، "الشبكات الاجتماعية: الرقابة المفروضة على الوسائل التكنولوجية عمل تطفلي 2/3"، مقال منشور على موقع مرايانا بتاريخ 19 فبراير 2019 من خلال الرابط الإلكتروني:

https://marayana.com/laune/2018/11/22/3575/

- عثمان كباشي، "حرية الإنترنيت في تقرير فريدوم هاوس.. الرقابة على كل شيء"، مقال منشور بالموقع الإلكتروني لمعهد الجزيرة للإعلام بتاريخ 17 نونبر 2019، الرابط الإلكتروني:

https://institute.aljazeera.net/ar/ajr/article/901

- المجلس الوطني لحقوق الإنسان يرفض "حراك الريف" وممارسة التعنيف، مقال منشور على موقع هسبريس في 9 مارس 2020 على الرابط الإلكتروني:

https://www.hespress.com/%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%AC%D9%84%

- تقرير..حقوقيون: تقرير المجلس الوطني لحقوق الإنسان حول حراك الريف "أخطاء" و "مغالطات"، مقال منشور على موقع جماعة العدل والإحسان في 12 مارس 2020 على الرابط الإلكتروني:

https://www.aljamaa.net/posts/%D8%AD%D9%82%D9%88%D9%82%D9%8A%D9%

- حقوقيون يطالبون بوقف التضييق على الحريات ومتابعة النشطاء والمدونين والإفراج عن معتقلي الرأي، مقال منشور على موقع لكم في 26 أبريل 2024 على الرابط الإلكتروني:

https://lakome2.com/droit-humain/342018/

- منظمة هيومن رايتس ووتس، تقرير بعنوان: "فيك فيك" دليل أدوات قمع المعارضة في المغرب، منشور بموقع منظمة هيومن رايتس ووتش في 28 يوليوز 2022 على الرابط الإلكتروني التالي: https://www.hrw.org/ar/report/2022/07/28/382474

2. مراجع بالإنجليزية:

- Report of the us state department on human rights in the world, morocco 2021 human rights report.

- Report of the us state department on human rights in the world, morocco 2022 human rights report.

حوار مجلة رهانات مع الدكتور **محمد عبدالوهاب العلالي**

موضوع **حول شبكات التواصل الاجتماعي والتحولات القيمية**

تناول الدكتور **محمد عبد الوهاب العلالي** (أستاذ التواصل السياسي بالمعهد العالي للإعلام والاتصال بالرباط، ورئيس المركز الدولي للدراسات في الإعلام والتنمية) في هذا الحوار قضايا نقدية تتصل بنظريات الإعلام التقليدية في ضوء السياق العربي، ومساءلته لتحديات «الأرستقراطية الخوارزمية» في عصر الميتافيرس، محذراً من مخاطر استعمار الوعي الرقمي، مؤكداً ضرورة استعادة الإنسان لسيادته الأخلاقية في مواجهة الآلة، وإعادة الاعتبار لدور المثقف في إنتاج المعرفة وتوجيه النقاش العمومي.

مجلة رهانات : في ظل عولمة الفضاء الرقمي، في نظركم كيف تواجه "الدولة الوطنية" تحدي فـرض سيادتها القانونية على منصات عابرة للحدود حاملة لمعاييرها الخاصة للحقوق والواجبات؟

تواجه "الدولة الوطنية" تحدياً بنيوياً في ظل عولمة الفضاء الرقمي وتحولات في مفهوم السيادة، حيث انتقل الإعلام من فضاء وطني تحتكره الدولة بصفته أداة دعائية وضبطية إلى فضاء شبكي عابر للحدود. تبرز إشكالية السيادة من خلال تحكم شركات كبرى عابرة للحدود في توجيه السلوك البشري. هذه الكيانات تمارس سلطة "ما فوق الدولة"، مما يستدعي إطارات تحليلية أوسع وإعادة النظر في الأجندات الوطنية والإقليمية.

يـفـرض هــذا الــواقــع تناقضا بـين ثنائية التحرير وإعــادة بناء السيطرة. لقد فرض التحول الرقمي مع القنوات الفضائية ثم وسائل التواصل الاجتماعي "تعددية قسرية" كُسر معها احتكار الــدول للمجال السمعي البصري والمعلوماتي، فمنذ بداية تسعينيات القرن الماضي وجدت الدولة نفسها أمـام منصات تعمل بمنطق "الشبكة"، الذي يوزع القوة ويمنح فاعلين جدداً (نشطاء ومؤثرين) قدرة على تشكيل فضاء تواصلي يكسر المركزية "الوطنية" ويرتمي في فضاء عالمي بعيداً عن الرقابة المحلية. إن هذا التحول يعيد تعريف الوجود السياسي للفرد في ظل هيمنة تدفقات رقمية لا تخضع بالضرورة للقوانين الوطنية، في ظل مسار لتآكل مفهوم السيادة التقليدي المرتبط بالفضاء الفيزيائي. نحن هنا أمـام منطق الهيمنة المفتوحة العابرة للحدود لحفنة من الشركات، وأيضا منطق "الإدمـاج والإقصاء" الشبكي، حسب كاستلز، حيث يكتسب من يتصل بالشبكة العالمية الشرعية والتأثير، بينما يُهمش من يظل خارجها في ظل فجوة رقمية جديدة تنضاف إلى فجوات أخرى عديدة خاصة في دول الجنوب العالمي.

لقد غير تآكل مفهوم السيادة التقليدي دائـرة التناقضات، وبات يفرز قضايا جديدة بين السيادة الوطنية للدولة على الأمة والسيادة الشعبية باعتبارها آلية للشرعية. فالسيادة أصبحت مرتبطة بـ "القدرة على الاتـصـال"، والمشاركة في صنع القرار لم تعد تبدأ من ورقة الانتخاب، بل من "إنتاج المعلومة" وتداولها. ففي السياق الــدولي الحالي تتيح الشبكات الرقمية "مشاركة تشاركية" حطمت احتكار المؤسسات، مما جعل "السيادة الشعبية" تمـارس ضغطاً رقمياً عموميا وعلنيا يومياً يتجاوز المساءلة الدورية كل أربـع سنوات أو خمس. ولم تعد المنافسة اليوم بين "برامج حزبية"، مليئة بالتحاليل والأرقــام والاسـتـشرافـات، و"شرعيات رمزية" تؤثر في الجمهور الذي ينجذب بسهولة لـ"الصدق الفردي" للمؤثرين. هنا تتحول المنافسة من صراع أفكار إلى صراع على "الانتباه" وعلى "الإثارة"، والعاطفة بدل العقل والوعي.

لذلك، فمسألة المواجهة ترتبط بحل مستويات عدة من التناقضات لتعزيز قـدرة الدولة الوطنية على حماية السيادة الرقمية. يقتضي هذا بناء تحالف وطني قوي بين الدولة ومختلف الفاعلين الأساسيين، وهذا يفترض جهدا كبيرا لترسيخ قوانين وطنية ودولية تمنع احتكار السلطة في المستويات الوطنية، والعمل على حماية "حياد الإنـترنـت" والسيادة الرقمية على الصعيد الدولي، وضمان استقلالية الفضاء الافـتراضي بوصفه "مختبرا للحرية"، من خلال تحالفات إقليمية فاعلة تجعل الدولة الوطنية قادرة على جر الشركات الدولية العابرة للقارات إلى اتفاقات عادلة.

مجلة رهانات: كيف حولت الرأسمالية الرقمية "الحياة الخاصة" إلى منتج استهلاكي، وما هي التبعات السوسيولوجية لتحول العلاقات الأسرية والزوجية إلى "محتوى" يباع ويشترى في سوق "المؤثرين"؟

في المجتمعات التقليدية، تشكلت الحياة الخاصة (البيت، العلاقات العائلية، التربية، الطبخ، اللباس والترفيه) إلى حدٍّ كبير خارج منطق الــسـوق. كانت الأسرة تنتج جـزءاً مهماً مما تستهلكه، ويظلّ المنزل فضاءً للإنتاج الاجتماعي والرمزي. مع الرأسمالية الكلاسيكية، وبحسب النظريات الاقتصادية السائدة آنئذ، صار الأفراد يبيعون وقتهم في السوق ثم يعودون إلى البيت باعتبارهم مستهلكين؛ فتحوّل المنزل تدريجياً من فضاء إنتاج إلى فضاء استهلاك، وتحوّلت الحاجات إلى سلع عبر الإشهار

والتسويق، بل جرى خلق حاجات جديدة مستمرة: صورة العائلة، شكل المنزل وتجهيزاته، أنماط اللباس، أجساد النساء والرجال وقضاء العطل، وأجزاء من الحياة الاجتماعية، كلها خضعت لقوانين أسواق متخصصة.

مع الرأسمالية الرقمية، حدث انتقال نوعي أعمق: لم نعد نستهلك الحياة الخاصة فقط، بل صارت الحياة نفسها تُباع. المستخدم لم يعد زبوناً فحسب، بل مادة إنتاج. فكل تفاعل رقمي حول: ماذا نحب؟ عم نبحث؟ مع من نتواصل؟ أين نذهب؟ وماذا نشاهد؟ وفيم نفكر؟ يتحوّل إلى بيانات تُستثمر وتُباع. تبيع المنصات الرقمية انتباهنا وسلوكنا، وتسوّق قدرتها على التأثير فينا للمعلنين؛ أي إننا بصفتنا أفرادا تحولنا إلى المنتج الحقيقي في اقتصاد يبيع السلوك البشري ذاته.

نتيجة ذلك، تلاشت الحدود بين العام والخاص ودخل الهاتف غرفة النوم، ومعه الشغل والإعلانات ضمن مسار لتسليع المشاعر والهوية؛ فالصور العائلية والعلاقات العاطفية والزوجية، والهوايات والمواقف السياسية، وحتى الأزمات الشخصية، أصبحت محتويات قابلة للتداول في سوق المؤثرين. سوسيولوجياً، أدى هذا التحول إلى شخصنة النقاش العام، وتجزئة المجال العمومي، وإعادة تشكيل الروابط الأسرية وفق منطق الأداء والظهور والنجومية والربحية.

في بلادنا كما في العالم العربي، يجري تسويق الحياة الخاصة رقمياً بسرعة، غالباً دون أطر مؤسسية كافية أو استفادة اقتصادية محلية، مما يعمّق هشاشة الخصوصية ويعيد تشكيل القيم العائلية تحت ضغط السوق الرقمي في ظل حماية قانونية في مراحلها الجنينية.

مجلة رهانات: نلاحظ اليوم انتشار قيم جديدة على شبكات التواصل الاجتماعي تحت شعار "تمغربيت". في تقديرك، هل تعكس هذه الظاهرة فعلا قيما جامعة تعبّر عن المشترك المغربي، أم أننا أمام توجه أيديولوجي يسعى للتوجيه والهيمنة وصناعة تصور واحد للهوية؟

يمكن تحليل مفهوم "تمغربيت" بصفته تحصيل حاصل لمسار تاريخي وثقافي طويل، لا اختراعا إيديولوجيا ظرفيا، ولا شعارا هوياتيا مغلقا. فهو، أولاً، تعبير عن نزعة أكاديمية وفكرية داخل بعض الأوساط الجامعية المغربية تسعى إلى ترصيد دينامية تاريخية ممتدة، تفاعلت عبر قرون من بناء

حوار العدد: المجتمع وتحولات الفضاء الرقمي

الدولة والمجتمع، ونجحت في إنتاج نموذج وطني متماسك رغم التحولات والاختبارات العنيفة (الاستعمار، الاستقلال، بناء الدولة الحديثة، تحديات العولمة).

تُبرز "تمغربيت"، ثانيا، أن المغرب فسيفساء ثقافية وحضارية ولغوية، لا يمكن اختزالها في بعد واحد أو أصل أحادي. فالهوية المغربية نتاج تراكب تاريخي بين الأمازيغي والعربي، الإسلامي واليهودي، الصحراوي والمتوسطي، في سياق تفاعل مسترسل ضمن ديناميات خاصة. هذا التعدد لم يكن مصدر ضعف، بل شكّل عبر التاريخ قاعدة للاندماج والاستقرار.

ثالثاً، تؤكد "تمغربيت" أن المغرب فسيفساء منفتحة: بجذور إفريقية وأمازيغية عميقة، وأذرع عربية-إسلامية ممتدة، وعقل متوسطي متفاعل مع أوروبا وما بعد الأطلسي. لذلك لا يمكن للمغرب أن يكون غير ذلك دون أن ينفي ذاته التاريخية. وهو ما جعلنا نستنتج أن الانغلاق أو ادعاء النقاء الهوياتي يتناقض مع منطق تشكله الحضاري.

في مستوى آخر، "تمغربيت" مهما كانت الأبعاد التي تعطى لها يجب تنظيفها من نزعة التعالي والخصوصية المتوهمة، التي قد تتحول إلى خطر في سياق عالمي يتسم بتآكل مفهوم السيادة الوطنية التقليدية. فالهوية حين تتحول إلى أداة استعلاء أو قطيعة تصبح عاملاً للتفكك بدل أن تكون رصيداً للحماية.

وأخيراً، تمثل "تمغربيت" إطاراً مرجعياً لبناء مواطن منفتح، معتدل، مرتبط بمؤسساته، وقادر على التفاعل مع العولمة دون ذوبان. إنها ليست هوية ضد الآخر، بل صيغة تاريخية ذكية للتعايش مع العالم، تحمي الوحدة الوطنية وتؤمن الاستقرار، وتمنح المغرب موقعه الطبيعي باعتباره جسرا حضاريا لا جزيرة منغلقة.

مجلة رهانات: إذا كان الفلاسفة قد نظروا إلى مفهوم "الخبر" باعتباره متحققا في قيمة الحرية في بعدها الإنساني والسياسي. هل تعتقد أن شبكات التواصل الاجتماعي عزّزت هذه الحرية أم أفرغتها من مضمونها الحقيقي؟

لا بد من الانطلاق من المسار التاريخي لتطور بنية الأخبار في العالم العربي لنفهم المرحلة الراهنة للاتصال الرقمي والشبكات الاجتماعية. فثقافة الأخبار لم تكن حيادية أو طبيعية، بل تشكّلت تاريخياً داخل بنى سلطوية جعلت الخبر أداة للضبط السياسي أكثر منه أداة للتحرر..

في مرحلتها الأولى، تشكّلت ثقافة الأخبار العربية بصفتها ثقافة سلطوية إدارية مرتبطة بالدولة الاستعمارية ثم بالدولة الوطنية الناشئة، حيث كان الخبر خطاباً نازلاً يهدف إلى التوجيه وبناء الشرعية. ومع صعود الصحافة الوطنية في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، انتقلت جزئياً إلى ثقافة نهضوية تحررية، لعب فيها الإعلام دوراً تعبويّاً في بناء الوعي الوطني والمطالبة بالإصلاح والاستقلال. غير أن هذه الدينامية سرعان ما انتكست بعد الاستقلال، إذ استعادت الدولة الوطنية السيطرة على الإعلام، وأُعيد إنتاج ثقافة أخبار قائمة على الطاعة والتعبئة لا على المساءلة.

مع ظهور الإنترنت وشبكات التواصل الاجتماعي، بدا كأننا أمام لحظة تحرر اتصالي غير مسبوقة. فقد كُسر احتكار الدولة للمعلومة، وبرز المواطن بمثابة فاعل إخباري، وظهرت أشكال أولية من المجال العمومي الافتراضي. في هذا المعنى، عزّزت الشبكات الاجتماعية حرية التعبير من حيث الإتاحة التقنية وسرعة التداول وتعدد الأصوات. لكن هذه الحرية بقيت سطحية وهشة، لأنها لم تستند إلى تحول موازٍ في النظام السياسي أو في بنية المجال العام.

فالمشكلة ليست في التقنية ذاتها، بل في البيئة السياسية الحاضنة لها. فالدول العربية، بمختلف نماذجها السلطوية أو المتأرجحة، طوّرت قدرة عالية على استعادة السيطرة على الفضاء الرقمي عبر القوانين الزجرية، والرقابة الخوارزمية، وحملات التضليل، و"الذباب الإلكتروني". وهكذا، تحوّل الفضاء الرقمي من مجال لتحرير المعنى إلى أداة لتحديث السلطوية.

إضافة إلى ذلك، يعاني المجال العربي

من جنينية الفضاء العام، وضعف الوعي النقدي، واستلاب الفرد سياسياً وثقافياً. فغياب تقاليد التداول العقلاني والمؤسسات الوسيطة جعل النقاش الرقمي ينزلق نحو الانفعال والاستقطاب والفردنة، بدل أن يتحول إلى فعل سياسي جماعي منظم. وبهذا المعنى، لم تُفرغ شبكات التواصل الحرية فقط من بعدها السياسي، بل اختزلتها في حرية تعبير بلا أثر في تطوير المؤسسات وتعزيز المسارات الديمقراطية..

هذا يجعلنا نستنتج أن شبكات التواصل الاجتماعي لم تفشل لأنها حدّت من الحرية، بل لأنها كشفت أن الحرية لا تتحقق بالتقنية وحدها. فالحرية، بوصفها «قيمة» حضارية وإنسانية، تظل مشروطة بوجود نظام سياسي منفتح، ومجال عام ناضج، وثقافة أخبار مهنية قادرة على تحويل التعبير إلى مساءلة، والمشاركة إلى ديمقراطية فعلية.

مجلة رهانات: مع تراجع دور المؤسسات التقليدية، الأحزاب والنقابات، هل يمكن للشبكات الرقميةأن تؤسس لفعل سياسي مستدام، أم إنها تكتفي بإنتاج "احتجاجات لحظية" تفتقر إلى العمق الإيديولوجي والتنظيمي؟

يُطرح سؤال قدرة الشبكات الرقمية على تأسيس فعل سياسي مستدام، في ظل تراجع دور الأحزاب والنقابات، بوصفه سؤالاً سياقياً قبل أن يكون تقنياً أو تنظيمياً. فالشبكات لا تنتج السياسة تلقائياً، بل تعكس درجة نضج البيئة الاجتماعية والسياسية التي تشتغل داخلها.

في مجتمعات بلدان الشمال، تُظهر التجربة أن الشبكات الرقمية قادرة على دعم فعل سياسي مستدام عندما تتوافر شروط بنيوية محددة. أول هذه الشروط هو مستوى متقدم من الوعي المجتمعي، حيث يبرز "مواطنون جديرون" بالمعنى المدني للكلمة: أفراد مستقلون، أحرار، واعون بحقوقهم وواجباتهم، وقادرون على تحويل الاتصال الرقمي إلى فعل منظم. هنا لا يكون المواطن تابعاً للمنصة، بل فاعلاً داخلها.

ويتمثل الشرط الثاني في وجود فضاء عام رقمي متفاعل مع الفضاء العام الفيزيائي. فالاحتجاج الرقمي لا يبقى حبيس الشاشة، بل ينتقل إلى الشارع، البرلمان، القضاء والمؤسسات التمثيلية، الأحزاب، النقابات، هيئات المجتمع المدني، ضمن منطق تكاملي بين النقاش العمومي والفعل السياسي. ويُعزز هذا التكامل وجود بنى سياسية ديمقراطية تسمح بتحويل المطالب الرقمية إلى سياسات عمومية وقرارات خاضعة للمساءلة.

إضافة إلى ذلك، فوجود صحافة حرة ومستقلة تؤدي دور الوسيط النقدي، وتربط بين الفعل الشبكي والرأي العام الواسع، وتحمي النقاش من الشعبوية والتبسيط والانفعال، وتعد شرطا أساسيا. ويكتمل هذا المسار بوجود هيئات مؤسساتية قوية للوساطة والرقابة، محاكم، برلمانات، هيئات مستقلة، تضمن استدامة الفعل السياسي وتحويله من ضغط ظرفي إلى مسار إصلاحي.

في المقابل، تبدو الصورة أكثر تعقيداً في بلدان الجنوب. فهنا تصطدم الشبكات الرقمية بجملة من العوائق البنيوية: الفجوة الرقمية، وانتشار الأمية الأبجدية واللغوية والرقمية والسياسية، وضعف الثقافة الديمقراطية، مما يجعل الفعل الشبكي هشاً وسريع التبخر. كما أن مجتمعات كثيرة لم تُنجز بعد بناء دولتها الوطنية على أسس مؤسساتية صلبة، وتعيش تحت ثقل بنى قبلية وطائفية وعشائرية، وأنظمة بيروقراطية سلطوية تعيد احتواء الاحتجاج بدل الاستجابة له.

تُضاف إلى ذلك شبكات الفساد والعوامل العقائدية المغلقة التي تحاصر إمكان التحول، وتحول الشبكات إلى فضاءات تعبئة عاطفية واستقطاب حاد، أكثر منها أدوات تنظيم وبرمجة سياسية. في هذا السياق، تُنتج الشبكات غالباً احتجاجات لحظية قوية في التعبير، ضعيفة في الاستدامة، لأنها تفتقر إلى العمق الأيديولوجي، والوساطة التنظيمية، والقدرة على التراكم.

كخلاصة للجواب على السؤال، نؤكد أن الشبكات الرقمية يمكن أن تؤسس لفعل سياسي مستدام حين تكون جزءاً من منظومة ديمقراطية مكتملة، لكنها في غياب هذه الشروط تتحول إلى مساحات تفريغ غضب، لا إلى أدوات تغيير بنيوي.

مجلة رهانات: إذا كان المثقف قد اضطلع تاريخيا بدور حامل القيم الكونية، وعلى رأسها الحرية وحق التعبير والمسؤولية الأخلاقية، فإلى أي حد أسهم صعود «المؤثر

الرقمي» في إعادة توزيع الشرعية الرمزية داخل الفضاء العمومي؟ وهل يمكن القول إن شبكات التواصل الاجتماعي همشت دور المثقف أم أعادت تعريفه؟

للإجابة عن سؤال قيمة الحرية وما إذا كانت شبكات التواصل الاجتماعي قد عزّزتها أم أفرغتها من مضمونها، لا بد من الانطلاق من المسار التاريخي لتطور بنية الأخبار في العالم العربي. فثقافة الأخبار لم تكن حيادية أو طبيعية، بل تشكّلت تاريخياً داخل بنى سلطوية جعلت الخبر أداة للضبط السياسي أكثر منه أداة للتحرر..

في مرحلتها الأولى، تشكّلت ثقافة الأخبار العربية بصفتها ثقافة سلطوية إدارية مرتبطة بالدولة الاستعمارية ثم بالدولة الوطنية الناشئة، حيث كان الخبر خطاباً نازلاً يهدف إلى التوجيه وبناء الشرعية. ومع صعود الصحافة الوطنية في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، انتقلت جزئياً إلى ثقافة نهضوية تحررية، لعب فيها الإعلام دوراً تعبويّاً في بناء الوعي الوطني والمطالبة بالإصلاح والاستقلال. غير أن هذه الدينامية سرعان ما انتكست بعد الاستقلال، إذ استعادت الدولة الوطنية السيطرة على الإعلام، وأُعيد إنتاج ثقافة أخبار قائمة على الطاعة والتعبئة لا على المساءلة.

مع ظهور الإنترنت وشبكات التواصل الاجتماعي، بدا كأننا أمام لحظة تحرر اتصالي غير مسبوقة. فقد كُسر احتكار الدولة للمعلومة، وبرز المواطن بمثابة فاعل إخباري، وظهرت أشكال أولية من المجال العمومي الافتراضي. في هذا المعنى، عزّزت الشبكات الاجتماعية حرية التعبير من حيث الإتاحة التقنية وسرعة التداول وتعدد الأصوات. لكن هذه الحرية بقيت سطحية وهشة، لأنها لم تستند إلى تحول موازٍ في النظام السياسي أو في بنية المجال العام.

فالمشكلة ليست في التقنية ذاتها، بل في البيئة السياسية الحاضنة لها. فالدول العربية، بمختلف نماذجها السلطوية أو المتأرجحة، طوّرت قدرة عالية على استعادة السيطرة على الفضاء الرقمي عبر القوانين الزجرية، والرقابة الخوارزمية، وحملات التضليل، و"الذباب الإلكتروني". وهكذا، تحوّل الفضاء الرقمي من مجال لتحرير المعنى إلى أداة لتحديث السلطوية.

إضافة إلى ذلك، يعاني المجال العربي من جنينية الفضاء العام، وضعف الوعي النقدي، واستلاب الفرد سياسياً وثقافياً. فغياب تقاليد التداول العقلاني والمؤسسات الوسيطة جعل النقاش الرقمي ينزلق نحو الانفعال، والاستقطاب، والفردنة، بدل أن يتحول إلى فعل سياسي جماعي منظم. وبهذا المعنى، لم تُفرغ شبكات التواصل الحرية فقط من بعدها السياسي، بل اختزلتها في حرية تعبير بلا أثر في تطوير المؤسسات وتعزيز المسارات الديمقراطية..

تاريخياً، اضطلع المثقف بدور حامل القيم الكونية: الحرية، العقلانية النقدية، المسؤولية الأخلاقية، وإنتاج المعنى خارج منطق السوق والسلطة. كانت شرعيته تقوم على المعرفة العميقة، الاستقلال النسبي، والقدرة على الربط بين الخاص والعام.

مع شبكات التواصل الاجتماعي لم تُلغَ هذه الشرعية، لكن أُعيد توزيعها. فالمؤثر الرقمي لا يستمد مكانته من العمق المعرفي أو الموقف النقدي، بل من الرؤية والانتشار والتفاعل. الشرعية هنا تداولية-خوارزمية: من يُشاهَد أكثر يُصدَّق أكثر. هذا لا يعني أن المؤثرين أو النشطاء حلّوا محل المثقف، بل يعني أن معايير الاعتراف تغيّرت: من الشرعية المعرفية إلى الشرعية الاتصالية.

داخل الفضاء العام الجنيني في المجتمعات العربية تساكن المثقف وباقي الفاعلين (الناشط، الصحافي، النشطاء، الدعاة والمؤثرين) على أساس اختلاف الوظائف لا صراع القيم. فالمثقف ينتج الإطار المفاهيمي والمعنى طويل الأمد، بينما الصحافي يترجم الحدث إلى خبر قابل للتداول. في حين أن الناشط يحرّك الفعل ويعبّئ، والمؤثر يوسّع دائرة الوصول ويؤثر في المزاج العام. المشكلة تبدأ حين تختلط الأدوار: عندما يُطالَب المثقف بأن يكون مؤثراً، أو حين يُنصّب المؤثر نفسه مرجعاً معرفياً.

في السابق، قاد المثقف التغيير الاجتماعي عبر إنتاج المعنى والتأطير القيمي، بينما اضطلع الصحفي بدور الوسيط الناقل للخبر، وأسهم الناشط في التعبئة الميدانية، وظل الداعية فاعلاً

رمزياً يؤطر القيم الدينية، في حين مثّل الجيش أداة ضبط سيادي خارج النقاش العمومي. اليـوم، أعـادت الشبكات الرقمية توزيع الأدوار: تقدّم المؤثر بوصفه صانع مزاج عام، وتراجع تأثير المثقف اتصاليًا دون أن يفقد وظيفته النقدية. الصحفي أصبح ميسّر نقاش، والناشط لحظي التعبئة، والداعية رقمي التأثير، فيما بقي الجيش خارج التداول حاضراً بوصفه سلطة صامتة تؤطر حدود المجال العمومي.

إذا ما نظرنا إلى الأمر وحللناه من خلال براديغم المعرفة، نلاحظ أن قاعدة هرم المعرفة تضم البيانات والأخبار غير الكاملة بينما العتبة الثانية تضم المعلومة. وهو ما يعني أن الشبكات الرقمية قوية في القاعدة، ووسائل الإعلام في الوسط بالعتبة الثانية، لكن العتبة الثالثة في قمة الهرم ضعيفة. مما يعني أن دور المثقف لا يرقى إلى تحويل الضجيج إلى معنى.

صحيح أن شرعية المثقف والسياسي تآكلت بفعل الاستقطاب، السوق، والخوارزميات، لكن هذا التآكل يستدعي إعادة بناء الدور لا إعلان نهايته. ومع الذكاء الاصطناعي، تصبح الحاجة إلى الذكاء البشري النقدي أشـدّ: التمييز، الحكم القيمي، والسؤال الأخلاقي. لا تستطيع الخوارزميات إنتاج معنى مسؤول؛ تستطيع فقط مضاعفة ما هو رائج. لذلك، لم تُهمّش الشبكات المثقف بقدر ما فرضت عليه إعـادة تعريف موقعه: أقل وعظاً، أكثر شرحاً؛ أقل وصاية، أكثر مشاركة؛ وأشدّ تمسكاً بدوره حارسا للمعنى في زمن السرعة.

مجلة رهانات: هل تمتلك علوم الإعـلام والاتصال أدوات تحليلية قادرة على تفكيك "الواقع الرقمي المعقد الحالي؟ أم إننا بحاجة إلى "إبستيمولوجيا جديدة" تتجاوز المناهج الكلاسيكية؟

تُـواجِـه علوم الإعـلام والاتـصـال في الراهن الرقمي مأزقاً إبستيمولوجياً يتجاوز مجرد التحديث التقني ليصل إلى عمق الأدوات التحليلية وقدرتها على التفكيك، حيث يظهر جلياً أن النظريات الكلاسيكية (السلطوية، الليبرالية، والمسؤولية الاجتماعية) باتت تعاني من "عجز بنيوي" بالاعتماد على النظريات التقليدية في علوم الإعـلام والاتصال، هو عجز تفاقم أمام تعقيدات الواقع الرقمي الجديد والذكاء الاصطناعي. إن هذا القصور ينبع أساساً من كون هذه الأطر قد صِيغت ضمن سياقات تاريخية وديمقراطية غربية لا يستقيم إسقاطها على واقع الإغرم والإتصال بالعالم العربي، ونجدها تفتقر للمفاهيم التفسيرية القادرة على استيعاب السياقات الخاصة والمتنوعة بالمنطقة العربية، إضافة إلى عجز إضـافي عن فهم آليات "السيادة الرقمية" و"خوارزميات الصندوق الأسود" التي أعـادت صياغة مفهوم حـارس البوابة، وحولته من فاعل بشري قيمي إلى فاعل تقني يهدف لتعظيم التفاعل عـلى حـسـاب الحقيقة والمسؤولية الاجتماعية.

وفي سياق هذا التحليل المعمق، يتبين أن الذكاء الاصطناعي التوليدي ليس مجرد أداة محايدة، بل هو "انعكاس لموازين القوى المعرفية"، التي تكرس هيمنة الثقافة الغربية عبر نماذج لغوية كبرى تغذت على بيانات لا تعكس بالضرورة الخصوصيات الهوياتية أو السياسية للمجتمعات العربية. هذا الواقع يفرض على الباحثين ضرورة الانتقال من مرحلة "الإسقاط الإشكالي" للنظريات الجاهزة إلى مرحلة "التبلد المعرفي الذاتي" عبر بناء إبستمولوجيا بديلة. هذه البدائل يجب أن ترتكز على تفكيك "الأرثوذكسية التقنية" وفهم كيف يتم تشكيل الرأي العام الرقمي في بيئة تتداخل فيها العوامل الدينية والقبلية والسلطوية، وتغيب فيها مفاهيم الشفافية والمساءلة بمعناها المؤسساتي الغربي، مما يجعل الأدوات التقليدية قاصرة عن فهم ديناميات "التزييف العميق" والتضليل الممنهج الـذي يمارسه الفضاء الشبكي المعاصر.

أمـام هذا تبرز الحاجة إلى صياغة إطار تحليلي نقدي يدمج بين التقنية والسياق السوسيو-سياسي المحلي، فبدون تطوير أدوات قادرة على تحليل "البيانات الضخمة" وفـهـم آلـيـات السيطرة الخوارزمية ستظل علوم الإعلام والاتصال تراوح مكانها في وصف الظواهر، دون القدرة على النفاذ إلى جوهر التغيرات البنيوية التي أحدثها الذكاء الاصطناعي في بنية الخطاب الإعلامي والسيادة المعرفية.

مـجـلـة رهـــانـــات: في أفـق "الميتافيرس" والذكاء الاصطناعي التوليدي، كيف تتوقعون شكل الـــصراع الاجـتـمـاعـي الـقـادم؟ بمعنى هل سيظل "الإنسان" هو الفاعل الـمـحـوري في العملية التواصلية؟

تتجلى التحديات الإبستيمولوجية لهذا التحول في مستويين متداخلين: مستوى أول يتمثل في عجز النظريات التقليدية للإعلام (السلطوية، الليبرالية، المسؤولية الاجتماعية) عن تفسير الواقع العربي المعاصر. فهذه الأطر نشأت في سياقات تفترض مسبقاً وجود "مجتمع مدني" حي وفضاء عام مستقل، بينما يتسم السياق العربي بمركزية سلطوية وهيمنة دولتية تـرفـض التعددية المـؤسـسـاتـيـة. وثـان حـيـث عمقت تقنيات الذكاء الاصطناعي من مأزق هذه النظريات عبر تفكيك ركائزها الكلاسيكية. فمفهوم "حارس البوابة" الذي كان يجسده المحرر البشري المسؤول تـلاشى لصالح "مـع الخواريزميات"، التي تفتقر للمسؤولية الأخلاقية وقوة قـادرة على ترسيخ سلطوية رقمية جديدة.

في ظل التموجات المتسارعة التي يفرضها "الميتافيرس" والذكاء الاصطناعي التوليدي، يـبرز صراع اجتماعي ذو طبيعة "إبستيمولوجية" ووجودية مغايرة؛ حيث لم يعد التدافع محصوراً في السيطرة عـلى المـوارد المـاديـة أو الجغرافيا الفيزيائية، بل انتقل إلى محاولة الاستحواذ على "بيئة الوعي" وامتلاك "الشيفرة السيادية". نحن نشهد اليـوم إعـادة هيكلة جذرية لـ"العقد الاجـتـمـاعـي" تتبلور من خلالها "أرستقراطية خوارزمية" عابرة للقوميات، تمتلك القدرة على تصميم الواقع الافتراضي وبرمجته وفق منطق يتجاوز السيادة التقليدية للدولة الوطنية، مقابل "بروليتاريا رقمية" تبيع أثمن ما تملك: "زمن الانتباه" وحيز الوعي، داخـل بيئات تسيطر عليها كارتيلات تكنولوجية كبرى.

إن هذا المشهد يعيد إنتاج مفهوم "العبودية" في لبوس متجدد، و"استعمار ناعمً للوعي"؛ حيث تعمل خوارزميات التوجيه على تدجين الإرادة الحرة عبر استجابات آلية مغلفة بوعود الرفاهية الرقمية.

ومع ذلك، يظل "الإنسان" هو المتغير العصي على الأتمتة، والفاعل المحوري المـنـوط بـه توجيه البعد الأخلاقي والقيمي وصناعة المعنى. فحسم الصراع القادم لن يكون بأدوات القوة الصلبة، بل بامتلاك "الوعي النقدي" والقدرة على "أنسنة التقنية"؛ سيبقى الإنسان هو المحرك والمبتدأ. ■

من كهف أفلاطون إلى الكهف الرقمي

عبد الرجاء لهديلي
باحث في الفلسفة وعلوم التربية
جامعة محمد الخامس الرباط

مقدّمة

تعيش المجتمعات المعاصرة، في ظل الانتشار الواسع لوسائل التواصل الاجتماعي، تحولات عميقة في أنماط الإدراك والسلوك والقيم. لم تعد هذه الوسائل مجرد أدوات تقنية للتواصل، بل تحولت إلى فضاءات رمزية تُعاد داخلها صياغة المعنى، وتُنتَج القيم، وتُوجَّه الرغبات، ويُعاد تشكيل الوعي الفردي والجماعي. ومن هنا تبرز الحاجة إلى مقاربة فلسفية تتجاوز التحليل التقني أو الأخلاقي المباشر، لتفكك الأسس العميقة لهذه التحولات.

في هذا السياق، تكتسي العودة إلى الفلسفة الجمالية أهمية خاصة، لأن السؤال القيمي اليوم لم يعد سؤالًا تشريعيًا أو أخلاقيًا فقط، بل أصبح سؤالًا إدراكيًا وجماليًا بالأساس: كيف نرى؟ كيف نشعر؟ كيف نتخيّل؟ وكيف تؤثر الصورة في تشكيل أحكامنا وسلوكنا؟ وهو ما يجعل أمثولة الكهف عند أفلاطون، رغم بعدها التاريخي، أداةً تحليلية راهنة لفهم طبيعة "الظلال" الجديدة التي تنتجها هيمنة الصورة في عصر الشاشات.

أمثولة الكهف: من الاستعارة الفلسفية إلى الواقع الرقمي

يشكّل أفلاطون أحد المنعطفات الأساسية في تاريخ التفكير الفلسفي في الفن والصورة، ليس لأنه قدّم رفضًا تبسيطيًا للفن، كما يُتداول أحيانًا، بل لأنه انتبه مبكرًا إلى القوة التربوية والسياسية للصورة، وإلى قدرتها على تشكيل الوعي، وتوجيه الرغبات، وإنتاج أنماط مخصوصة من القيم والسلوك. ومن هذا المنطلق، لا يمكن قراءة نقده للفن بوصفه موقفًا جماليًا صرفًا، بل باعتباره نقدًا ثُلاثيا(أخلاقي ـ تربوي ـ سياسي) ينشغل بسؤال: أيّ إنسان نصنع؟ وأيّ مواطن نُكوّن؟ وأيّ مدينة نريد؟

يقدّم أفلاطون نقده للفن في الجمهورية ضمن مستويات متعددة، تتكامل فيما بينها لتشكّل تصورًا متماسكًا لدور الصورة في المجتمع. ففي الكتاب الثالث، يركّز على البعد الأخلاقي والتربوي للقصص والأساطير التي يتلقّاها الأطفال والشباب، معتبرًا أن الدولة التي تتنازل عن مراقبة ما يُقال ويُعرض داخل فضائها الرمزي تُغامر بمصيرها السياسي. فالصور، في نظره، لا تمرّ عبر الوعي مرورًا بريئًا، بل تستقر في النفس، وتُشكّل الانفعالات، وتُنمّي أو تُضعف فضائل مثل الشجاعة، والاعتدال، والعدل. ولهذا كان حريصًا على ما يسمعه الجنود وما يشاهدونه، لأن بناء الشجاعة لا يتم فقط عبر التدريب الجسدي، بل عبر الخيال الذي يتغذّى بالصور والحكايات.

غير أن ذروة النقد الأفلاطوني للصورة تتجلّى في الكتاب السابع، من خلال أمثولة الكهف، التي تُعدّ من أكثر الاستعارات الفلسفية قدرةً على عبور الأزمنة. في هذه الأمثولة، لا يُقدَّم الكهف بوصفه مجرد مكان مظلم، بل بوصفه نظامًا كاملاً للإدراك، حيث لا يرى السجناء سوى ظلال لأشياء لم يصنعوها، ويعتقدون أن ما يُعرض عليهم هو الحقيقة ذاتها. ما يجعل الكهف خطيرًا ليس الجهل فقط، بل الاعتياد، والتطبيع مع الوهم، والطمأنينة إلى صورة لا تُختبَر ولا تُساءل.

إذا أُعيد تأويل هذه الأمثولة في سياقنا المعاصر، فإن وسائل التواصل الاجتماعي يمكن النظر إليها باعتبارها كهفًا بصريًا جديدًا، لا يقوم على الإكراه المباشر، بل على الإغواء، والتكرار، وسرعة التدفق. فالمستخدم لا يُجبَر على المشاهدة، لكنه يُغمر بسيل من الصور، والمقاطع، والتمثّلات التي تُعيد تشكيل ذوقه، وتوجّه اهتمامه، وتُحدّد ما يعتبره مهمًا أو ثانويًا، جديرًا بالإعجاب أو بالتجاهل. وهنا تشتغل الصورة الرقمية بوصفها وسيطًا قيميًا: لا تنقل القيم فحسب، بل تُنتجها ضمن منطق الفرجة.

هذا التحليل يكتسب اليوم راهنية لافتة إذا ما قورن بآليات اشتغال وسائل التواصل الاجتماعي، حيث تُمنح الصورة سلطة شبه مطلقة في توجيه الرأي العام، وصناعة النجومية، وتحديد معايير القبول الاجتماعي. فالمنصّات الرقمية لا تشتغل وفق منطق الحقيقة، بل وفق منطق الجذب والانتباه، أي وفق ما يثير، ويُدهش، ويُستهلَك بسرعة. وبهذا المعنى، لا تكون التحولات القيمية التي نشهدها اليوم نتيجة "فساد أخلاقي" بالمعنى التقليدي، بل نتيجة تحوّل في بنية الإدراك نفسها.

إن ما حذّر منه أفلاطون يتمثّل اليوم في خطر تطبيع الإنسان مع النسخة بدل الأصل، ومع التمثيل بدل التجربة الحية، ومع الصورة بدل العلاقة. فالقيم، حين تمرّ عبر وسائط الفرجة الرقمية، تتحول إلى شعارات بصرية، وتفقد عمقها الزمني والتجريبي. وهنا يصبح السؤال الأفلاطوني القديم سؤالًا معاصرًا بامتياز:من يتحكّم في الصور؟ وكيف تُصنع؟ ولصالح أيّ تصور للإنسان والمجتمع؟

بهذا المعنى، لا يدعونا أفلاطون إلى رفض الصورة أو الهروب من الفرجة، بل إلى الانتباه إلى قوتها، وإلى ضرورة إخضاعها لمسافة نقدية تربوية. فحين تُترك الصورة دون تربية جمالية، تتحول من أداة تواصل إلى أداة توجيه، ومن وسيلة تعبير إلى سلطة خفية تُعيد تشكيل القيم من الداخل. وهنا يتقاطع النقد الأفلاطوني مع الإشكال القيمي المعاصر: الأزمة ليست في التكنولوجيا ذاتها، بل في غياب وعيٍ جماليّ قادر على قراءة الصور بدل الارتهان لها.

تتجلّى خطورة وسائل التواصل الاجتماعي اليوم في كونها لا تشتغل فقط كوسائط لنقل المعلومات، بل كفضاءات لإنتاج المعنى وتوجيه القيم وصناعة الانفعالات. فالاستهلاك المكثّف للصور والخطابات الرقمية، دون امتلاك أدوات نقدية أو تربية جمالية تمكّن الفرد من التحليل والتفكيك، لا يخلق مواطنًا حرًا ومسؤولًا، بل يُسهم في تكوين ذات منفعلة، سريعة التأثر، قابلة للتوجيه، وضعيفة في الحكم القيمي. وهنا يلتقي هذا الواقع المعاصر مع ما كان أفلاطون يحذّر منه فيالجمهورية: فالمواطن الذي يُترك تحت سلطة الصورة والفرجة دون تربية، يصبح عاجزًا عن المشاركة الواعية في تدبير شؤون المدينة، ويتحوّل إلى كائن تحرّكه العاطفة، أو الخوف، أو الإعجاب السطحي، لا البحث عن الحق أو الصالح العام.

في السياق المغربي، تتخذ هذه الإشكالية أبعادًا أكثر تعقيدًا، لأننا نعيش صراعًا واضحًا بين نوعين من المعرفة: معرفة علميةـمؤسساتية تسعى المدرسة إلى نقلها عبر المناهج الرسمية، ومعرفة موازية تنتجها وسائل التواصل الاجتماعي خارج أي رقابة تربوية أو معيار معرفي. وغالبًا ما تنتصر هذه الأخيرة، لا لأنها أكثر صدقًا أو عمقًا، بل لأنها أكثر تأثيرًا على الحسّ والعاطفة.وهنا يظهر الخلل البنيوي: ما هو غير متحكَّم فيه مؤسساتيًا يصبح أكثر فاعلية من المعرفة التي تعقد عليها الدولة آمالها في بناء مواطن صالح، قادر على الاندماج، والاختيار، وتحمل المسؤولية.

لقد كانت المدرسة المغربية، في مراحل سابقة، في صراع مع أشكال أخرى من نقل المعرفة والقيم، مثل الخطابات الشعبية، والأساطير، وبعض الممارسات الاجتماعية التقليدية، وسعت إلى استبدالها بمعرفة علمية عقلانية، مصحوبة بقيم أخلاقية كونية. غير أن هذا الصراع اليوم لم يعد يدور داخل الفضاء العمومي المادي فقط، بل انتقل إلى الفضاء الافتراضي، حيث تتكاثر القنوات، وتتداخل الخطابات، وتُعاد صياغة القيم في شكل صور، ومقاطع قصيرة، وشعارات مؤثرة، يصعب على المدرسة منافستها بالوسائل التقليدية. ولم يعد كافيًا أن تقتحم المدرسة الفضاء العام، بل أصبح لزامًا عليها أن تعيد التفكير في موقعها داخل الفضاء الرقمي نفسه.

ولا يعني هذا إنكار الطابع التاريخي الحتمي لوسائل التواصل الاجتماعي، فهي إفراز لتطور تقني لا يمكن تجاوزه أو إلغاؤه، لكن السؤال الحقيقي هو: كيف نوظّفها؟ وكيف نُخضعها لتربية جمالية بدل أن نخضع لها؟ فكل ما يُرى ويُسمع داخل هذه الوسائط يؤثر مباشرة في الوجدان، والعاطفة، وبناء الشخصية. ولهذا، فإن معالجة مشكلات مثل العنصرية، أو العنف الرمزي، أو التطرف، لا يمكن أن تتم بالقانون وحده، بل يجب أن تُعالج على مستوى الحسّ والصورة قبل القاعدة والتشريع. فقبل توجيه الإنسان بالتعاقد والقواعد، لا بد من توجيهه بالحسّ والمتخيّل.

إن وسائل التواصل الاجتماعي هي، في جوهرها، مجال للانفعال قبل أن تكون مجالًا للتواصل العقلاني. صورة واحدة قادرة على تغيير توجه إنسان أكثر مما تفعله سلسلة طويلة من الحجج العقلية. ولهذا لم يعد غريبًا أن تسعى الشركات الكبرى إلى الاستثمار في الصورة بوصفها أداة دعـايـة، ولا أن تعتمد الحملات السياسية على المنطق نفسه. إننا أمام اقتصاد للصورة يُعيد تشكيل الرغبة والقيم، ويجعل الإنسان معرّضًا للهيمنة الرمزية دون أن يشعر.

من هنا، لا يبدو الخروج الكلي من "الكهف الرقمي" ممكنًا أو واقعيًا، لكن الممكـنـبل الضروري ــ هو إيجاد معنى للعيش داخله. فبدل مقاومة التحول الرقمي بوصفه خطرًا مطلقًا، يصبح الرهان هو بناء وعي جمالي نقدي يسمح للإنسان بأن يعيش في هذا العالم المتغير دون أن يفقد حريته، وأن يتفوّق داخله بدل أن يُسحق بقوانينه.

يتّضح، انطلاقًا من هذه المعطيات، أن ما نعيشه اليوم لا يقتصر على تحوّل في وسائل التواصل، بل يمسّ في العمق شروط إنتاج المعنى ذاته. فحين تنتشر الخرافة ونظريات المؤامرة والخطابات الزائفة، لا بوصفها معرفة هامشية، بل كأنماط تفسير بديلة للعالم، نكون أمام خلل في العلاقة بين الحسّ والعقل، وبين الانفعال والحكم. هذا الخلل لا ينتج فقط عن ضعف في التعليم أو غياب الرقابة، بل عن سيادة منطق بصري-عاطفي يجعل الصورة أكثر إقناعًا من البرهان، والانفعال أسرع تأثيرًا من التفكير المتأني. وهنا تتجسّد الإشكالية التي نبّه إليها شيلر مبكرًا: حين يُغذّى الحسّ دون تربية جمالية، يفقد الإنسان قدرته على التمييز، ويصبح قابلًا للتوجيه حتى وهو يعتقد أنه يختار بحرية.

إن هذا التحول المتسارع للمجتمع، خصوصا على المستوى التكنولوجي، انعكس على منظومة القيم بشكل كبير وواضح،حيث لم تعد تُبنى داخل زمن اجتماعي طويل، ولا عبر التجربة المشتركة، كما أكن يحث في المجتماعت التقليدية، بل تُعاد صياغتها في شكل صور ونماذج عابرة للحدود، تُستهلك وتُتداول بسرعة، دون مساءلة أو تأويل. وبهذا المعنى، لا نكون أمـام تفاعل ثقافي خلاق، بل أمام استنساخ قيمي يضعف الخصوصية دون أن ينتج كونية واعية، ويحوّل القيم إلى تمثيلات قابلة للتداول أكثر منها معاني متجذّرة في التجربة. فتغير بنية الإدراك والفرجة لم ينعكس فقط على السلوك الفردي، بل أعاد تشكيل شروط المواطنة نفسها. فالتنشئة الاجتماعية لم تعد قادرة على بناء مواطن قادر على الاختيار والمشاركة الواعية في تدبير الشأن العام، بقدر ما أصبحت تقدم لنا مواطنا مستهلكًا للصور والخطابات، سريع التأثر، ضعيف الذاكرة، ومفتقرًا إلى المسافة النقدية. عند هذه النقطة بالذات، يصبح من الضروري العودة إلى الجذور الفلسفية الأولى التي فكّرت في علاقة الصورة بالقيم والسياسة، لا من باب الحنين إلى الماضي، بل من أجل فهم الحاضر. وهنا يكتسب النقد الأفلاطوني راهنيته، بوصفه محاولة مبكرة لفهم كيف يمكن للفرجة، حين تُترك دون تربية، أن تُنتج مواطنًا منفعلاً بدل مواطن فاعل.

في هذا السياق، لا يبدو ما نعيشه اليوم مجرد انحرافات عرضية في استعمال وسائل التواصل الاجتماعي، بل أعراضًا لأزمة أعمق في بنية الإنسان الحديث، وهي الأزمـة التي شخصها فريديريك شيلر في نهاية القرن الثامن عشر. فشيلر لم يكتب «رسائل في التربية الجمالية للإنسان» انطلاقًا من سؤال فني صرف، بل من تشخيص لوضع إنساني وسياسي اختلّ فيه التوازن بين الحسّ والعقل، وبين القاعدة والقيمة، وبين القانون والحياة. لقد أدرك شيلر أن المجتمعات التي تهيمن فيها العقلانية الأداتية أو

نافذة فكرية : من كهف أفلاطون إلى الكهف الرقمي

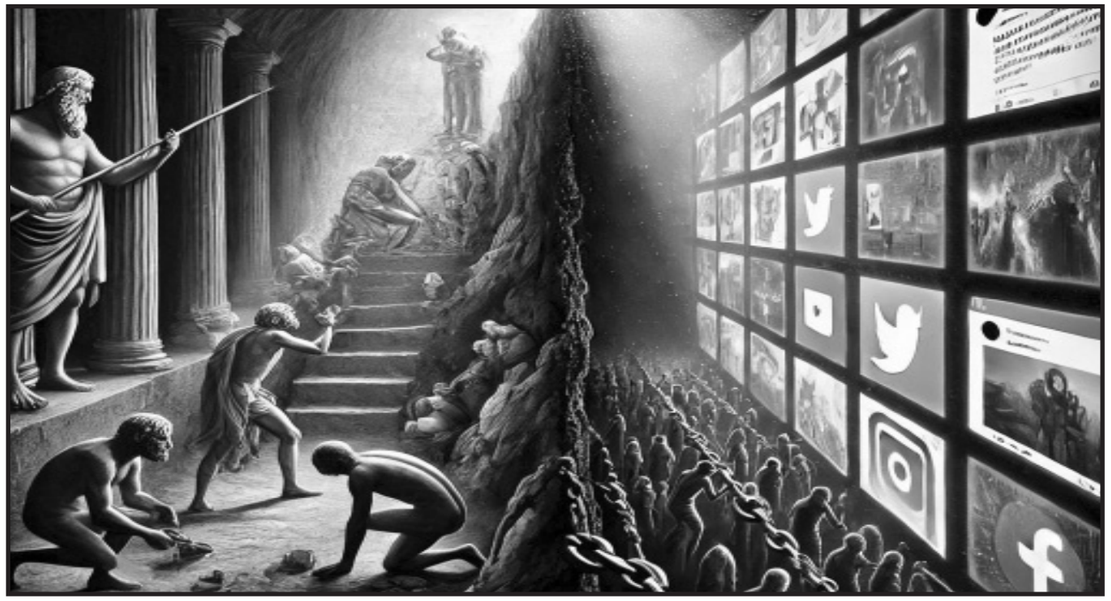

الانفعالية العمياء تُنتج أفرادًا منضبطين أو مستهلكين، لكن لا تُنتج مواطنين أحرارًا.

وإذا كان أفلاطون قد حذّر من سلطة الصورة حين تنفصل عن الحقيقة وتتحول إلى أداة تضليل سياسي، فإن شيلر يبيّن أن الخطر لا يكمن في الحسّ ذاته، بل في تغذيته دون تربية جمالية. فحين يُستثار الحسّ باستمرار- كما يحدث اليوم في فضاءات التواصل الاجتماعي-دون أن يُصاحب ذلك تكوين للذوق، وللقدرة على المسافة والتأمل، يصبح الإنسان قابلًا للتلاعب، ليس لأنه جاهل، بل لأنه مُختزل في بعد واحد من وجوده. وهنا تُعيد أطروحة شيلر إثارة انتباهنا إلى اقعنا الرقمي(رغم أن شلر كان مشغولا بهموم عصره في ذلك الوقت لكن بما أن المشكل قد تكرر بشكل أخر فاستدعاء أطروحته له راهنيته): فوسائل التواصل الاجتماعي لا تخاطب العقل بقدر ما تخاطب الانفعال، ولا تبني الحكم بقدر ما تسرّع الاستجابة، وهو ما يكرّس إنسانًا ممزقًا بين وعي معرفي ضعيف وحسّ متخم بالصور.

هذا التحول الرقمي الكبير، سبق أن نبه اليه عبدالله العروي اثناء حديثه عن الانسان الذي يعيش حداثته على مستوى الأدوات والصور....، دون أن يمتلك وعيًا تاريخيًا قـادرًا على استيعاب شروطها وقيمها. فالأزمة، في جوهرها، ليست أزمة تقنيات، بل أزمة وعي يتلقى التحولات دون أن يؤوّلها أو يدمجها في مشروع ثقافي ذاتي. وهو ما يجعل وسائل التواصل الاجتماعي، في السياق المغربي، امتدادًا لهذا الانفصال: حداثة رقمية مكثفة، تُستهلك بصريًا، دون أن تُعاد صياغتها داخل أفق قيمي وتربوي واعٍ.

بهذا المعنى، لا تكمن خطورة الوسائط الرقمية في ما تتيحه من إمكانات، بل في الوعي الذي يتعامل معها بوصفها صورًا جاهزة بدل أن يحوّلها إلى خبرة ذات معنى. فالرهان اليوم ليس في رفض التحول الرقمي أو الارتماء فيه، بل في بناء وعي تاريخي-جمالي يسمح للإنسان بأن يسكن هذا العالم الجديد دون أن يفقد قدرته على الحكم، والاختيار، والمشاركة. وهنا تلتقي الأسئلة التي طرحها أفلاطون قديمًا حول الصورة والتربية، مع انشغالات الفكر المعاصر حول الوعي والحداثة، في تأكيد أن الأزمة القيمية الراهنة هي قبل كل شيء أزمة في طريقة فهمنا للعالم ولأنفسنا داخله. ■

اتجاهات البحث الأجنبية و العربية في منصات السوشيل ميديا: منصة أنستغرام نموذجا

روضة القدري
باحثة في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا
معهد الدوحة للدراسات العليا بقطر

الملخص

تمثل هذه الورقة قـراءة تأليفية في اتجاهات البحوث حول وسائل التواصل الاجـتـماعـي (Social Media) وأهـم نتائجها، بين ما يُنتج في الفضاءات العربية وغـير العربية، مع التركيز على مؤثري الإنستغرام(Instagram). وتتضمّن الورقة قراءة نقدية في مناهج البحث والنظريات المعتمدة ومراجعات للنتائج. إنّالاطلاع ولـو بشكل سريـع وغـير شامل على ما ينتج في الفضاءين يسمح بتبيّن الاهتمام الواسع الذي تحظى به منصات التواصل الاجتماعي، الاّ أن الأسئلة والمنطلقات والأدوات المختلفة تشير الى أنّ قدرا هاما من الدراسات المنتجة في الفضاءات العربية يصطبغ بنزعة أخلاقوية ومحافظة في قراءة الظاهرة، مع التركيز على موضوعات دون أخرى، ما لا يسمح بفهم حجم التحولات الحادثة،ولاخصوصياتها، ويجعل البحوث المنتجة في الفضاءات العربية منفصلة أو متباعدة عمّا تدلّ عليه من تحولات في الهوية وفي القيم.

Abstract

This paperrepresents a syntheticreading of research trends on social media and its main findings, betweenwhatisproduced in Arab and non-Arab spaces, with a focus on Instagram influencers. It also includes a critical reading of the research methods and theories adopted and reviews of the results. A brief yet not exhaustive look at what is being produced in the two spaces allows us to recognize the widespread interest in social media platforms.

However, the different questions, premises, and tools indicate that a significant part of the studies produced in the Arab spaces are characterized by an moralistic and conservative approach to reading the phenomenon, focusing on topics rather than others, which does not permit an understanding of the magnitude and specificity of the transformations taking place, related to Social Media, specifically the shifts in identity and values that take place through these platforms.

كلمات مفتاحية: تواصل اجتماعي- انستغرام – مؤثرات- قيم- شهرة.

مقدّمة

تـولّـد اهتمامنا بمنصات التواصل الاجتماعي/السوشيل ميديا (Social Media/SM) [1] نظرا لما نعايشه من انتشار كبير لاستعمال هذه المنصات عبر أرجاء العالم ولتحوّلها إلى فاعل سياسي واقتصادي وثقافي ذات تأثير. وقد أتى اختيارنا لمنصة انستغرام (Instagram)[2] التي تقوم على عرض الذات عبر الصورة التي تخلق التفاعلات حولها، ممّا من شأنه المساعدة على فهم ديناميات الهوية الذاتية المعاصرة وعمليات الاشتغال عليها. وقد قمنا بإعداد دراسة حول النساء مؤثرات الإنستغرامالخليجيات [3]، مما مكّننا من الاطلاع على عدد هام من الدراسات حول موضوع SM ومؤثريها من سياقات متباينة، في الشرق والخليج وفي السياقات غير العربية، حيث توزعت على اختصاصات مختلفة كانت أبرزها علوم الاتصال والميديا والتسويق والصحافة والسوسيولوجيا والأنثروبولوجيا. وقد غذّى هذا الاكتشاف الفضول المعرفي لفهم اتجاهات البحوث والدراسات حول هذا الموضوع لما له من أهمية.

تمثل هذه الورقة قراءة تأليفية حول اتجاهات البحوث حول SM وأهم نتائجها، مع التركيز على موضوع مؤثري الإنستغرام، بين ما يُنتج في الفضاءات العربية وغير العربية. وعلى الرغم من تعدّد الموضوعات في هذا الصدد، فأني اخترت التركيز على محورين أوّلهما حول جدليات الشهرة والتسويق التجاري والتسويق الـذاتي، وثانيهما حول الحضور النسائي على هذه الفضاءات وما يثيره من أسئلة التمكين وتغيّر مواقع النساء. إثر ذلك، أستعرض بعضا من أوجـه الاختلاف بين البحوث العربية وغير العربية حول قضايا SM،سواء على مستوى الموضوعات أو المناهج أو الأطـر النظرية والتحليلية المستخدمة، حيث أعتبر أن اتجاهات البحوث هي ذات دلالة كبرى حول مكانة العلوم الاجتماعية ودورها في سياق ما، بالنظر لما يطرأ ويتغير في المجتمعات، وأن عدم التوازي بين المعرفة والواقع هو سبب ونتيجة لظواهر أخرى غير منفصلة.

اتجاهات الدراسات وخلاصاتها

لم يكن المـؤثـرون مـوضـوع اهتمام البحوث الاجتماعية الاّ خلال السنوات الأخيرة، وقد سبقه اهتمام كبير بثورة ال SM وآثارها منذ مؤلف نعتبره تأسيسيا ل[4] (Papacharissi , Zizi(2012 والذي تطرّق مؤلفوه للتغيرات الواقعة على مفهوم الهوية وتعبيراتها والفعل الثقافي والجماعي بفعل شبكات التواصل. من بين طروحات الكتاب فكرة وقع تجاوزها لاحقا عن الفصل بين الواقعي والافتراضي، وبين البيذاتي(inter-individual)الفعلي والالكتروني، حيث أن وسائل التواصل تطورت في اتجاه تطابقها مع ميكانيزمات الواقع، و يعود ذلك في قسم كبير منه الى الإتاحات (affordances) التي لا تنفك تتطور . ويؤكد مؤلفو الكتاب بـأنّ الSM ليست فقط فضاءات وصل وتواصل بين الناس بل هي فضاءات تغيير على نطاق واسع عبر شبك الناس، ومن خاصيات هذا التشبيك اعطاء إمكانية المشاركة على الفضاء دون ظهور مرئي بالإضافة الى صعوبات حصر الإطار الزماني والمكاني لهذه التفاعلات وتداخل العامّ فيها بالخاص. وأبرزت المساهمات ضمن هذا المؤلف الجماعي بأن الSM هي فضاءات لعرض الهوية و صور الذات وإقامة صور عنها و مفاوضتها وخلق شبكات شخصية تنقسم بين الأصدقاء والمقصيّين من دائرة الصداقة، وهي أيضا فضاءات قد تتعزّز فيها الهوية وصورها وقد توضع محلّ سؤال بفعل التفاعلات والمشاركات (like and share). إنّ الاعتراف العلمي بنهاية الفصل بين الواقعي والافتراضي، وبمركزية الهويات وسجالاتها على هذه الفضاءات، هو الذي ساهم في الاهتمام الـذي نشهده اليوم بالمؤثرين وبأدوارهم المجتمعية المختلفة (سياسية، اقتصادية، ثقافية).

بشكل عام، اتصلت أهم القضايا التي أثيرت ضمن البحوث حول الSM وفاعليه بدراسات التحولات الطارئة على مستويات عديدة بفعل الSM أو في علاقة بها، مع وجود عدّة تقاطعات ضمن الدراسات من مختلف الاختصاصات بين السؤال الاقتصادي والاجتماعي والإعلامي والهوياتي على سبيل المـثـال. من أهم المقاربات البحثية المتصلة نجد الدراسات ذات الاشكاليات الاعلامية media(أي الاعلام في تحولاته من الأشكال الكلاسيكية الى الأشكال المعاصرة المتركزة حـول ال SM وفاعليه وأدواته وتقنياته و جمهوره وحيث تطرح قضايا الشهرة والصورة بشكل مركزي) في تشابك مع الدراسات التي تطرح قضايا الاستهلاك والتسويق وتحولاتها على هذه المنصات. وتتأطر بحوث أخرى ضمن المقاربة النسوية والجندرية التي تطرح إشكالات الوجود النسائي على منصات التواصل كونها منصات " ديمقراطية" أي مفتوحة لاستعمال الجميع على اختلاف السن والجنس والدين والأصـول...الـخ وآثار ذلك على النساء من حيث التمكين

الهوامش

1- نعتمد في الورقة SMاختصارا ل Social media

2- نعتمدفي الورقة Insta اختصارا ل Instagram

3- مقال بصدد التحكيم للنشر

4- Papacharissi, Zizi, ed. A Networked Self: Identity, Community and Culture on Social Network Sites. New York: Routledge, 2011.

وحرية التعبير والخروج من تقييدات المنظومات المعيارية الأبوية السابقة وحدود هذه "الفرص". ويمكن القول أنّ مجمل البحوث تعرّج بدرجات مختلفة على أسئلة ذات طابع ثقافيو اجتماعي، ونقصد من ذلـك تواتر أسئلة التحول الثقافي والاجتماعي في ضوء التحول الرقمي من قبيل أسئلة الهوية والحرية والانفتاح والعولمة والخصوصية الثقافية والتجانس والحدود والتراتبية والطبقية، ساعية الى توضيح حدود تحقق ما تعد به منصّات SMمن تعبير عن الخصوصيات المختلفة في فضاءات معولمةونيوليبرالية يحكمها صنّاع التقنية والثقافة. وتتطرق الدراسات حتما لمواضيع أخرى، من قبيل الناشطية أو الفعل الجماعي التغييري (activism and militantism) المتاح عبر الSM، كما تدرس عدد هام من المقالات البعد التقني لهذه المنصات من حيث إتاحاتهاالتقنية المتطورةباستمرار، على أنّ هذا البعد لا يمثل موضوعا بحثيا بعينه بقدر ما يتم التعرّض اليه بشكل يتقاطع (transversal) مع الإشكاليات المخصوصة للدراسات المتنوعة.

1. الشهرة في تقاطع مع التسويق التجاري والتسويق الذاتي

يقع هذا الموضوع في صلب الإشكاليات التي يمكن تبويبها ضمن مجال الإعلام/ الميديا، حيث يـدرس باحثون أصناف المؤثرين والمشاهير الجدد في مقارنات مع المشاهير الكلاسيكيين. ويفرّق عدد من الباحثين بينالمشاهيرالكلاسيكين(celebrity) أي مـن كـانـوا مـشـهـورين قـبـل SM وبينالمشاهير الـجـدد(microcelebrity) أي أولئك الذين صـاروا كذلك بفعل[5] SM . وتوضّح كريستل ابدين أنّمشاهير الإنستغرام(microcelebrityInst)متّصلون ضرورة بالبعد التسويقي المدفوع والمؤطر بوكالات خاصة[6]. ونرى أن دوافع هذا التمييز زائلة لامحالة بسبب الأهمية المتعاظمة لهذه المنصّات وانضمام جميع فئاتالمشاهير اليها، الكلاسيكين منهم والجدد. واعتبر آخرون على غرار غرامي ترنر(Graeme Turner)بأنّ شهرة من سمّوهم المشاهير الجددتعود الى بساطتهم (أي ليس لديهم ضرورة تميّز فني أو تخصص..) [7]، حيث أنّ غير الاستثنائي والبسيط واليومي والمتاح صار اليوم هو المطلوب، وهـذا ما دفع بالمشاهير الكلاسيكينإلى مشاركة حياتهم اليومية وما يكونون فيه عاديين كالجميع قصد الحفاظ على موقعهم في سوق الشهرة. وفي معرض التفكير في موضوع السوق الجديدة، نستحضر مقال لسوزي خميس وأخرين[8] (Susie Khamis and Al.) الذي يربط انتشار الذاتية المسوّقة أو المسلعنة كماركة بالنيوليبرالية وبالفردانية. ويتجه الباحثون في هذا المقال الى دراسة مواضيع تقديم الـذات وبناء صورة والترويج لها بصفتها صورة على الSM الى حد تحول الذات الى سلعة أو إلى منتوج أو ماركة، وهي ما تسمّىself brandingtopics ، وهو ما عبّروا عنه بكون المؤثرين رؤساء مديرون عامون لصورتهم التي أصبحت في ذاتها ماركة.

إنّ البحث عن خلق الأثر وجمع أكبر عدد من المتابعين والفوز بموقع في خضم العدد المتزايد للمؤثرين وخاصة الحفاظ عليه، ضخّم من ظاهرة الترويج/التسويق الـذاتي (Self branding) التي تناولتها المقالات والبحوث العربية [9] وغير العربية والتي استفاضت في البحث في الخصائص التي تجعل من مؤثر دون أخـر علامة تجارية(brand) . والقصد من ذلك أن يتحوّل المؤثر الى علامة تجارية أو رمزا لنمط عيش، أو نمط فني، أو لعلاقة بالجسد يتميز بها وقد تصير خاصّته ويمكن تثمينها ماليا وتجلب له أصحاب الاعلانات. وان كان هذا الموضوع قد يبوّب ضمن تحول أصناف الشهرة والمشاهير،إلّا أنه لا ينفصل عن الوجه التجاري للSM ولاعن قضايا الهوية وتحولاتها التي تعكسها. وتعتبر سوزي خميس بأن SMتقدم وعودا خفية بالشهرة للمستعملين العادين وبالتالي تحثّ ، ضمن منطق فرداني ليبرالي، على ممارسات التسويق الـذاتي وعلى الرغبة في الشهرة و بناء الماركة الشخصية التي ستحمل معها مكافئات. إن البحث عن الشهرة الذاتية حسب المؤلفين قد يشكل وجه لإرادة استعادة الفاعلية(agency) في زمن نيوليبراليلافاعلية حقيقية فيه للأفراد.

وفي اطار المقاربات التي تطرح السؤال الاقتصادي الجديد في ضوء الSM ومؤثريه، نجد مقارنات بين المقاربة الكلاسيكية للتسويق والتجارة والمقاربة المعاصرة المستندة على الSM، حيث تمتزج الحكايات الشخصية للمؤثرين والعلاقات الشخصية بـين المـؤثـر والمـتـابـعـين(parasocial) بالجوانب الاشهارية، مع التطرّق لآثار ذلك على السوق بشكل عـام. ويشيريونغ لي وماثيو ايستن (Jung Ah Lee & Matthew S. Eastin) إلى أن شخصية المؤثر أو صورة شخصيته(perceivedpersonality)هي العنصر الفاعل لتحقيق الأثر الترويجي ولـيـس المـضـمـون ضرورة.[10] وتـوضّـح كرسيتلابدين (Crystal Abidin)أنّ صور المؤثرات أقوى تجاريا من الاعلانات الكلاسيكية لأنّ فيها سرديّة شخصية ورواية عن تجربة المؤثرة مع المنتوج وتقييما لها بالإضافة الى تنوع كبير في أساليب التسويق (بين المباشر وغير المباشر) والمتضمن بشكل خفيّضمن قصة شخصية (حول خسارة الوزن/ تجربة سفر مثلا) [11].

غالبا ما تجتمع في المقالات حول مؤثري الSM البعدان الاقتصادي والإعلامي ليطرحوا سؤالا مزدوجا: من هم المشاهير الجدد أو البائعون الجدد؟ كيف يبنون الشهرة وكيف يمـرّرون عبرها كل رسائل الشراء والاستهلاك المادي واللامادي؟ يربط بين المستويين عامل مركزي هو الإتاحات التقنية شديدة وسريعة التطور والتي تسمح بما يسمى "إدارة الانطباع" [12] . وربما يكون السؤال الأبرز لهذا الصنف من الدراسات هو حول معايير بناء الشهرة والمتابعية [13] لدى المؤثرين الجدد، وتغيرها المستمرّ، ومن أهمها الصدقية والشفافية والقرب من المتابعين والمهارات الاجتماعية، حيث لا ينكر المؤثرون بشكل عامّ مساحة التجاري في المضامين التي يقدمونها مثلما لا يجهل المتابعون ذلـك، إلاّ أنّ هذه المعايير العلائقية الجديدة تعزّز التسويق والاستهلاك بأشكال مختلفة[14] .

تتفق المقالات من سياقات ومباحث مختلفة على أن المشهور الجديد هو "صديق" مفترض، وهو بهذه الصفة يكون مختلفا -على مستويات عدّة- عن المشاهير الكلاسيكيين الذين يكونون في صورة مثالية وبعيدين عن الجمهور ماديا واجتماعيا، عدا خلال زمنية المهنة التي يقدمونها (مسرحي، مغني، رياضي.. الخ). بالإضافة الى ذلك، تشير دراسـة سـوزي خميس وآخرين بأنّSM تغذي حلم كسب الشهرة أو بناء صورة ذاتية "احترافية" قابلة للتسويق بالتساوي بين الجميع ودون سطوة قنوات الشهرة الكلاسيكية أي دون المرور بقنوات الترويج الكلاسيكية على غرار وسائل الاعلام والمنتجين، وهو حسب المؤلفين مرتبط بوعد المساواة التي تحملها الفردانية النيوليبرالية،

الهوامش

5- Hurley, Z. (2019). Imagined Affordances of Instagram and the Fantastical Authenticity of Female Gulf-Arab Social Media Influencers. SocialMedia +Society, 5(1). https://doi.org/10.1177/2056305118819241

6- Abidin, C. (2016). “Aren’t These Just Young, Rich Women Doing Vain Things Online?”: Influencer Selfies as Subversive Frivolity. Social media + Society, 2(2), 205630511664134. https://doi.org/10.1177/2056305116641342

7- Turner, G., 2006. The mass production of celebrity: “Celetoids”, reality TV and the “demotic turn”.

International journal of cultural studies, 9 (2), 153–165.

8- Susie Khamis, Lawrence Ang & Raymond Welling (2017) Self-branding,‘micro-celebrity’ and the rise of Social Media Influencers, Celebrity Studies, 8:2, 191-208.

9- السيد، ياسمين محمد إبراهيم"استخدام مدوني السفر لموقع Inst وعلاقته ببناء وتسويق العلامة التجارية الشخصية Personal Branding:دراسة كيفية" ، مجلة البحوث الإعلامية. ع63, ج2 2022 :867-922. Dar AlMandumah,

10- Jung Ah Lee & Matthew S. Eastin (2020) I Like What She’s #Endorsing: TheImpact of Female Social Media Influencers’ Perceived Sincerity, Consumer Envy, and Product Type, Journal of Interactive Advertising, 20:1, 76-91

11- Abidin, C. (2016). “Aren’t These Just Young, Rich Women Doing Vain Things Online?”: Influencer Selfies as Subversive Frivolity. Social Media + Society, 2(2), 205630511664134. https://doi.org/10.1177/2056305116641342

12- Zaid, Bouziane, Don Dongshee Shin, Sarah Waled Kteish, Jana Fedtke, and Mohammed Ibahrine. 2021. “Gendered Self-Representation and Empowerment on Social Media in the United Arab Emirates.” The Communication Review 24 (3): 199–217. doi:10.1080/10714421.2021.1957382.

13- المصطلح لي وأقصد به حجم المتابعات التي يحظى بها مؤثر.

14- في مقال

(An expert with whom i can identify: the role of narratives in influencer marketing”. Yang Feng, Huan Chen and Qian Kong. (2020”

يوضّح المؤلفون كيف أن المؤثرين صاروا "مطالبين" في منشوراتهم بالإشارة عبر كودات مخصوصة الى أنّ المنتج المقدّمَ مدعوم sponsored، وبالتالي المشاهد أو المتابع يعرف ذلك، إلاّ أنّ ذلك لم يؤثر ضرورة بالسلب على الجانب التسويقي، لأن المؤثرين يعتمدون سرديات الاقناع وفيها من الشخصي والعاطفي الذي يحفز التماهي.

الاّ أن هذا عزّز التنافسية لكسب الجمهور وأدّى الى تطور مفهوم "اقتصاديات شد الانتباه"[15]. في الحالة المصرية التي درسها حسام سلامة [16]، تتعدد محفّزات المتابعة ولكنها توضّح أن المؤثر هو مثال للإنسان المرغوب(superhero) الذي يبحث المتابع من خلاله عن اكتشاف خبرات ومعارف وآفاق جديدة ، لكن يتوجّب على المؤثر أيضا أن يحافظ على وجه إنساني فيه عفوية و إخفاقات ونقاط ضعف يشاركها مع متابعيه. ومقابل الوقت الذي يعطونه، يتوقّع المتابعون أيضا الحصول على علاقة مقرّبة من المؤثر عبر تفاعل هذا الأخير مع التعليقات والرسائل، على خلاف المشاهير الكلاسيكين الذين يحملون صورة النخبة البعيدة المتعالية. ويضع المؤثر المتابعين مساويين له بسؤالهم عن رأيهم في اختياراته المختلفة (حول لباسه/ خيارات السفر/ المكياج، مثلا) وطلبه منهم مناقشته ونقد أفكاره. ويشير ياسين السيد في دراسته عن المؤثرين المختصين في السفر أن معايير النجاح والتحول الى ماركة ذاتيةيقتضي من المؤثر أن يروي قصصا مثيرة وأن يلامس المشاعر.

ولضمان البقاء في سوق التنافس في الحقل الرقمي، يحافظ المؤثر على تواصل دائم مع المتابعين لتصبح وكأنها علاقة صداقة مقرّبة وليست علاقة ترويج لمنتجات. من أهم آليات ذلك مشاركة الحياة الخاصة أي من خلال تغذية ال"التلصّص" الاجتماعي (voyeurism)، وهذا يفترض أن لا يشتغل المؤثر على صورة المنتوج أو الخدمة التي يسوّق لها فحسب بل أن يقدّم صورة متميّزة عن نفسه وعلاقاته وأسرته. كما يقتضي كلّ من الشهرة والبقاء في سوق تنافسية من المؤثر تنويع الخبرات والمساهمات وصور الذات، ومنهنقاش قضايا مجتمعه والقيام بأعمال خيرية أو اجتماعيةومشاركة قصص وتجارب لا تكون ضرورة صلب اختصاص صفحته [17] . وفي ثنايا هذا الوجه الاجتماعي والتثقيفي، يعرض المؤثر منتجات عدّة بأشكال مختلفة ويحفّز على الاستهلاك بتقنيات تسويقية مثل المسابقات والتخفيضات (code promo) وكل مموّهات الربح. هذا ما جعلزوويهيرلي(Zoe Hurley) تقر بأن العفوية والصدقية التي يظهر عليها المؤثر خاصة عندما يعرض تفاصيل حياته اليومية وعلاقاته الحميمة هي خياليّة (fantastical)لأنها حسب الكاتبة عناصر من هوية قابلة " للبيع " على SM ، كما أنها لم تكن لتكون ممكنة دون الإتاحات التقنية التي توفر للمؤثرينأدوات في خدمة إستراتيجيات الإبقاء على شهرتهم وتطويرها [18]. ليست إثارة التلصّصالأداة الوحيدة، بل أيضا اثارة"الغيرة" حسب ما كشف عنه مقال لأليس مارفيك(Alice Marwick) [19]. وتعتبر مارفيك أنّ أحد أدوات الشهرة على Inst خصوصا أو ما يسمى instafame يمرّ عبر استعراض البذخ والثراء ورفاه الحياة. وعلى الرغم من اتفاقها مع مقالات أخرى بأن بساطة المؤثر وبساطة المحتوى وعدم التميّز هي الوسائل الأجدى لخلق شهرة لدى أيّ شخص، إلاّ أنّ المؤثر الناجح يولّد غيرة لدى متابعيه سواء بسبب ما يكسب أو بسبب نمط حياته أو علاقاته الخاصة، وغالبا ما تقع أوجه الرفاه المعروضة ضمن البذخية الاستهلاكية الكلاسيكية وقلّما تمثّل نمطا مختلفا [20]. . وتشير مارفيك بالتالي إلى هذه الازدواجية بين وعد دمقرطة الشهرة المتاحة للجميع دون مقتضى اكتساب موهبة استثنائية، وفي نفس الوقت إعادة إنتاج لصورة الرفاه النمطي غير المتاح للجميع.

2. النساء وإمكانات الفعل الجديدة على السوشيل ميديا

تناقش عديد الدراسات من منظور نسوي وجندري الصور والمضامين الجندرية والمجنسنة على الSM ، من حيث مدى تعزيزها ل"الخضوع الأنثوي"، كما تتناول بروز أشكال استلاب جديدة على هذه المنصات تمثّلها المؤثرات خصوصا. وتتطرق بحوث أخرى للإمكانات التغييرية لل SM على واقع النساءواحتمالات تمكينهنّ وإعطائهنّ صوتا في الفضاء الاجتماعي والسياسي الالكتروني. انّ اعتبار السوشيل ميديا فضاءا للصوت الحرّ (أي إمكانية الحضور والتعبير على هذا الفضاء المتاحة للجميع) هي من المنطلقات التي تثير جدلا نظريا بين الباحثين، بين من يعتبر ذلك واقعا يمكن نقاش حدوده، وبين من يحاجج الفكرة.

ومنأوائل هذه المقالات نجد مقالا صدر سنة 2015[21] تتطرق كاتبتاه، وهما من مجال دراساتالاتصال ودراسات التسويق، لمؤثرات الموضة على Inst. وقد ربطتا في الدراسة الكيفية المنجزة بين النسوية والتسويق الذاتي وقضايا بناء صورة الذات المثالية أو" " Having it all. في هذا البحث، تعتبر المؤلفتان بأن العمل كمؤثرة على Inst هو نتاج عالم النيوليبرالية التي تدفع الأفراد إلى خلق فرص عمل ذاتية، ولكن هذه الأعمال لا تخرج عن التنميطات الجندرية، منها أن النساء المؤثرات تعملن في مجالات تسمى أنثوية. كما تنزّلان مؤثرات الموضة ضمن تيار ما بعد النسوية (postfeminism) ومن أوجهه حنين النساء لاسترداد ماضٍ تقسّم فيه الأدوار حسب الجنس وفيه تعظيم لدور الأمومة ولقيمة الأنوثة وإظهار اهتمام بالعمل المنزلي. هذه الممارسات تعكس حسب مؤلفتي المقال رفض بعض النساء لما يعددنه مآلات النسوية عليهنّ من حيث تعمّق الأعباء بسبب العمل خارج البيت ووهم تحقق المساواة بين الجنسين. كما تعرّفن ما بعد النسوية بالاحتفاء بالخيار الفردي والاستقلالية والتعبير عن الذات من منطق استهلاكي، وهو ما وضّحته أيضازوويهيرلي[22] بأن مضامين عدد هام من المؤثرات تنخرط في التيار ما بعد النسوي بما هو هو فرداني، يقوم على الرقابة والتعديل الذاتي و على فكرة الاختيار والتمكين، مع عودة لأفكار الاختلافات الجنسية الأصلية، وهو أشبه بخطاب تنمية بشرية نيوليبراليايعادي الأنظمة المتسببة في اللامساواة ويثقل في المقابل الأفراد بفكرة مسؤوليتهم الفردية على مصائرهم. هذا ما جعل مؤلفتي المقال في موقف ضد أيديولوجيا التحرّر والتمكين التي يعد بها الاستثمار الحرّ على الSMميديا لأنه خاضع لمعايير السوق الاستثمارية (وهي رجالية) و للإطار الأخلاقي للنيوليبرالية الذي يروج لتسليع الذات وتحويلها ماركة تدّعي الفرادة (singularity). كما تنتقد المؤلفتان رمسنة(romanticization) هذا العمل الفردي كمؤثرات واللاّتي تعتبرهن مستلبات النظام النيوليبرالي الذي يدفع بهن باتجاه الحنين إلى المواقع التقليدية للنساء وتصويرها على أنّها شغف فردي وتحقيق للذات.

توصّلت هيرلي[23] في بحثها ضمن السياق الخصوصي الخليجي إلى نفس الاستنتاجات، واستهدفت تعرية الصورة الجميلة التي تقدمها النساء عن عملهنّ من البيت (online)، في حين أن هذه الصورة وراءها عملية إنتاجية طويلة ومعقدة. كما توضّح أنها صور تجارية نيوليبرالية عن النجاح وهي تخفي كل العملالترميقي (editing)لإنتاج صور تعكس أنشطة وأنماط حياة ليست بالضرورة نموذجية لدعم النساء، كما أنها تخفي أوجه أخرى لمعيش النساء الفعلي وتقدم فقط الوجه

الهوامش

15- Susie Khamis, Lawrence Ang & Raymond Welling (2017) Self-branding,'micro-celebrity' and the rise of Social Media Influencers, Celebrity Studies, 8:2, 191-208.

16- سلامة، حسام. "العوامل المؤثرة في متابعة الجمهور العربي لحسابات المؤثرين على الInst". المجلة المصرية لبحوث الإعلام، عدد 77. 2021 . و دراسة الياس، رانيا رمزي حليم "دور المؤثرين الاجتماعيين في الحياة اليومية للشباب المصري:دراسة ميدانية على عينة من الشباب المصري". مجلة الدراسات الإنسانية والأدبية. عمج26:556-591 .Dar AlMandumah, 2022.. في هذه الدراسة الكمية المعمّقة، أقر أكثر من نصف المبحوثين بأنهم قد يغيرون سلوكاتهم بناء على توصيات أو خبرات مؤثر.

17- السيد، ياسمين محمد إبراهيم"استخدام مدوني السفر لموقع Inst وعلاقته ببناء وتسويق العلامة التجارية الشخصية Personal Branding:دراسة كيفية" . مرجع مذكور

18- Hurley, Z. (2019). Imagined Affordances of Instagram and the Fantastical Authenticity of Female Gulf-Arab Social Media Influencers. Social Media + Society, 5(1). https://doi.org/10.1177/2056305118819241

19- Marwick, Alice. "Instafame: Luxury Selfies in the Attention Economy." Public Culture 27, no. 1 (January 1, 2015): 137–60. https://doi.org/10.1215/08992363-2798379.

20- نقصد بالنمط المختلف أنماط الحياة التي تنتقد أو تبتعد عن الاستهلاكية أو/و البذخية المهيمنة على غرار الصفحات التي تروّج لل"بساطة" minimalism (في ديكورات البيت خاصة) أو لاعتماد نمط حياة يكون فيها الفرد منتجا لما يستعمله كأدوات التنظيف أو كالخضر والفواكه ضمن منطق الحفاظ على البيئة.

21- Duffy, B. E., & Hund, E. (2015). "Having it All" on Social Media: Entrepreneurial Femininity and Self-Branding Among Fashion Bloggers. Social Media + Society, 1(2). https://doi.org/10.1177/2056305115604337

22- Hurley, Z. (2019). Why I No Longer Believe Social Media Is Cool . . . Social Media + Society, 5(3). https://doi.org/10.1177/2056305119849495

23- Hurley, Z. (2019). مرجع مذكور

24- في مقال عن محجبات الفاشينستا في أندونيسيا، بينت مؤلفتا المقال بأن الصورة المقدّمة عن المرأة(رياضية/مسافرة/ مغامرة)بما هي بديل عن كليشيهات المرأة المحجبة المقموعة هي في الغالب صور لنساء من طبقة معينة . لكن هؤلاء المؤثرات وبفضل شبكات المتابعين على الInst التي يخلقونها، هن قادرات على خلق التمكين وبث طاقة تغيرية. انظر

Hijabers on Instagram: Using VisualSocial Media to Construct the IdealMuslim Woman. Emma Baulchand AlilaPramiyanti (2018)

"اللطيف"(cool) وتخفي اللّامساواة ضمن Inst بين المؤثرات [24]. وتشارك سارة ديفوس وأخرين([25] S. Devos and Al.) هذا الاستنتاج حول نمط حياة المؤثرات مع توضيح سعيهنّ للبروز في صورة نساء خارقات القوة (superwomen) وقادرات علىانجاز مهام عديدة في نفس الوقت (multi-tasking). هذا ما يثير أسئلة حول مدى تأثير ذلك على تكريس الصور النمطية للأنوثة التي تستميت لتحصيل التقدير الاجتماعي. قارن مؤلفو المقال بين صفحات مؤثرات من ثلاث بلدان (أمريكا وبلجيكا والصين) عبر تقنية تحليل المضمون، وتوصلوا إلى أنهنّ تقدّمن مضمونا يذهب في اتجاه تجسيد صورة المرأة القوية والمثالية والناجحة في مجالات عدة، وأن هذه الأدوار تبقى ضمن مجال الشكل والجسد والرعاية وتقديم النصح. ويرى المؤلفون بأن تقديم صورة المرأة المثالية لا يجدّد شيئا بالنظر للمنتظر تقليديا من النساء، علاوة على أنه يحمل خطورة بثّ شعور النقص والعجز لدى المتابعات وارهاقهن لأن الاغلبية تجهل خلفيات تركيب هذه الصور. من جهة أخرى، نوّه المقال بخطورة هذه المضامين المركّبة من صور الاستهلاكية والمظهرية ومتطلبات الأدوار التقليدية (كأن تظهر المؤثرة وهي ترضع طفلها مرتدية ثيابا مغرية وأن تظهر أيضا راعية لأفراد أسرتها الموسّعة) ومتطلبات سوق العمل النيوليبرالية (أن تكون المرأة في نفس الوقت ناجحة في مهنتها) في حين أنها صور مثالية غير واقعية من جهة، ومجنسنة من جهة أخرى، وأقرب الى صورة النجاح في ايديولوجيا الفردانية التنافسية في السياق الأمريكي، والتي تنحو مع العولمة لأن تصبح "النموذج" المعمّم. ومن المخاطر المستنتجة أيضا حسب مؤلفي المقال هو لبرلة(liberalisation)هذا النجاح الانثوي الذي يُصوَّرُ متاحًا أمام الجميع على شرط الجهد الفردي وهو غير صحيح.

هذا المنظور المناهض قطعا لفكرة التحرر النسائي عبر SM ليس مشتركا بين كل البحوث، على غرار دراسة ك.ابدين حول فعل التصوير الذاتي-السيلفي(selfie) لدى المؤثرات، والذي تعتبره حمّالا لأبعاد ثقافية واجتماعية ولمؤشرات تغيير وأنّ المؤثرات لسن مجرّد شخوص مسليّين وغير مهمّين أو تافهين. وتدعو الكاتبة الى ضرورة الخروج من فكرة السيلفيكظاهرة نرجسية لأن ذلك يتجاهل أبعادها الأخرى ومن أهمّها أن المؤثرات صرن فاعلات نسائيات جدد وبعضهن سيدات أعمال مستقلات، تقدّمن خبرة في التصوير وفي أساليب تقديم الذات، وأنّ هذا الفعل، وإن وُصِف بالنرجسية، لا يغيّر شيئا، لأنّ المنطق التجاري التقط الظاهرة وحوله الى قيمة مالية. كما نُشِرت سنة 2019 دراسة حول تبنّي منظور إيجابي عن الجسد ([26] body positive) يطرح كاتبوها فرضية أن Inst، مقارنة بالميديا التقليدية، قد يساهم في تحرير النساء من معايير الجمال الكلاسيكية، لأن المنصّة تتيح تمثيلية (representativeness) أكبر لأجساد لم تكن تُظهِرها الميديا التقليدية والمخالفة للمعايير المهيمنة للجسم النحيف والرياضي، وتتضمّنعبارات (Hashtags) تتحدى حصرية الموضة أو الجمال على هذه الفئات. لكن هذه الدمقرطة لا تنفي حسب المؤلفين أن Inst يعزّز التركيز على الجانب الشكلي والمظهري، كما أن الوعود التحريرية للعلاقة بالجسد ضعيفة تتمظهر من خلال مركزية صورة المرأة البيضاء والنحيفة في حسابات الInst، وهي منصات تعكس أيضا اختلاط التجاري بالنضالي[27] ،حيث أن المؤثرين الذين ينشرون صور أجسادهم ذات الأشكال والأوزان المختلفة يقومون بالدعاية لمنتوجات أو لأنفسهم.

نستنتج بأنّ دارسي مؤثرات ال SM كظاهرة مابعد رقمية (Postdigital)[28]) وما بعد نسويةونيولبيراليةلا يعتبرون ال SM محرّر للنساء. وحسب حاملي المنظور، لا يستقيم القول بأن الاستثمار الفردي كمؤثرة هو تحرير للنساء عبر وسائل التواصل الاجتماعي لأسباب عدّة، وذلك لأنّ أكثر المؤثرات شهرة تقعن ضمن صنف متشابه: المرأة البيضاء والنحيفة والشابّة، مما يشكّل تواصلا لكليشيهات الجندر. من جهة ثانية، لا مكان على هذه المنصات (إلاّ ماقلّ) للمثليّين والمتحوّلين والمختلفين، وبالتالي تتواصل على هذه المنصّات سيطرة المعيارية الغيرية. كما أنّ نماذج الجمال والصحة التي يسوّق لها متشابهة، وهي تخضع لمنطق استهلاكي ومجنسن.

نستخلص أثر هذه القراءة في عدد من البحوث بأنّ الأبعاد الاقتصادية والهوياتية والجندرية والإعلامية للSM تجتمع في أغلب الدراسات ، مع اختلاف بينها في البعد الذي يركّز عليه البحث، ويعود ذلك للوجه المركّب للSM . لكنها وإن اتفقت على أمر، فهو أن عمل المؤثرين على الSM لا يمكن أن يكون خارج نطاق التسويق، وأن المنطق النيوليبرالي الاستهلاكي يوجّه إلى مدى بعيد أغلب المستويات، حتى النضالية منها (من أجل المساواة/ حق الاختلاف/ النسوية/ تقبّل الجسد). لكن الدراسات تتفرّع بين تلك التي ترى في هؤلاء الفاعلين الجددحمّالين لقدرات تغييرية على مجتمعاتهم، ودراسات أخرى لا ترى فيهم إلا منتَجًا للمنطق النيوليبرالي وأعوانا لاستدامته وتطويره.

من جهة أخرى، يتوضّح من علاقات المتابعين بالمؤثرين خصوصا وبال SM عموما، وكذلك من محفّزات المتابعة لديهم، الكثير من خصوصيات الفرد المعاصر، فهو الباحث عن بديل للمعرفة بشكل عامّ في أشكالها الكلاسيكية (عبر الميديا والكتب والدراسة). هذا البديل يمتاز بالسرعة وقابلية المشاركةوإمكانية مقارنته بمصادر أخرى وجمعه بين المعرفة/ الخبرات وبين العلائقية والحميمية. وكأنّ ما يُكتسَبُ عبر المؤثرين يتمّ ضمن علاقة صداقة أو علاقة شخصية وأفقية يتساوى فيها الطرفان. هذه الخصائص تعكس الى مدى بعيد خاصيات هذا الفرد المعاصر بما هو عجول، وعاطفي، ومتبرّم من العلاقات العمودية والطبقية ومتطلّب للفاعلية المطلقة. كما أن الاطلاع الواسع المتاح لمتابع مؤثري انستغرام يعطيه وهم أنه يعيش حياة الأخر التي قد لا ينالها، وبالتالي، يمكن للمتابع أن يعيش بالوكالة /(living in absentia in proxy) ،وكأنه سافر، وكأنه قرأ، الخ. ضمن عالم اللامساواة القاسية.

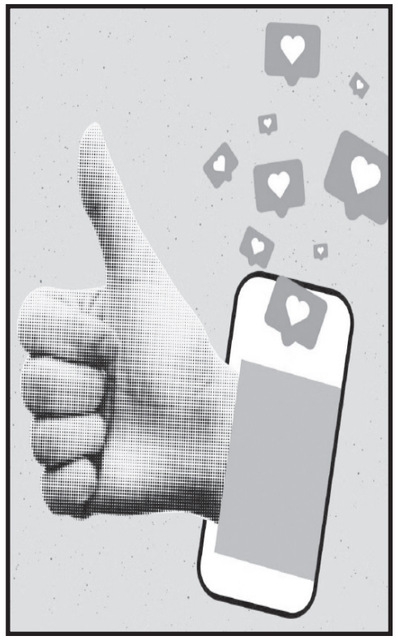

حول وضع دراسات السوشيل ميديا في الفضاءات العربية

مكّننا الاطلاع على الدراسات المكتوبة باللغة العربية و/ أو لباحثين من المنطقة العربية (المشرق والخليج العربي تحديدا) من تبيّن فروقات في تناول القضايا المتصلة بالسوشيل ميديا. ويمكن بشكل اختزالي القول بأن هناك نقاط تشابه بين الدراسات العربية وغير العربية وتخص بشكل مركزي الكتابة حول مواضيع معايير بناء الشهرة

الهوامش

25- Devos, S., Eggermont, S., &Vandenbosch, L. (2022). Instagram Influencers as Superwomen: Influencers' Lifestyle Presentations Observed Through Framing Analysis. Media and Communication, 10(1). https://doi.org/10.17645/mac.v10i1.4717

26- Rachel Cohen, Lauren Irwin, Toby Newton-John, Amy Slater,#bodypositivity: A content analysis of body positive accounts on Instagram,Body Image,Volume 29,2019,Pages 47-57,ISSN 1740-1445,
https://doi.org/10.1016/j.bodyim.2019.02.007.

27- نفس المرجع، ص 54

28- في مقالها تعتمدزوويهيرلي المقاربةPostdigital ومن بين معرّفاتها عدم الفصل بين واقع الكتروني وواقع غير الكترونيوتجاوز الثنائية الكلاسيكية التي تفرق بين الواقعي والرقمي.

Hurley, Zoe Middle Eastern women influencers' interdependent/independent subjectification on Tiktok: feminist postdigital transnational inquiry. Information, Communication & Society, 2022, Vol 25, Issue 6, p734. 10.1080/1369118x.2022.2044500

انظر أيضا مقالها حيث تناقش فكرة تمكين النساء العربيات عبر السوشيل ميديا مع تعريفات أدق لمفهومين Postdigital and postféminism:

Hurley, Z. (2021). #reimagining Arab Women's Social Media Empowerment and the Postdigital Condition. Social Media + Society, 7(2). https://doi.org/10.1177/20563051211010169

29- انظر مثلا:

The Power of social media influencers. Study of public perception of credibility among Kuwaitis , Fatima S. Alsalim (2020).

والمتابعة لدى المؤثر [29]. أمّا موضوع الحضور النسائي العربي واحتمالات التمكين الجندري عبر SM خاصة من منظور نسوي نقدي للنيوليبراليةالاستهلاكوية، فقد كان محطّ اهتمام الباحثين من غير العرب خصوصا [30]لاحــصرا [31]. يمكن أن لا نستغربهذا باعتبار نساء المنطقة موضوعا متكررا للبحوث (خاصة السوسيو-اثروبولوجيا غير العربية منها) ضمن سؤال أوضاع النساء في المنظومات التي تشهد تحولات في المنظومة الأبوية [32] مع تواصلهيمنة الثقافة والدين والعرف والسياسة على حيوات النساء وأجسادهنبدرجاتمختلفة حسب السياقات. وتوصّل الباحثون الى عدد من الخلاصات من أهمها أن النساء كما الرجال في الخليج يخوضون دينامية ذات صلة بالهوية وتقديم الذات على الSM ، دون أن تكون هناك حصرية جندرية للنساء، الاّ أن وجود إتاحات تقنية غير كاف لتحقيق ما يسمى بالتمكين أو التحررالجندري خاصة في علاقة بالرقابة الالكترونية في دول الخليج. ومن جهة أخرى، هناك مواصلة لتطبيق معايير الأنوثة الكلاسيكية لكن بتقديم الأدوار التقليدية على أنها خيار مرغوب من قبل النساء وليست مفروضة من التقاليد. وانتهى المقال الى أن الSM، وان كانت تساهم عبر نظام الإتاحات بأن يكون للفرد خصوصية عبر خيارات الانتساب الى مجموعات مغلقة أو القدرة على حصر قائمة الأصدقاء والمتابعين، ممّا قد يسمح للنساء خاصّة بحرية نسبية عن تقييم الأسرة أو نظرة المجتمع، لكنها ليست فضاء تنتفض فيه الشابات الاماراتيات أو تسائلن فيه التقاليد بل إنهن تبقين ضمن حدود اجتماعية وضمن خطوط المواقع و المكانات و الأدوار. وتعتبر زوويهيرلي في نفس الصدد بأنSM عموما وفي الخليج خصوصا لا تحقق وعد المساواة للنساء ولا التمكين وكشفت في بحثها عن أبعاد سياسية تستديم اللامساواة و الهيمنة والتنميطات الجندرية، على الرغم من أن هذه المنصّة سمحت بالدفاع عن قضايا مثل حرية الحجاب والسياقة. بالإضافة الى ذلك، تعتبر هيرلي أن سياق الخليج مجندر جدا على خلاف السياق الغربي، بمعنى أن الطابع الجنسي لتقسيم الادوار ورسم المكانات واضح جدّا، وأن الصورة النموذجية التخيلية التي تروّجها مؤثرات الخليج عن نساء تملكن كل شيء: الزوج والأسرة والنجاح المهني مع المحافظة على التقاليد ، تضيف عبأ مجنسنا آخر على النساء ولا يمكنها أن تُعدّ عنصرا تمكينيا[33] . وتنتهي هيرلي الى أن القومية والأبوية والإرث الاستعماري هي الأطر الكبرى التي تجعل وضع نساء الخليج مختلفا وتجعل منظور النيوليرالية التنافسي الفرداني الغربي مصدر توتر وشروخ وليس مصدر تمكين، وكأنّ بها تقول أن ضغط الاجتماعي والجندري في هذه السياقات أقوى من حريات الإتاحات الرقمية، التي تستعملها النساء بأسلوب له خصوصية ثقافية حتّى تكنّ ضمن قالب احترام العادات [34]. أما المواضيع التي ركّز عليها الباحثون من المنطقة العربية فتتصل، غالبا وليس حصرا، بقضايا الهوية الاجتماعية والثقافية وتحولاتها بفعل السوشيل ميديا، وكذلك بالآثار الاستهلاكية للسوشيل ميديا، خاصة من منظور أحادي وعمودي (أي منظور فاعل-مفعول به). من ذلك أن أثار سؤال استعمالات اللغة خصيصا على منصات التواصل الاجتماعي من قبل المؤثرات ودلالاتها الثقافية اهتمام بحوث عـدّة، سـواء من قبل باحثين من المنطقة العربيةأو من خارجها. على سبيل المثال، تطرح كل من ميس القيسي ومي زكي في مقال مشترك[35] سـؤال التحولات الثقافية التي قد تثيرها استعمالات اللغة من قبل المؤثرين مركّزين على استعمالات اللغة ضمن المحتوى المنشور من قبل المؤثرات والذي موضوعه حياتهم اليومية [36]. بخصوص الاستعمالات، بيّن البحث بأنّ اللغة العربية كانت أكثر استعمالا على تويتر وهيمنت الإنجليزية على Inst أما المزج بينهما فكان أكثر على تويتر من Inst، وهذا يعود حسب الباحثتين الى طبيعة المنصتين، حيث تويتر هي إخبارية أمّا Inst فهو منصّة تواصل وتفاعل موضوعه الحياة الشخصية، وقـد اعتمدت فيها المؤثرات العربيات على اللغة الإنجليزية. كما تعتبر زكي والقيسي بأن لهذا المحتوى مصادر وأهداف هوياتية، وأنّ استعمالات المؤثرين للغة تنخرط حسب الباحثتين ضمن "استراتيجيات إدارة الهوية"، حيث تبدو استعمالات الصنف الثالث من اللغة (مزيج العربية والانجليزية) مهيمنة ثقافيا في تلك السياقات لارتباط قضايا الهوية الفردية والوطنية بالسياقات المعولمة مع ملاحظة وجود استعمالات اختلافية للغة حسب طبيعة المنشورات (Posts) والمشاركات، ومنها تحبيذ استعمال العربية في المنشورات المتصلة بالاحتفال باليوم الوطني، وعند مشاركة صور الحج والعمرة ومشاركات حول موضوع رضا الوالدين. وبسبب الانتشار الكبير لاستعمال الSM، تشير الباحثتان الى أن هذه الاستعمالات اللغوية تساهم في تعزيز طرق جديدة

الهوامش

30- انظر مثلا

Zaid, Bouziane, Don Dongshee Shin, Sarah Waled Kteish, Jana Fedtke, and Mohammed Ibahrine. 2021. "Gendered Self-Representation and Empowerment on Social Media in the United Arab Emirates." The Communication Review 24 (3): 199–217. doi:10.1080/10714421.2021.1957382.

انظر أيضا

Hurley, Zoe Middle Eastern women influencers' interdependent/independent subjectification on Tiktok: feminist postdigital transnational inquiry.Information, Communication & Society, 2022, Vol 25, Issue 6, p734. 10.1080/1369118x.2022.2044500

في هذا البحث حول تقديم الذات على تيكتوك، ركزت هيرلي على بروفايلات ايمي روكو(السعودية) وهديل مرعي (سعودية مقيمة في الامارات) وعايدة شداب (أفغانية الأصل ومقيمة في تركيا). تعتبر هيرليمن جهة بأن النساء الخليجيات عناصر تغيير ثقافي واجتماعي رغم الصورة الأجنبية عنهن كمقموعات، وبأنهن فاعلات في تغيير الصور النمطيةعنهن. من جهة أخرى، ترى بأن الSM ميديا ليس فقط مكانا لتقديم هوية ولكن للعب دور هوياتي (performingidentity)بفضل الإتاحات التقنية التي تمكّن من التعديل. الاّ أن تقديم الذاتية يقع دوما ضمن نطاق خطابات مهيمنة منها خطاب الجندر وخطاب الطبقة، مع التشديد على أن هذه الخطابات حسب المؤلفة صارت عابرة للخصوصيات الجيليةوالثقافية. وجدت هيرلي خصوصيات لهذه الذاتية المقدمة على تيكتوك في الشرق من بينها وجود نفس احتجاجي أو تباعدي عن التقاليدمع الحفاظ على علامات الهوية المحافظة وخلوّه من دعاوي التحرر الجنسي. ولهذه التذويتات(subjectivation)حسب الكاتبة بعد تجاري أكثر منه نسوي تغييري. من جهة أخرى، كشفت هيرلي عن النقد السياسي والمجتمعي في الأسلوب الساخر المعتمد من قبل المؤثرات اللاتي درستهن، وخاصة مقاومتهن للانتقادات التي ترى لا تجانسا "جوهرانيا"(essentialist) بين لباسهنّ (النقاب) وسلوكهنّ (الرقص والغناء والسخرية). ويجدر الذكر أن عديد البحوث قد رصدت هذا الأسلوب الساخر في حسابات المؤثرين في الخليج والذي يتزامن مع محافظة على الصور الكلاسيكية للأنوثة والذكورة. وتستخلص هيرلي أن نساء الشرق واعيات بحجم الرقابة والتضييق عليهن لكنهنأيضا مدركات لحجم الفرصة التي تمنحها تركيبات الفيديو والصورة علىالSM لتوصيل رسائل نقدية لمجتمعاتهن مثل التمييز بين النساء والرجال، لكنهن لا يرفضن ثقافتهن بالكامل ولا تتماهين مع المضامين الغربية، بل تستعملن موسيقى ورقصات من سياقات غربية بأسلوب خصوصية ويقومون بتذويتثقافي لها.

31- من المهم الإشارة الى أن عددا من مقالات الباحثين/ الباحثات خاصة "العرب" حول هذا الموضوع من منظور يقترب من نظيره "غير العربي" تكون عموما مكتوبة باللغة الإنجليزية ومنشورة خارج الفضاء العربي. انظر مثلا:

Layla Faisal Alhalwachi. "Female Influencers: Examining Bahraini Social Media's Portrayal of Female Subjectivity", in, Artificial Intelligence-Augmented Digital Twins. Springer, 2024. (pp.401-418)

32-انظر مثلا مقال:

Gwen Bouvier (2017), Clothing and meaning making: a multimodal approach to women's abayas. Visual Communication, 17(2), 187-207. https://doi.org/10.1177/1470357217742340

33- Hurley, Z. (2019). Imagined Affordances of Instagram and the Fantastical Authenticity of Female Gulf-Arab Social Media Influencers. Social Media + Society, 5(1). https://doi.org/10.1177/2056305118819241

34- Hurley, Z. (2019). Why I No Longer Believe Social Media Is Cool . . . Social Media + Society, 5(3). https://doi.org/10.1177/2056305119849495

35- Arab Influencers and Social Media: A Sociolinguistic Study of a New Culture, Meis Al-Kaisi, Mai Zaki In book: Language and Identity in the Arab World. Routledge. (2022)pp 153-173

36- انطلاقا من عينة متكونة من ثلاث مؤثرين على تويتر وثلاث على Inst (من مصر والعراق والامارات) وباستعمال منهجية التحليل السوسيولغوي , قسّمت الباحثتان اللغات المستعملة على هذه المنصات الى أربع: العربية و الإنجليزية ولغة ثالثة هي مزيج بينهما أما الفئة الرابعة فسمتاها باللغة الجديدة.

37- ركزت دراسة أخرى على استعمالات المؤثرات الخليجيات للغة وخاصّة لأساليب الخطاب قصد الاقناع بشراء منتجات متصلة بمجال الموضة. حلل مؤلفو المقال أنماط خطاب مؤثرات الموضة(Fashionista) وأساليبهم الاقناعية أو ما يسمونه في المقال بالاستراتيجيات اللغوية، الاّ أن موضوع المقال أقرب الى دراسة في الاستراتيجيات التسويقية باعتماد أساليب الخطاب المختلفة منه الى دراسة في اللسانيات. كما لا نجد في الدراسة تحليلا لدلالات هذه الاستعمالات من قبل مؤثرات من العالم العربي من حيث اختلاف أساليبهن اللغوية بالنظر لبقية المؤثرات من حول العالم. أنظر

Marie, S., & Zibin, A. (2020). The Use of Persuasive Speech Acts by Female Arab Fashion Influencers. Dirasat: Human and Social Sciences, 47(4). Retrieved from https://archives.ju.edu.jo/index.php/hum/article/view/108182

للتواصل وتؤثر في بناء الهوية[37].

وحازت دراسة الأثر (impact study) وخاصة قياس تأثير مؤثري ال SM[38] على الـشراء وعلى الاستهلاكية[39] وعلى القيم، النصيب الأكبر، مرتبطة في نفس الوقت بالبحث حـول دوافـع وحـوافـز متابعة الشباب خصوصا و الأفراد عموما لمؤثر ما[40] في سياق اجتماعي معين. وفي الواقع هناك اتصال وثيق بين الدراسات حول تأثير المؤثرين على مستويات مختلفة (على قـرارات الـشراء أو على الممارسات والأذواق، الـخ.) وبـين الـدراسـات حول الخاصيات المفضلة في المؤثر. واستخلصت الدراسات بأن أهم دوافع المتابع العربي هي التسلية والترفيه وتمضية الوقت وكذلك الحصول على معلومات واكتساب خبرات، الاّ أن السلم التفضيلي لمواضيع المتابعة قد يختلف بين البلدان العربية نفسها وغير العربية كذلك. من جهة أخرى، بينت عديد البحوث اهتمام المتابعين بالتطوير الـذاتي والاستفادة من تجارب ومعارف المؤثرين[41] (في مجالات عديدة كالصحة والرياضة والجمال والسفر)، وهو مايثبت أن مضامين الInst قادرة على إحداث آثار تغييرية على تمثلات وممارسات الناس. بيد أنّ ما يعزز المتابعة ويخلق الأثر هو كسب الثقة أي أن المعلومات التي يقدمها المؤثر تكتسب مصداقية، وكذلك أن يحصل الفعل التسويقي للمؤثر ضمن عملية تفاعل اجتماعي وعلائقي بين المؤثر ومتابعيه. إنّ هذه المعايير التي استخرجتها الدراسات العربية تتفق مـع معايير وتفضيلات المتابعين وانتظاراتهم من شخصية المؤثر وآدائه حول العالم.

من أمثلة هذه الدراسات بحث لفاطمة السالم حول مؤثري الكويت[42] بيّنت من خلاله أن للكويتين دوافع متابعة ذات اختلافات جندرية، حيث بقيت التفضيلات النسائية تتجه نحو المؤثرات المتخصصات في مواضيع الجمال والصحة واللياقة والموضة والتصميم وما يهمّ البيت، وكان الرجال أكثر بحثا عن مضامين تثقيفية غير استهلاكية (الدين/ التكنولوجيا/ الأدب)[43] . لكن الباحثة لم تشر الى احتمالات وجود مؤثرات (researchbias)في ردود المبحوثين الذين قد يقدمون إجابات تتناسب والصورة التي يبتغون الظهور عليها على خلاف ممارساتهم الفعلية.

ويمكن أن نعتبر بأن الدراسات الباحثة في تفضيلات المتابعة وممارسات التأثير تنخرط ضمن سؤال بحثي أكبر عن التحولات الواقعة في المنطقة على صعيد ثقافي واجتماعي خصوصا. وللإجابة على هذا السؤال، اهتمت بعض الدراسات باتجاهات المضامين/المحتوى على الSM العربية سواء تلك التي ينشرها المؤثرون أو من حيث ما يفضّله المتابعون من محتوى، قصد الإجابة عن فرضية ما ان كانت هذه المضامين تخضع لجدلية تأثيرية (أي ما ينشره المؤثر يوجّه آراء المتابعين أو/و أن المؤثر ينشر ما يتوقع أنه موضوع اهتمام المتابعين)، وما إن كانت المواضيع التي تتطرق اليها المنشورات تعكس تحولات ثقافية او تحدث آثارا ثقافية واجتماعية عبر اثارتها لمواضيع معينة. ضمن هذا السياق، درست باحثة مصرية في علوم الصحافة مؤثرات الانستغرام في مصر اعتمادا على دراسة مزدوجة، كمية وكيفية، انطلقت فيها من رصد تفضيلات الطالبات (عينة من 100) للمؤثرات، ثم درست في مرحلة ثانية صفحات هؤلاء المؤثرات الأكثر متابعة[44] . وشكلت فئة الممثلات والفنانات الأكثر متابعة من قبل الشابات وكانت المتابعة الأقل للسياسيات، في حين أن التحليل الكيفي لصفحات المؤثرات لم

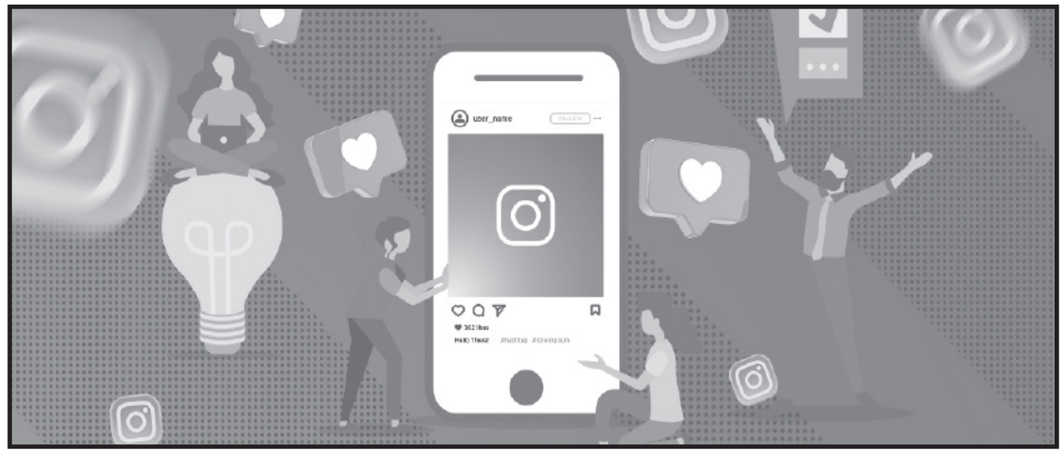

يخرج عن الطابع الوصفي الذي أشير من خلاله الى تركيز المؤثرات على المضامين الشخصية التي تظهر النجاح والسعادة وتدعو للإيجابية. من جهة أخرى، بحثت دراسة جنى الدخيل[45] في فرضية إحداث الSM ميديا لتغيرات ثقافية وقيمية من خلال المواضيع التي يتناولها المؤثرون، و توصلت الى أن مضامين المؤثرات الإناث على سنابشات[46]) Snapchat في السعودية تتركز على الاستهلاك والترفيه والتوعية، وأن المـظهروالانفاقو السفرهي أهم مواضيع المشاركات لدى الاناث. ولكن التغيير الذي رصدته يتعلّق بكون المؤثرات تفتحن الباب لنقاش قضايا جديدة منها تربية الأبناء وأساليب التعامل معهم وتأتين كذلك بنقاش حول مواضيع الصحة والرياضة واللياقة، وهي تمثل مجالات اهتمام جديدة في المجتمع السعودي، وتناقش مسلمات تقليدية.

اختلفت النتائج نسبيا في مقال آخر [47] عن نفس السياق السعودي وعن محتوى

الهوامش

38- تشير دراسة إلى ان متابعة المؤثرين وقدراتهم التغييرية او التأثيرية ترتكز على ميكانيزمات اجتماعية ونفسية للهوية منها المقارنة الاجتماعية لان المقارنة هي في نفس الوقت عملية تقييم واختبار للذات،اذن السوشيل ميديا تحفز بشكل كبير ميكانيزمات اختبار الذات. انظر:

Jung Ah Lee & Matthew S. Eastin (2020) I Like What She's #Endorsing: TheImpact of Female Social Media Influencers' Perceived Sincerity, Consumer Envy, and Product Type, Journal of Interactive Advertising, 20:1, 76-91

39- من امثلة هذه الدراسات: منة الله محمد عبد الحميد، "تسويق المؤثرين للماركات عبر موقع التواصل الاجتماعي "Inst" وانعكاسه على اتجاه الجمهور نحوهم". المجلة المصرية لبحوث الرأي العام. مج18, ع564-1:521 ; 2019.

40- أنظر مثلا دراسة سلامة، حسام. "العوامل المؤثرة في متابعة الجمهور العربي لحسابات المؤثرين على الInst". المجلة المصرية لبحوث الإعلام، عدد 77. 2021 . و دراسة الياس، رانيا رمزي حليم "دور المؤثرين الاجتماعيين في الحياة اليومية للشباب المصري:دراسة ميدانية على عينة من الشباب المصري". مجلة الدراسات الإنسانية والأدبية. عمج591-26:556. Dar AlMandumah, 2022..

41- سلامة، حسام. "العوامل المؤثرة في متابعة الجمهور العربي لحسابات المؤثرين على الInst". مرجع مذكور

42- The Power of social media influencers. Study of public perception of credibility among Kuwaitis , Fatima S. Alsalim (2020). Cited reference4

اختارت فاطمة السالم منصة Inst لاعتبارها الاكثر متابعة في الكويت وطرحت أسئلة دوافع المتابعة و نمط المؤثر المفضل، وهذا يعطي اجابات عن انتظارات الأفراد في الخليج بالنظر الى دور المؤثرين. وأنجزت لذلك دراسة كمية على عينة من 1184 شخص من الكويت- ممن تسميهم بالاصليين.

43- هذه النتائج قريبة مما بينه مقال أخر حول حالة الامارات بأن استعمالات الشباب للSM مجندرة، للشابات فضاءات الصور والاستعراض والاغراء وللشباب فضاءات المحاججة والنقاش. انظر

Bouziane Zaid, Don Dongshee Shin, Sarah Waled Kteish, Jana Fedtke& Mohammed Ibahrine (2021) Gendered self-representation and empowerment on socialmedia in the United Arab Emirates, The Communication Review, 24:3, 199-217,

44- Sara S. Elmaghraby." Self-representation of Arab Female Influencerson Instagram:A qualitative and quantitative analysis ». المجلة المصرية لبحوث الاعلام , 2018.

45- الدخيل، جنى. وسائل التواصل الاجتماعي والقضايا الاجتماعية: (دراسة في تحليل مضمون مشاهير سناب شات). مجلة العلوم التربوية والاجتماعية. العدد (9)، المجلد (1)، صفحة (25-1). اعتمدت الباحثة على نظرية غرينبرغ التي تبحث في أثر وسائل الاتصال على انتاج المعنى والعلاقة بالعالم والتمثلات، وانطلقت من تحليل مضامين نشرها 36 من مشاهير السناب شات في السعودية

46- Snapchat منصّة تواصل اجتماعي على غرار فاسيبوك وانستغرام، خصوصيتها تكمن في أن المنشورات من صور ورسائلعادةً ما تكون متاحة لفترة قصيرة فقط قبل أن تصبح غير متاحة لمتلقيها.

47- المستنير، عيسى. محتوى المؤثرين على سنابشات في المملكة العربية السعودية: دراسة تحليلية. مجلة البحوث الإعلامية، العدد 2023،64. اعتمد الباحث على تقنية المسح الوصفي والتحليلي الذي اجراه على محتوى 28 مؤثر على ال snapchat من الجنسين.

المؤثرين على نفس المنصة أي سنابشات، حيث توصّل عيسى المستنير الى أن أغلب المضامين تصب في اتجاه الاستهلاك والترويج الـذاتي(self branding) للمؤثر في حين كانت نسبة نقاش الافكار والقضايا فقط 6.8 بالمائة، هذا ما يعني بشكل غير مباشر الى أنّ اثـارة مواضيع غير استهلاكية أو قضايا مجتمعية يبقى ضعيف التمثيلية، ومنه اذن ضعف احتمالات خلق اثار ثقافية ومجتمعية عدا تلك التي تصب في اتجاه نماذج البحث عن الشهرة والبذخ والاستهلاك. بيد أن انتشار ثقافة عمل جديدة، من ذلك ارتفاع نسبة العمل الحر على الSM الذي اصبح عملا بذاته، كان من التحولات المرصودة. ما يمكن ان نرصده أيضا هو أنّ الباحث أسقط من التحليل أنّ المؤثر، عندما يشارك تجاربه الحميمة واليومية، هو أيضا يناقش من خلالها ولو بشكل غير مباشر القضايا الاجتماعية والثقافية، حيث لا يقاس التحول الثقافي والاجتماعي فقط من خـلال الاهتمام بنقاش القضايا في ذاتها بشكل منفصل عن المعيش.

خاتمة وخلاصات

إن سطوة البعد الوصفي الذي يضعُف فيه التحليل هو من أهمّ ما لمسناه صلب المقالات المنتجة في العالم العربي حول السوشيل ميديا، والتي تُستَعجَل نتائجها لتستخلص أوجها من التحولات دون البحث في تباينها جندريا أو طبقيا، ودون اعتماد قراءة تنسيبية توضّح أن التغيرات الواقعة لا يمكن أن تصبّ في اتجاه واحد ولا أن تشمل كل الفئات بنفس الصورة.

أمـا في نقاش النظريات المستعملة والأدوات البحثية والمنهجية بين دراسات عربية وغير عربية، فإنهذهالأخيرةتوجهتل استخدامقراءة سيميائية وثقافية للإتاحات التقنية للسوشيل ميديا وتطويعاتها حسب السياقات الاجتماعية والثقافية[48] ، وهو مستوى تحليلي لم تتطرق له الدراسات العربية. كما ركّزت الدراسات غير العربية على الاطـار النظري حـول النيوليبرالية وأثارها والتي لا تخرج منها في تفسير ظاهرة المؤثرين والمؤثرات كظاهرة تخدم هذا النظام من حيث تعزيز الاستهلاك والاستثمار الفردي ومنه المقاولاتية النسائية(femini nentreupreneurship) وتعزيز خطاب التنمية البشرية والفردانية بما هي أيضا أداة نيوليبرالية للمقاومة، ورأت في المؤثرات ممثلات لتيار مابعد النسوية المحافظ . وتكرر ضمن عدد هامّ من المقالات اعتماد مقاربة اريفنغوفمان(E.Goffman) حول تقديم الـذات (presentation of the self) لتحليل ممارسات عرض الذات من قبل المؤثرات، الاّ أنه، على حد تقديرنا، لم يكن استعمالا موفقا في كل الدراسات. ومن ناحية منهجية تنوعت هذه الدراسات في اعتمادها على مناهج تحليل مضامين صور وسرديات ومقابلات و تقنيات تحليل مضمون تعتمد الصور والفيديوهات وتحليليها كيفيا ونصيا وبصريا، بالإضافة الى دراسـات أخرى كمية وكذلك اعتماد بعضها لمقاربات تغييرية(transformative approach).

أما الدراسات الصادرة حول موضوع مؤثري SM باللغة العربية، فقد اعتمد أغلبها منهجا كميا وأساليب تحليل وصفية، وتكررت ضمنها مواضيع أهمها أثر المشاهير الجدد لـلSM على معدلات الاستهلاك ، وحـول معايير بناء العلاقة بين المؤثر والمتابعين. وانحصرت استنتاجات البحوث حول دور مؤثرات الSM في التحولات الاجتماعية والثقافية في نشرهنّ الاستهلاكية و التفاخرية. كما اتّسم عدد من الدراسات بطابع جوهراني (essentialist)يتمظهر من خلال تكرر البحث في مواضيع الاستهلاكية واتباع الموضة والتجميل وقضايا التربية مع تسليم ضمني بأنها مسائل نسائية دون مسائلة الديناميكية المنتجة لذلك.

هذا التوجّه لا يخلو بالتالي من مواقف محافظة (وان كانت ضمنية) تـرى في السوشيل ميديا وجها لانتشار فردانية شبابية غير محمودة أو إشكالية على القيم والنظام الاجتماعي، وهي مواقف تشبه في مستويات عديدة ما يكتب حول الشباب في العالم العربي وما يعتمد من مناظير لدراستهم على اعتبارهم "الفئة المشكل" التي تحتاج تـأطـيرا وتوعية وضبطا حتى تُحسِن استعمال التكنلوجيا وحتّى لا يتخطّى حد الحرية المتاحة عبر وسائل التواصل جدران المعيارية الأخلاقية الأبوية. ■

الهوامش

48- انظر مثلا:

Hurley, Z. (2019). Imagined Affordances of Instagram and the Fantastical Authenticity of Female Gulf-Arab Social Media Influencers. Cited reference.

المراجع و المصادر

Abd ElHamid, Mennatallah. “The Impact of Influential Marketing via Instagram on Audiences’ Attitudes towards Influencers.” Egyptian Journal of Public Opinion Research, vol. 18, no. 1, Jan. 2019, pp. 521–64. https://doi.org/10.21608/joa.2019.91773.

Abidin, Crystal. “‘Aren’t These Just Young, Rich Women Doing Vain Things Online?’: Influencer Selfies as Subversive Frivolity.” Social Media + Society, vol. 2, no. 2, Apr. 2016, https://doi.org/10.1177/2056305116641342.

Al-Kaisi, Meis, and Mai Zaki. “Arab Influencers and Social Media.” Language and Identity in the Arab World, 1st ed., Routledge, 2022. https://doi.org/10.4324/9781003174981.

Al-Khouri, Ali M. The Challenge of Identity in a Changing World: The Case of GCC Countries. University of Exeter, 2010.

Alhalwachi, Layla Faisal. “Female Influencers: Examining Bahraini Social Media's Portrayal of Female Subjectivity.” Artificial Intelligence-Augmented Digital Twins, Springer, 2024.

Alnaser, Fahad, and Hussain M. Al-Fadhli. “Reasons for Divorce in Kuwait: An Application of the Likelihood of Divorce Inventory (LDI).” Social Change in the Gulf Region, edited by Md Mizanur Rahman and Amr Al-Azm, vol. 8, Springer Nature Singapore, 2023, pp. 175–88. https://doi.org/10.1007/978-981-19-7796-1_11.

AlSalem, Fatima. “The Power of Social Media Influencers: A Study of Public Perception of Credibility Among Kuwaitis.” Journal of the Gulf and Arabian Peninsula Studies, no. 181, 2021, p. 59. https://doi.org/10.34120/0382-047-181-012.

Baulch, Emma, and Alila Pramiyanti. “Hijabers on Instagram: Using Visual Social Media to Construct the Ideal Muslim Woman.” Social Media + Society, vol. 4, no. 4, Oct. 2018, https://doi.org/10.1177/2056305118800308.

Bouvet, Marlène. “Eva Illouz, Les marchandises émotionnelles. L’authenticité au temps du capitalisme.” Lectures, 22 June 2019, https://doi.org/10.4000/lectures.35439.

Bouvier, Gwen. “Clothing and Meaning Making: A Multimodal Approach to Women’s Abayas.” Visual Communication, vol. 17, no. 2, May 2018, pp. 187–207. https://doi.org/10.1177/1470357217742340.

DataReportal. Digital 2020 Global Overview Report. 2020. https://datareportal.com/reports/digital-2023-global-overview-report.

–––. Digital 2024 Global Overview Report. 2024. https://datareportal.com/reports/digital-2023-global-overview-report.

–––. “Global Social Media Statistics.” July 2024.

–––. “Instagram Users, Stats, Data & Trends.” 2023.

Devos, Sarah, Steven Eggermont, and Laura Vandenbosch. “Instagram Influencers as Superwomen: Influencers’ Lifestyle Presentations Observed Through Framing Analysis.” Media and Communication, vol. 10, no. 1, 3 Feb. 2022. https://doi.org/10.17645/mac.v10i1.4717.

Duffy, Brooke Erin, and Emily Hund. “‘Having It All’ on Social Media: Entrepreneurial Femininity and Self-Branding Among Fashion Bloggers.” Social Media + Society, vol. 1, no. 2, July 2015, https://doi.org/10.1177/2056305115604337.

Elmaghraby, Sara S. “Self-representation of Arab Female Influencers on Instagram: A Qualitative and Quantitative Analysis.”

المجلة المصرية لبحوث الاعلام, 2018.

Hurley, Zoe. “#Reimagining Arab Women’s Social Media Empowerment and the Postdigital Condition.” Social Media + Society, vol. 7, no. 2, 2021, https://doi.org/10.1177/20563051211010169.

———. “Imagined Affordances of Instagram and the Fantastical Authenticity of Female Gulf-Arab Social Media Influencers.” Social Media + Society, vol. 5, no. 1, Jan. 2019, https://doi.org/10.1177/2056305118819241.

———. “Middle Eastern Women Influencers’ Interdependent/Independent Subjectification on TikTok: Feminist Postdigital Transnational Inquiry.” Information, Communication & Society, vol. 25, no. 6, Apr. 2022, pp. 734–51. https://doi.org/10.1080/1369118X.2022.2044500.

———. “Why I No Longer Believe Social Media Is Cool...” Social Media + Society, vol. 5, no. 3, Apr. 2019, https://doi.org/10.1177/2056305119849495.

Khamis, Susie, Lawrence Ang, and Raymond Welling. “Self-Branding, ‘Micro-Celebrity’ and the Rise of Social Media Influencers.” Celebrity Studies, vol. 8, no. 2, Apr. 2017, pp. 191–208. https://doi.org/10.1080/19392397.2016.1218292.

Lee, Jung Ah, and Matthew S. Eastin. “I Like What She’s #Endorsing: The Impact of Female Social Media Influencers’ Perceived Sincerity, Consumer Envy, and Product Type.” Journal of Interactive Advertising, vol. 20, no. 1, Jan. 2020, pp. 76–91. https://doi.org/10.1080/15252019.2020.1737849.

Marie, Sarah, and Aseel Zibin. “The Use of Persuasive Speech Acts by Female Arab Fashion Influencers on Instagram.” Dirasat, vol. 47, no. 4, 2020.

Marwick, Alice. “Instafame: Luxury Selfies in the Attention Economy.” Public Culture, vol. 27, no. 1, Jan. 2015, pp. 137–60. https://doi.org/10.1215/08992363-2798379.

Mitchell, Jocelyn. “Political and Socioeconomic Transformation in the GCC: Image and Reality.” History Compass, vol. 8, no. 3, 2010, pp. 275–302. https://doi.org/10.1111/j.1478-0542.2009.00663.x.

Papacharissi, Zizi, editor. A Networked Self: Identity, Community and Culture on Social Network Sites. Routledge, 2011.

Peterson, J. E. “Some Reflections on Social Change and Continuity in Oman and the Gulf.” Managing Water Resources for Sustainable Development, University of Tokyo, Japan, 2014.

Pripoae-Şerbănescu, Ciprian, and Ecaterina Maţoi. “Social Media in the GCC Countries—Facilitator or Curse for Generation ‘Z’?” Social Change in the Gulf Region, edited by Md Mizanur Rahman and Amr Al-Azm, vol. 8, Springer Nature Singapore, 2023, pp. 17–39. https://doi.org/10.1007/978-981-19-7796-1_2.

Rahman, Md Mizanur, and Amr Al-Azm. “Social Change and Transformation in the Gulf Region.” Social Change in the Gulf Region, edited by Md Mizanur Rahman and Amr Al-Azm, vol. 8, Springer Nature Singapore, 2023, pp. 1–14. https://doi.org/10.1007/978-981-19-7796-1_1.

Turner, Graeme. “The Mass Production of Celebrity: ‘Celetoids’, Reality TV and the ‘Demotic Turn.’” International Journal of Cultural Studies, vol. 9, no. 2, June 2006, pp. 153–65. https://doi.org/10.1177/1367877906064028.

Zaid, Bouziane, et al. “Gendered Self-Representation and Empowerment on Social Media in the United Arab Emirates.” The Communication Review, vol. 24, no. 3, July 2021, pp. 199–217. https://doi.org/10.1080/10714421.2021.1957382.

السيد، ياسمين. "استخدام مدوني السفر لموقع إنستغرام وعلاقته ببناء وتسويق العلامة التجارية الشخصية: دراسة كيفية." مجلة البحوث الإعلامية، العدد 63، 2022، الصفحات 867–922.

حليم، رانيا. "دور المؤثرين الاجتماعيين في الحياة اليومية للشباب المصري: دراسة ميدانية على عينة من الشباب الجامعي." مجلة الدراسات الإنسانية والأدبية، العدد 1، 2022، الصفحات 556–591.

سلامة، حسام. "العوامل المؤثرة في متابعة الجمهور العربي لحسابات المؤثرين على إنستغرام: دراسة في ضوء نظرية التبادل الاجتماعي." المجلة المصرية لبحوث الإعلام، العدد 77، 2021، الصفحات 185–246.

عيسى، المستنير. "محتوى المؤثرين على سنابشات في المملكة العربية السعودية: دراسة تحليلية." مجلة البحوث الإعلامية، العدد 64، 2023، الصفحات318-267.

الدخيل، جنى. "وسائل التواصل الاجتماعي والقضايا الاجتماعية: (دراسة في تحليل مضمون مشاهير سناب شات)." مجلة العلوم التربوية والاجتماعية، العدد 9، المجلد 1، 2023، الصفحات 1–25.

كيف يمكن توصيف العلاقات بين وسائل التواصل الاجتماعي وسيرورات الراديكالية المؤدية إلى العنف [1]؟

• كاتب المقال:
سيرافينألافا Séraphin Alava
(جامعة تولوز 2 جان جوريس).
ديفينا فرو-ميغس Divina Frau-Meigs
(جامعة باريس 3).
غيدا حسن Ghayda Hassan

• ترجمة:
عبد العالي صابر
أستاذ باحث في السوسيولوجيا
مختبر المجتمع المغربي: الديناميات والقيم- كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة شعيب الدكالي الجديدة

على الرغم من الوفرة الكبيرة للأدبيات الرماديةLittérature grise (تقاريروملفات تعريفوتحقيقات صحفية معمقة، إلخ)، والتي ازداد حجمها بشكل كبير خلال السنوات الأخـيرة (منذ سنة 2012)، فإن مسألةرَدْكَلَةِ الشباب (تحويلهم الى رديكاليين)عبر الأنترنت هي مسألة لم تُدرس ولم يتم التنظير لها بالشكل الكافي. وتميل معظم الأبحاث بهذا الخصوصإلى أن تكون ذات طابع قصصي (بحيث تقوم على دراسة لحالات معزولة) أو هي دراسات لا تتوفر بشكل كبير على معطيات أمبريقية (بحيث تكون عبارة عن مجموعات صغيرة من البيانات،وكذلك توليفات من معطيات محدودة وتحليلات جزئية غير شاملة، إلخ)، وسنسلط الضوء في هذا المقال على الراديكالية الجهاديةمن خلال عرض أبرز النتائج التي تهم علاقة الراديكالية بوسائل التواصل الاجتماعي.

لا تشير هذه الدراسة إلى وجود علاقة سببية واضحة وصريحة بين البروباغاندا عبر الأنترنت وبين ردكلة الشباب،ونرى أنه يجب أن يخضعالدور المحدد للأنترنت في سيرورة الرَّدكلة إلى دراسة دقيقة. ويُقِرُّ البحث في هذا الإطار بفعالية البروباغاندا عبر الأنترنت، لكن الأنترنت يبدو أقرب إلى أن يكون بيئة تسهل عملية الردكلة أكثر من كونه قوة منتجة لها.كذلك لا يمكن التركيز على وسائل التواصل الاجتماعي بمعزل عن باقي العوامل الأخرى المرتبطة بظروف منفصلة عن الأنترنت،هذا حتى ولو أصبحت الابعاد المتصلة بالأنترنت والمنفصلة عنه متداخلة وتخترق بعضها البعض،ونجد أن التنشئة الاجتماعية (خارج الأنترنت) على الأيديولوجيات المتطرفة تميل إلى أن تسبق عملية غرس التطرف لدى الأفراد عبر الأنترنت.ومع ذلك، وبمجرد تجاوز نقطة الـلاعـودة، يجد الشباب المتطرفون محتوى في وسائل التواصل الاجتماعي يغذي اهتمامهم، مما يجعلهم فرائس سهلة تستهدفها استراتيجيات الاستقطاب والتجنيد التي تنهجها الجماعات الراديكالية.

وسائل التواصل الاجتماعي في مرمى الاتهام

العمليات الإرهابية حول العالم، الأشكال الإعلامية للتواصل الخاصة بالجماعات الإرهابية، إقرار فضاء رقمي لنشر الأفكار الأكثر تطرفا، كل ذلك ساهم تدريجيا في تشكيل فكرةالمسؤولية المركزية للأنترنت، وخاصة وسائل التواصل الاجتماعي، في تنامي السلوكات الراديكالية، فهل تدفع وسائل التواصل الاجتماعي الأفـراد في وضعية هشاشة للجوء إلى العنف؟ إن هذا هو ما يعتقده الكثير من السياسيين وكذلك الرأي العام، وهكذايتم اعتبار الأنترنت،من طرف البعض،إحدى الوسائل الفعالة لردكلة الشباب. كذلك رد فعل الرأي العام لم يتأخر وحدثَّأن المطالبات بحذف أو تصنيف المواقع الإرهابية أو الداعية للكراهية صاحبها تصاعد الدعوات إلى مراقبة وسائل التواصل الاجتماعي. وقد ساهمت الحملات النشطة للسلطات الوطنية وشركـات الأنترنت(التي تنشر خطابات رقمية مضادة) في تعزيز الشعور بأن الحرب ضد الإرهاب تنتقل بشكل واضح إلى الفضاء السيبراني. لكن، ما الذي نعرفه حقا عن العلاقات القائمة بين الأنترنت وانتشار الخطابات والأعمال العنيفة؟وما الذي نعرفه عن تأثير الاستخدامات الرقمية للشباب على تبنيهم لأفكار متطرفة؟

تتخذ الحكومات وشركـات الأنترنت في جميع أنحاء العالم قرارات تستند إلى فرضيات سببية لم يتم غالبا إثباتها بشكل علمي. إن الفعل العمومي يتطلب سياسة مبنية على حقائق وعلى أدلة وليس على حـدوس سياسية،ولا يمكن لهذا الفعل العمومي أيضا أن يكونمبنيا على سياسة موجهةبالذعر والخوف،ومع ذلك يبدو أن الاتهام قد تم تحديده بالفعل، وهو الاتهام القائل: إن الأنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي أدوات شريكة في الإرهـاب، وتساهم في التجنيد السريع لشبابنا.

في هذا السياق أنجزت"اليونسكو" دراسة بعنوان "وسائل التواصل الاجتماعي ورَدْكَلَةُ الشباب المؤديةللتطرف العنيف"، وهي دراسـة توليفية للأدبيات العلمية العالمية ذات الصلة بالموضوع، وتقدم لنا خريطة شاملة عن الأبحاث (خاصة بين عامي 2012 و2016) المتعلقة بـالأدوار التي تلعبها وسائل التواصل الاجتماعي في سيروراتالراديكالية العنيفة، خاصة عندما تترك هذه السيرورات أثرها على الشباب والنساء. وتعالج هذه الأبحاث الاقتناع القائل بأن الأنترنت بشكل عام يمثل أداة نشطة للراديكالية العنيفة التي تُسهل انتشار الأيديولوجيات المتطرفة العنيفة. وفي الواقع، توضح العديد من الأبحاث أن الجماعات المُرَدْكَلَةِ، ومن يقوم بعملية التجنيد من الإرهابيين،كل هؤلاء منتشرون بشكل كبير في عالم الأنترنت،وهكذا تزداد أكثر فأكثر المعارف حول كيفية استخدام الإرهابيين للفضاء السيبراني، لكن في المقابل هناك وضوح أقل فيما يتعلق بقياس تأثير انتشار الأفكار المتطرفة،أما تأثير الإجراءات المضادة التي تهدف إلى تعزيز وجود بدائل سلمية فلا يزال غير معروف.وعلى الرغم من أن الأنترنت يمكن أن يلعب دور المُيَسِّرِ، فإن وجود علاقة سببية بين الأنترنت وبين الراديكالية الأيديولوجية أو العنيفة أو ارتكاب أعمال عنف متطرفة هو شيء لا يزال من الصعب جدا إثباته.

يعتمد هذا المقال على عمل توليفي أُنجز خلال أكثر من سنة بناء على قائمة أبحاث وعلى مراجعة دقيقة لميتودولوجيات ونتائج الدراسات الدولية. ويهدف المقال إلى تعزيز الوقاية من التطرف، وهو الأمر الذي يُعتبر رهانا سياسيا واجتماعيا ملحا كما يوضح الوضع الراهنلمعارفنا لتوفير أساس متين للقرارات العمومية وتحقيق الفهم الفردي لظاهرة الراديكالية.

الراديكالية والعنف والإرهـاب: ما دلالة كل هذه المصطلحات؟

بالنظر لأن مصطلحات وتعبيرات: " الراديكالية " و"الإرهـاب" و "الحرب ضد الإرهاب" تقع في قلب جدال تواصلي يتم في وسائل الإعلام التقليدية كما في وسائل التواصل الاجتماعي، فإن استخدام هذه المصطلحات والتعبيرات ينبغي أن يتم تدقيقه في علاقة بالفرضيات المطروحة في سياق ما انتهى إليه البحث بهذا الخصوص. واخترنا دمج هذه المصطلحات بالمواصفات السيمونطيقية/الدلالية المرتبطة بها (Rousseau et al., 2016). وفي الواقع فإن المصطلحات المحددة وسماتها ليست منفصلة عن المجال الاجتماعي الذي تمثله أو الذي استخدمت فيه، بل إنها في الواقع كاشفة عن أدوات سياسية قوية تُستخدم لتبرير الفعل والتعبئة للقيام به، وبالتالي فـإن التعريفات تتعلق بحقول دلالية مسيسة بشكل كبير وتتقلب بتقلب وتغير الأولويات السياسية.

تأخذ أبحاثنا بعين الاعتبار المقاربات النقديةلسوسيولوجيا الراديكالية (Guibet&Lafaye, 2016) والتي تسلط الضوء على التناقضات السياسية والثقافية والاجتماعية المرتبطة بمفهوم الراديكالية نفسه. لقد تم استخدام مفهومالراديكالية بشكل غـير دقـيـق وباعتبارهمرادفا لمفاهيم أخرى مثل الأصولية(التي تشير بشكل عـام إلى مقاربة دينية معينة)،

الهوامش

Séraphin Alava, Divina Frau-Meigs et Ghayda Hassan, « Comment qualifier les relations entre les médias sociaux et les processus de radicalisation menant à la violence ? », Quaderni [En ligne], 95 | Hiver 2017-2018, mis en ligne le 05 février 2020. URL : http:// journals.openedition.org/quaderni/1137 ; DOI : https://doi.org/10.4000/quaderni.1137

والمَذْهَبَةendoctrinement (التي تشير إلى سيرورة تحكم ذهني)، والجهاد أيضا، وكذلك التطرفوالإرهاب من ضمن مفاهيم أخرى. ولأن مصطلح الراديكالية يُستخدم بكثرة ويقع ضمن استعمالات بلاغية متنوعة، فمن الضروري العودة إلى أصله المرتبط بكلمة "الجذر" racine،والتي تعني الأصل الأساسي لفكرة ما أو قضية ما.

يشير مفهوم الراديكالية، بمعناه الإبستيمولوجي، إلى تجذر معرفة وآراء وقيم ومعتقدات لدى الفرد بحيث يتحدد سلوكه وفقها. بهذا المعنى فالنظريات السياسية الثورية مثل الماركسية والحركات الاجتماعية (مثل حركة المطالبة بحقوق التصويت للنساء ونضال "غاندي" ضد الاستعمار البريطاني) والنظريات العلمية الثورية (مثل نظرية النسبية لأينشتاين)، كل ذلك يمكن وصفه بكونه أفكارا راديكالية.وبالإضافة الى ذلك، فإن أي تغير اجتماعي (مثل نشوء النسوية الراديكالية أو نهاية العبودية والاستعمار...) يعتمد على مواقف مُرَدْكَلَةٍradicalisées تشكل وتدعم التحولات الاجتماعية، وبهذا المعنى تعتبر هذه المواقف "متطرفة" عند النظر إليها من زاوية الوضع الراهن. وقد ساهمت العديد من هذه النظريات والحركات بشكل كبير في تحسين أوضاع المجتمعات ودعم الحريات والحقوق الفردية، سواء باستخدام العنف أو من دونه. وكما أوضح موسكوفيتشي1976)Moscovici) فإن مثل هذه الحركات يمكن أن تُعتبر أحيانا مصدرا للتجديد والتغيير الاجتماعي، وبالتالي فمن الضروري التمييز بين راديكالية الأفكار وراديكالية الأفعال وبين الراديكالية المتجهة نحو التطرف العنيف بما في ذلك الإرهاب (بوصفه شكلا خاصا ومنطقيا للعنف).

لا يوجد حاليا تعريف مُجمع عليه للراديكالية،ويحيل الكُتَّابُ على هذا المفهوم بطرق مختلفة. واستنادا إلى مقاربة متعددة التخصصات وعلى عدة مستويات، يعتمد هذا التقرير على ثلاثة تعريفات متكاملة للراديكالية. يُنسب التعريف الأول لـ "فرهاد خسروخافار" FarhadKhosrokhavar) 2015)، والذي يُعَرِّفُالراديكالية الدينية على مستوى الميكرو بالتركيز على الشخص، حيث يتم تحليل الراديكالية العنيفة بوصفها التزاما فرديا وسيرورةلغرس أفكار تؤدي إلى القيام بأفعال عنف، مع إيلاء اهتمام خاص بسيروراتالتأثير العاطفي والمعرفي. وبحسب "خسروخافار" فإن الراديكالية هي سيرورةيتجه الفرد أو الجماعة على إثرها نحو شكل من أشكال الفعل العنيف، ويرتبط ذلك مباشرة بأيديولوجيا متطرفة يتحول من خلالها فرد أو مجموعة إلى اتخاذ شكل من أشكال العمل العنيف؛ أيديولوجياتُناوئ النظام القائم على المستوى السياسي والاجتماعي والثقافي.

التعريف الثاني يتأتى من السوسيولوجي الألماني "فيلهيلم هايتماير"Wilhelm Heitmeyer)1989؛ 2002)، والذي درس السيرورات المنتجةللتطرف اليميني، وقد صاغ هذا السوسيولوجينظرية عن التفكك الاجتماعي بالأخذ في الاعتبار المستويات المختلفة للنظام الإيكولوجي للفرد والعلاقات التبادلية القائمة بين الفرد وبين هذا النظام. ويرتبط كل ذلك بالحجج السوسيو سيكولوجية لمدرسة فرانكفورت، حيث يُنظر للراديكالية العنيفة بوصفهانتاجالمزيج من التجارب الفردية والشروط الاجتماعية التي تتولد عنهاشكاوى وتظلمات اجتماعية معينة.

وبحسب "هايتماير": "يتسم التوجه اليميني المتطرف بارتباطه بعناصر أو بدائل معارضة للنماذج الاجتماعية المحددة نظريا، لكنها عمليا تستند غالبا على وعود غير متحققة بالديمقراطية السياسية وإطلاق إمكانات الحرية الفردية والمساواة" (Heitmeyer, 1989, p 164-76).هكذا، وعلى مستوى الماكرو، يمكن اعتبار الراديكالية العنيفة لليمين المتطرف بمثابة شكل من أشكال الحرب أو هي حرب عصاباتتتحدى العلاقات السلطوية القائمة منذ زمن طويل وتهدد الحريات والأمن المدني،ويمكن القول إن تصور "هايتماير" هذا يظل محدودا لأنه يفترض أن الراديكالية تصاحبها بالضرورة أعمال عنف.

استنادا إلى الإطار الإيكولوجي، يقدم "شميد"Schmid (2013) تعريفا ثالثا يحددالراديكالية بوصفها سيرورة فردية أو جماعية،ويَصْدُرُ مصطلحالراديكالية عن التفاعلفيما بين العلاقات البيجماعية ويرتبط بحالة من الاستقطاب السياسي. وفي هذا السياق يتم التخلي عن الممارسات المعبرة عن الحوار والتوافق والتسامح بين مختلف الفاعلين، وذلك على الأقل من طرفأحد الأطراف، وفي المقابل يكون هناك اتجاه نحواستخدام التكتيكات الصراعية والعنيفة. ويشمل هذا التعريف أيضا التأثير الخطير (والذي غالبا ما يتم تجاهله) للقطيعة التي يمكن أن تخترق الحوار الديمقراطي والالتزام المرتبط بالمواطنة. ويحظى مصطلح الراديكالية بميزة كونهيوضح كيفية بناء الخطابات الجمعية الأيديولوجية الداعية لعقائد معينة، حيث "الآخرون" يتم تقديمهم بشكل راديكالي على أنهم مختلفون عن "نحن". ولأنه يتم تصوير "نحن" على أنه مستغَل ومهدَّد، فيجب بالتالي الدفاع عن الضحايا،أما "الآخر" فيتم نزع الإنسانية عنه (بأن يتم مثلا تقديمه على أنه شر أو تصنيفه ككافر كما يحدث في الراديكالية الإسلاموية)أو وصفهم بالخنازير كما يفعل المتطرفون اليمينيون وهم يشيرون إلى جماعات معينة) (Das, 1998). نتيجة لذلك، يتم تبرير الإقصاء والاضطهاد والعنف المحتمل، وكل هذه التعريفات المذكورة آنفا (حيث كل واحد منها يبدو بعيدا عن مفهوم الإرهاب)تسمح لنا بتصور الراديكالية العنيفة بوصفها تفاعلا ديناميكيا ومتكاملا فيما بين ثلاثة مستويات يمكن ملاحظتها سواء في العالم الواقعي أو في الفضاء السبراني:

- البحث عن المعنى الجوهري وعن الأصل والعودة إلى "أيديولوجيا-جذر".
- الشروع في عملية التجنيد وتبني الجماعة لأسلوب عنيف في نشرأفكارها وأيديولوجيتها.
- خلق قطبية polarisation في المجال الاجتماعي، والبناء الجمعي لمثال idéal خاص بـ "نحن" يتم تقديمه على أنه مهدد من طرف آخرين يتم تجريدهم من إنسانيتهم عبر سيرورة "كبش الفداء"،وفي ظل هذه المقاربة يمكن تعميق البحث أكثر بخصوص العلاقات بين نظريات المؤامرة والراديكالية (Giry, 2015 ; Hall, 2006)،وذلك باعتبار أنالمقاربة المؤامراتية تعد عنصرا حاضرا في معظم الراديكاليات العنيفة، ولكنها أوسع بكثير من الانحراف العنيف والإرهابي الذي يهمنا هنا.

في ختام هذه المراجعة للأدبيات المفاهيمية،يكاد يكون قد تشكل لدينا انطباع بأن كل شيء هو عبارة عن راديكالية،وأن هذا المصطلح يفقد معناه ليصبح مستوعبالراديكاليات بناءة تستند على وقائع (كما هو حال الخلافات العلمية) وكذلك راديكاليات موجهة نحو الموت ونحو الدمار.ويمكننا القول إن الرؤية الشخصية العدمية لفرد يمجد الموت والفوضى هي راديكالية شبيهة بالفكر الديني المتطرف الساعي إلى التحضير لنشوء "مملكة الإيمان". لا يوجد اليوم إذن فكر معقد ونسقي يسمح لنا بأن نجعل من هذا المصطلح موضوعا علميا.لقد اخترنا منهجية أكثر إجرائيةتستند إلى الطلب الذي تمت صياغته من طرف اليونسكو ووُجِّهَ لنا، وتمثل هذا الطلب في أن نقدم عرضا مفصلا للأبحاث العالمية التي اهتمت بدراسة الروابط أو التأثيرات القائمة فيما بين وسائل التواصل الاجتماعي وسيرورات الراديكالية في ظل ما تبرهن عليه هذه الأبحاث حاليا، أي السيرورةالكامنة في ظواهر التطرف العنيف حيث يتم استخدام الإرهاب كشكل للفعل، وقد قررنا إذن أن نعرف مصطلح "الراديكالية " عبر الإحالة على أربعة أنواع من الراديكاليات كالتالي:

- الراديكالية السياسية: ونُدرج ضمنها هنا ظواهر الراديكالية العنيفة لليمين المتطرف واليسار المتطرف، وكذا الراديكالية القومية أو الاستقلالية.
- الراديكالية الدينية: وندرج ضمنها هنا أفعال الراديكالية العنيفة المستندة إلى

أيديولوجيات دينية حتى لو كانت الديانات نفسها التي يتم الاستناد إليها لا تعترف بهذه الأفعال، وكان قد سبق للإمام الأكبر أحمد الطيب من جامع الأزهر أن قال خلال زيارة البابا فرونسواpape François:"نعم، الإرهاب موجود، لكن الإسلام لا علاقة له بهذا الإرهاب".

• الراديكاليةالاجتماعية: وندرج ضمن هذا التصنيف مجموع أشكال الراديكالية المؤدية إلى العنف من طرف جماعات مسلحة أو غير مسلحة، والتي ترفض الآخر من خلال أشكال من التمييز مرتبطة بالأحياءquartiersأو الرياضات sportsأو النوعgenreأو العصابات أو المجموعات المسلحة.

• الراديكاليةالطائفية أو الاثنية: وندرج ضمن هذا التصنيف كل أشكال الراديكاليات العنيفةالإثنية أو الطائفية.

إن هذه التصنيفات الأربعة لا تعبر طبعا عن عناصر مستقلة ومتمايزة عن بعضها البعض تمت ملاحظتها، ولكنها مُثُلٌ نموذجيةيمكن أن تمتزج ببعضها البعض وأن تتهاجن. ونحن نـدرك خـلال هذه الأجـرأة وقوعنا في القصور على مستوى التأطير النظري، لكن بما أن مجال البحث في موضوعنا هو مجال جدل وخلافات، فقد قررنا، استجابة لطلب اجتماعي،أن نظل داخل إطار المُثُلِ النموذجية القابلة للأجرأة.

منهجية العمل التركيبي ومراجعة الأدبيات الدولية وطرق الانتقاء

من أجل مراعاة الغايات من مراجعة الأدبيات الدولية في الموضوع، عملنا على بلورة منهجية قوية للتقويم بالاعتماد على مناهج كامبل méthodes Campbell (Boruch, 2004))، وعملنا أيضا على صقل تفاصيل كل مرحلة بحسب طبيعة عملنا وأهـدافـه المحددة انطلاقا من "نمـوذج كوكرين وبريسما"modèle de Cochrane et PRISMA. لقد تم أدنـاه وصف كل مرحلة من مراحل الفحص وكذلك نتائج البحث التقييمي، وهـذه المراحل هي مراحل رئيسية تم تصميمها بشكل تفاعلي ضمن سيرورة تكرار مستمرة، وقد اتبعنا، فيما قمنا به من جرد وانتقاء وقراءة وتركيب، المراحل التالية:

• المرحلة الأولى: صياغة السؤال وتثبيت التعريفات؛ "مـا أدوار وسائل التواصل الاجتماعي في سيرورة الراديكالية العنيفة؟ وإلى أي مدى يمكن لإجـراءات الوقاية والتدخل أن تلعب دورا في هذا الإطـار؟" قمنا في هـذا العمل التركيبي باستبعاد الأشكال المبنينة لحرب العصابات أو الحرب المدنية، والفاعلين الثوريين المرتبطين بأشكال العنف المختلفة، وأيضا أشكال العنف المبنينة بواسطة تنظيمات غير قانونية كالمافيا والعصابات، واستبعدنا كذلك الأشكال الراديكالية للفكر كمناهضة النظام والشعبوية ونظرية المؤامرة. وفي الواقع، فإن هذا الاختيار لا يعني أن أشكال التفكير المؤامراتي لا تساهم في سيرورة الراديكالية كما هو الحال أيضا بالنسبة لعناصر خطابات القطيعة كمفاهيم التمييز الديني والعزل الاجتماعي، ولكننا لم نرغب في توسيع نطاق الدراسة بشكل كبير، كما أن العلاقات بين نظرية المؤامرة والراديكالية لم يتم إثباتها حتى لو ظهر لنا أن نظرية المؤامرة تساهم في بناء تمييز من نوع ما بين "نحن" و"هم"،وهو إحدى ثيمات التجنيد الأيديولوجي.

• المرحلة الثانية: تحديد معايير الإدمـاج/الإقـصـاء؛ تعتمد المعايير التي استخدمناها لتحديد عناصر الأدلة المقبولة على فحص متعارض لهذه العناصر،وتعتمد أيضا على القدرة على صياغة توصيات واضحة. وبالنظر إلى أن البحث بخصوص العلاقة بين الأنترنت والراديكالية العنيفة شيء حديث نسبيا، فقد اهتممنا باستخدام مقاربة "أفضل الأدلة المتاحة"،وذلك لإبراز النتائج الأكثر بداهة بالاستناد إلى معطيات صريحة وموضوعية. وهذه التقنية التي يتم استخدامها في علم الإجرام ستعتمد في تحليلاتها أولا على وقائع مثبتة، مع تجنب تفضيل أو إعطاء الأولوية لوقائع مثيرة للاهتمام لكنها ليست مثبتة.

• المرحلة الثالثة: البحث في الأدبيات؛ طور كل فريق بحثي وطني استراتيجية البحث وكيفها مع أدبياته العلمية والرمادية (مقالات صحفية أو إعلانية متاحة بالنسبة للعلماء). بعد ذلـك أنجزنا دراسـات نسقية استنادا إلى أكثر البيانات استخداما والمعروفة أكثر على المستوى الدولي.

• المرحلة الرابعة: انتقاء الدراسات التي سيتم إدراجها ضمن عملية الفحص والمراجعة؛ أولا عمل أعضاء كل فريق بحثي وطني على مراجعة الملخصات لاستبعاد الدراسات التي بدا واضحا أنها غير مناسبة وغير مؤهلة، ثم قاموا ثانيا بمراجعة الوثائق الكاملة لإنجاز الفحص النهائي للأهلية باستخدام مقياس من درجة 1 (استبعاد نهائي) إلى درجة 5 (إدراج نهائي)، وقد تمت مناقشة الخلافات في الآراء واتخاذ القرارات بالتوافق.

• المرحلة الخامسة: جمع معلومات متأتية من دراسـات؛ تم ابتداء فحص البيانات والمعلومات من كل دراسـة تم انتقاؤها، ثم بعدها تم استخلاص هذه البيانات والمعلومات باستخدام أوراق ترميز.

• المرحلة السادسة: تحليل وإدماج نتائج البحث؛ قمنا بإنشاء تجميعات متوازية من البيانات بحسب: أ) مختلف المفاهيم الناتجة عن سـيرورة الفحص؛ ب) نوع الدراسة؛ ج) المنطقة الجغرافية للدراسة؛ د) الـدراسـات التي تركز على الوقاية والتدخل. وقد عمل أعضاء فريق البحث على استخلاص البيانات والتعبير عنها بشكل تركيبي.

• المرحلة السابعة: تفسير عناصر الأدلة؛ في هذه المرحلة عملنا على إنشاء صياغة تركيبية للأدلة وخاصة: أ) المواضيع المختلفة التي برزت عن الأدبيات؛ ب) درجة الثقة في كل استنتاج (على مستوى المعلومات المتوفرة ومتانة الدراسات والتقارير)؛ ج) تعميم النتائج وقابليتها للتطبيق؛ د) حدود المعارف المتوفرة.

خرائطية الأبحاث والباحثين

كان هناك 4517 مقالا يعرض بيانات كمية استنادا إلى مجموعة من المنشورات المتعلقةبقضايا الإرهاب والراديكالية،ومن بين هذه المقالات كان هناك 1956 مقالا أبرز تقاطعات مع الثيماتالرقمية (الإنترنت ووسـائـل الـتـواصـل الاجـتـمـاعـي)، وتم الاحتفاظ فقط بـ594 مقالا نظرا لجودة مضمونها وجودة المعلومات الـواردة بها القابلة للاستخدام. وفيما يتعلق بتوزيع لغات العمل نجد أن اللغة الإنجليزية هي المهيمنة، لكنْ اللغتان الفرنسية والألمانية كانتا أيضا ممثلتين بشكل جيد (بنسب 18 بالمئة و10 بالمئة على التوالي)، في حين لم تتجاوز نسبة المقالات باللغة العربية 6 بالمئة. وفي المقابل عندما نسلط الضوء على المؤلفين نجد أن نسبة المؤلفين الناطقين بالعربية تبلغ 20.5%، مقابل 23.3% للأميركيين، و42.3% للأوروبيين.

واقع البحث في مجال الروابط بين وسائل التواصل الاجتماعي والراديكالية العنيفة والنتائج

على الرغم من هيمنة الخطابات السياسية أو الإعلامية المثبتة لوجود علاقة قوية بين انتشار وسائل التواصل الاجتماعي وظهور أشكال محلية من الراديكالية أو المنددة بهذه العلاقة، فإن عملنا التركيبي يكشف عن أن هناك القليل فقط من الأبحاث التي تناولت بالدراسة دور أو فعالية استخدام وسائل التواصل الاجتماعي في الراديكالية العنيفة. وبالرغم من أن عددا كبيرا من المقالات يتناول الاستراتيجيات الإلكترونية واستخدام الأنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي في عمليات التجنيد الإرهـابي، إلا أن الدراساتالأمريكية التي تصف وتفحص التأثيرات الفعلية لهذه

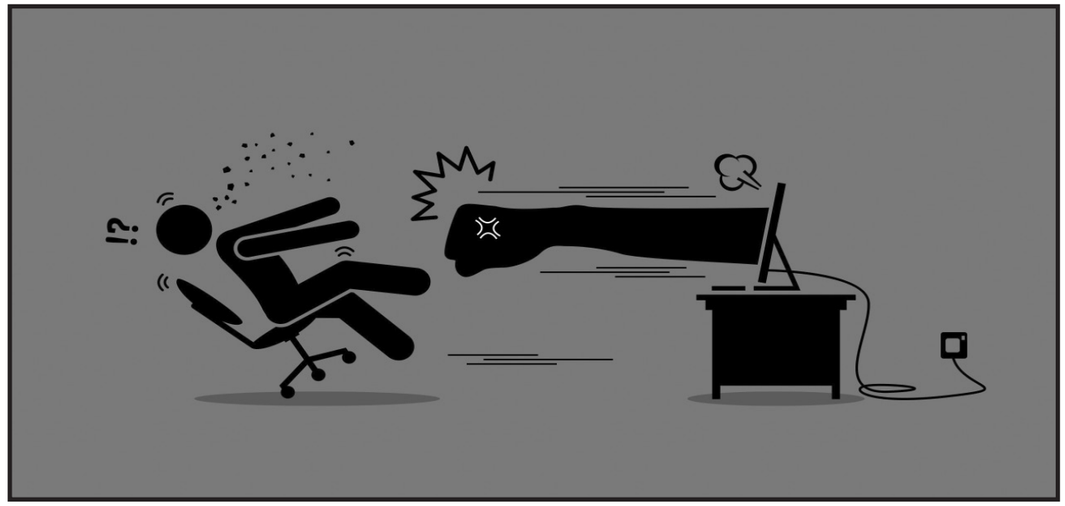

الاستراتيجيات على الشباب تظل قليلة جدا (Ernst-Vintila, 2015).كذلك فإن الجوانب المرتبطة بالنوع الاجتماعي نادرا ما يتم فحصها،ومن المؤكد أن هذه المجالات البحثية حديثة جدا، ومن الصعب أحيانا تفكيك الجوانب المختلفة الكامنة وراء الكلمة المفتاحية "أنترنت" في أدبيات الويب ووسائل التواصل الاجتماعي قبل عام 2005. وتجدر الإشارة إلى أنه على الرغم من البحث الموجه في مثل هذه المسائلابتداء منسنة 2010، فإن وسائل التواصل الاجتماعي كانت لا تزال مشمولة في التعبير المجازي الذي هو "الشبكة" (Goede, 2012)، والذي كان يُستخدم ليشمل الأنترنت بأكمله، بما في ذلك تطبيقات الويب والمنصات المشتقة عنها. والتعبير المجازي "شبكة" يتضمن عددا من القيم مثل التواصل العابرللحدود، ويشير أيضاإلى وجود منصة تجعل العالم قابلا لاستقبال أفعال تدخل. إلا أن العالم أصبح بشكل متزايد مرتبطا أيضا بتطور خطورة تقنيةتؤدي إلى وجود خطر يتمثل في الانتشار السريع للفيروسات والإشاعات والكراهية. وفيما يتعلق بالراديكاليةوالتطرف والإرهاب، فإن شبكة الأنترنت ليست فقط جزءا من المشكلة، بل تشكل أيضا جزءا من الحل.

اليوم نلاحظ أن الحالة الراهنة للبحث تشير إلى عدم وجود أعمال علمية تثبت وجود علاقة سببية بين وسائل التواصل الاجتماعي والراديكالية، وهذا لا يعني أن الإنترنت ليس أداة أو رافعة من روافعالراديكالية، بل يعني ذلك فقط أن هذهالعلاقة السببية هي فكرة لم يتم البرهنة عليها كما لم يتم تفنيدها.إن الاستخدامات الحالية لوسائل التواصل الاجتماعي، ومسائل التنظيم القانوني للمعلومات على الإنترنت، هي معطيات تستحق أن تُدرس عبر أبحاث لمعرفة ما إذا كانت تُستخدم فعلا بشكل يجعلها عاملا مساهما في راديكالية الأفكار، وتكوين عقليات متطرفة وعنيفة، والتشجيع على وجود أفعال راديكالية محتملة،خصوصا لدى الشباب ذكورا وإناثا.

تميل معظم الأبحاث بين عامي 2005 و2011 إلى التركيز على الاستخدامات الإيجابية للأنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي من طرف "الشباب"، وذلك حتى في إطار برنامج "أنترنت أكثر أمانا" الذي أطلقه الاتحاد الأوروبي سنة 1999. وقد تناولت بعض الدراسات الاستخدامات السلبية للأنترنت من قِبل الراشدين (خصوصا فيما يتعلق بالبيدوفيليا والبورنوغرافيا والعنف السيبراني والمضايقات الموجهة) (Livingstone et al., 2011 ; Blaya, 2012). كذلك الاستراتيجيات الفردية، أكثر من الجماعية، كانت محور الاهتمام الرئيسي، وقلة قليلة من الدراسات انصبت على الاستخدام المتطرف (السياسي أو الديني) للفضاء السيبراني. وخلال هذه الفترة، لم يكن النشطاء على شبكة الأنترنت ممن يرتبطونبأفكار راديكالية يُنظر إليهم بوضوح على أنهم جماعات سياسية، بقدر ما كانوا يعتبرون جزءا من ثقافات فرعية على الأنترنت،وقد يكون هذا التصنيف قد أدى إلى التقليل من شأن سرعة تحولهم إلى شبكة والتقليل من قوتهمالأيديولوجية.

منذ سنة 2012، وجزئيا بسبب "الربيع العربي" وقوة وسائل التواصل الاجتماعي على الحشد، أظهرت بعض الأبحاث التشابه القائم بين الشبكات الاجتماعية والجماعات الإرهابية من حيث وظيفتها كشبكات، حيث تكون لامركزية ومنتشرة في كل مكان وأيضا متحركة (Conway ; Schils&Laffineur, 2013 2007). انتقل عامة الناس، بفضل الأنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي، من مجرد مجموعة من المتفرجين السلبيينإلى فاعلين نشطين "يجمعون المعلومات بأنفسهم عوضا عن انتظار وسائل الإعلام أن تقوم بفلترة هذه المعلومات وتقديمها لهم" ((Seib, 2006, p. 78). وقد امتدت عملية التنشئة الاجتماعية لتشمل إنتاج ومشاركة المعلومات داخل الشبكات على الأنترنت، وأدت وظيفية الأنترنت إلى تحول في تكتيكات الجماعات المتطرفة، إذ تكيفت هذه الجماعات مع الإمكانات اللامادية لشبكة الويب. فالأنترنت يقدم معلومات هائلةبسرعة كبيرة وبأشكال متنوعة، خاصة مقاطع الفيديو (التي تُستخدم للتواصل البصري والقائمة على العاطفة)، والتواصل التفاعلي ثنائي الاتجاه، والروابط الأفقية، وغير ذلك (Ney, 2015). كما يتميز الأنترنت أيضا بعدم مركزيته وإمكانية سيطرة الأفراد عليه (Tsfati&Weimann, 2002, Weimann, 2006)،ويوفر إمكانية البحث عن معلومات أو نشر معلومات في نوع من المجهولية النسبية وبعيدا عن رقابة أو سيطرة الحكومة، خاصة في البلدان التي تتمتع بمستويات عالية من حماية حرية التعبير وتفرض رقابة ضئيلة على محتوى الأنترنت. إضافة لذلك، يمكن عرض المعلومات على الشبكات المحلية مع استهداف جمهور عالمي عبر الزمان والمكان، الشيء الذي يسمح لهذه المعلوماتبالوصول إلى أهدافها في أي مكان وفي أي زمان (Conway, 2007; Schils&Laffineur, 2013). وتوفر منصات التواصل الاجتماعي مزايا كبيرة للجماعات المتطرفة، بحيث لولا هذه المنصاتلكان ممكنا أن تظل هامشية على مستوى وسائل الاتصال.

ركزت أبحاث حديثة على الاستخدام المتزايد لمواقع الشبكات الاجتماعية من طرف متطرفين عنيفين، مواقع مثل فيسبوك وتويتر، بالإضافة إلى توغلات إضافية في منصة يوتيوبوالتي تُستخدم لأغراض البروباغاندا (الويب باعتباره "مسرحا للرعب") (Weimann, 2008)، والتجنيد (Weimann, 2006)، وجمع التبرعات. تتشكل الأدبيات في هذا الإطار أساسا من تقارير وصفية تندرج ضمن الأدبيات الرمادية، ومن بين المساهمات المهمة بهذا الخصوص تقرير بعنوان "الطيور الخضراء: قياس الأهمية والتأثير في شبكات المقاتلين الأجانب في سوريا"، وهو تقرير يوثق استخدام وسائل التواصل الاجتماعي في عمليات التجنيد اللامركزي واستهداف جمهور شاب (ICSR, 2013).

إن تقرير "Tringer Jihad"الذي أعدته مؤسسة كويليام (2014)يفكك كل شبكة اجتماعية رئيسية ويحلل خصائصها، ويقارن بين هذه الشبكات ويُبرز أوجه التشابه والاختلاف في أدوارها، كما يُقارنها مع مواقع الويب وغرف الدردشة. ومن المهم الإشارة إلى أن التقارير المشار إليها أعلاه تركز فقط على الراديكالية العنيفة الإسلاموية، ولا تتناول الأشكال والجماعات الأخرى المتصلةبالراديكالية العنيفة،وبالتالي فإن المعلومات التي تقدمها ليست بالضرورة قابلة للتعميم على جماعات أخرى. وفي الواقع، رغم أن وسائل الإعلام تبدو وكأنها تبني جسورا رابطة بين الراديكالية الجهادية وراديكالية اليمين المتطرف، فإنه يمكننا القول إن قليلامن الدراسات العلمية أو حتى لا وجود لدراسات علمية تثبت وجود هذا الارتباط.

غرف الدردشة والمنتديات

يمكن دمجغرف الدردشة والمنتديات في معظم الوسائط القائمة على الأنترنت. والتقارير التي درست استخدام غرف الدردشة من قبل الجماعات المتطرفة العنيفة تصف هذه الغرف بأنها مجال يمكن أن يلتقي فيه "الشباب المعرَّضون لخطورتها" والذين لم يكن لديهم سابق احتكاك بها، وفي هذا المجال يجدون أنفسهم أمام سرديات دينية تمارس فعل الرَّذْكَلَةِ (Hussain, Saltman 2014 ; Shah, 2012). ويتأطر هذا ضمن إسهام"ساجمان"(Sageman 2004) بخصوص دور منتديات المناقشةبناء على تمييزه بين المواقع الإلكترونية بوصفها مصادر للمعلوماتالخامدة وبين غرف الدردشة بوصفها مصادر للتفاعلات النشطة. وبحسب "ساجمان"، فإن منتديات النقاش تسهل عملية التشبيك لأنها تُعزز التواصل بين الأشخاص المتبنين لنفس الأفكار والقيم والمتشاركين في نفس التجارب، وتقوي العلاقات البيشخصية، كما توفر معلومات حول العمليات(مثل التكتيكات، والأهداف، والدروس التعليمية).

فيسبوك

على الرغم من أن العديد من الجماعات المتطرفة تعارض أيديولوجيا واستراتيجيا استخدام فيسبوكFacebook، إلا أن بعضها يواصل التواجد بقوة على هذه المنصة سواء بشكل مباشر أو من خلال أنصارها (Hussain, Saltman 2014). ومع ذلك، لا يبدو أن فيسبوك يُستخدم للتجنيد أو التخطيط المباشر، وذلك ربما لأنه يحتوي على ميكانيزمات تتبع ويمكنه ربط المستخدمين بأماكن فعلية وبأوقات محددة. وبدلا من ذلك، غالبا ما يُستخدم فيسبوك من قبل المتطرفين كمجاللامركزي لنشر موارد معلوماتية وفيديوهات (...) (Hussain, Saltman 2014 ; Shah, 2012). ويُستخدم فيسبوك أيضا لجذب أعضاء انطلاقا من فكرة أن الشباب المتعاطفين يمكنهم تبادل معلومات وصور بهدف إنشاء مجموعات على فيسبوك بطريقة لا مركزية.

تويتر

توفر مواقع التدوين المصغرsites de microblogging مثل تويترTwitter مزايا أكبر للجماعات المتطرفة، لأن تتبع الهوية وتتبع مصدر التغريدات يكون أكثر صعوبة، مما يزيد من إمكانيات التواصل بالنسبة لمن يقومون بعمليات التجنيد (Crettiez, 2011; Hussain, Saltman 2014; Menkhaus, 2014). وبالإضافة لذلك، يمكن للمتطرفين عبر تويتر، وبسهولة،أن يعلقوابشكل علني على الأحداث الدولية بمختلف اللغات، مما يمكن النشطاء من التفاعل عند إطلاق حملات

تضليل إعلامي سرعان ما تنتشر (Hussain, Saltman 2014).

يوتيوب وباقي منصات الفيديو

لا يـزال يـوتـيـوبYouTubeالمـنـصـة المفضلة لمشاركة مقاطع الفيديو، رغم المنافسة المتزايدة من منصات أخرى مثل ديلي موشن Dailymotion وفيميو Vimeoوغيرها. وتتمثل ميزة يوتيوبفي صعوبةتحديد هوية الأشـخـاص الذين ينشرون المحتوىوتوفيرإمكانية التعليق ومـشـاركـة المـحـتـويـات للمستخدمين (Quilliam, 2016). وهناك ثلاث غايات أساسية تدفع المتطرفين الإسلامويين العنيفين لإنتاج مقاطع فيديو،وهذه الغايات هي: تمجيد الشهداء، والتشجيع على تنفيذ هجمات انتحارية، والقيام بالبروباغاندا لصالح الأيديولوجيا المتطرفة (Conway &McInerney 2008; Hussain, Saltman 2014, Hecker, 2015). ويقدم "تقرير كويليم"Le rapport Quilliam 2016)) تحليلا شاملا لمحتوى الفيديوهات المعبرة عن مضامينإسلامويةمتطرفة عنيفة والمنشورة على منصة يوتيوب. وقد قام العديد من الباحثين بإجراء تحليلات لمحتوى الخطابات المتطرفة على يوتيوب وفيسبوك من أجل تحديد أكثر الخصائص الإنتاجية استخداما في هذا المحتوى، بما في ذلك أنماط العمل وتأثيراتها المتوقعة (Salem, Reid & Chen, 2008; Tomomi, 2013). وتُظهر الدراسات المبنية على الاستراتيجية البلاغية للجماعات المتطرفة أن هذه الجماعات تستخدم مـوارد الأنترنت بعدة طرق،إذ تستخدم"إغراء رقميا" عبرعلامات ورموز بصرية مألوفة لدى الشباب على الأنترنت (Vergani, 2014). وتبعثالفيديوهاتبرسائل متعددة الوسائط ومتعددة اللغات، وتجمع بين مؤشرات غير لفظية وصور حية لأحداث يمكن أن تثير ردود افعالنفسية وعاطفية، بل وحتى ردود أفعال عنيفة (Salem, Reid & Chen, 2008)،كما يعمل الإرهابيون أيضا على تصوير هجماتهم على شكل مقاطع فيديو ونشرها على الأنترنت، وذلك بهدف التعبير عن كفاءتهم ونجاحهم.

خلاصة

إن تحويل الشباب إلى راديكاليين عبر الأنترنتظاهرة لم تَحْظَ بعد بتغطية كبيرة من الـدراسـات بشكل يجعل البحث في هذه المسألة ذا مصداقية في استنتاجاته وتوصياته. فلا يوجد حاليا سوى قدر ضئيل من المعطيات الكيفية حول هذا الموضوع، على عكس الأدبيات المتعلقة بجعل الشباب واعين بالمسؤولية فيما يتعلق بالاستخدام الآمن للأنترنت. ورغم أن "الأدبيات الرمادية" (مثل التقارير، والبروفيلات، والتحقيقات الصحفية المعمقة) حـول الراديكالية العنيفة والإرهـاب قد شهدتتطورا خلال السنوات الأخيرة (منذ سنة 2012)، إلا أن اهتمام الوسط الأكاديمي بهذه المسائلعبر إيلاءها ما تستحقهمن دراسة وتنظير لا يزال غير كاف. بالإضافة إلى ذلك، تعاني عدة دراسات من قيود منهجية كبيرة، ومن ذلكدراسات الحالة ذات الطابع القصصي (القائمة على دراسات لحالات معزولة) أو الدراسات التي تفتقر إلى البيانات الأمبريقية الكافية(بسبب ضآلة ومحدودية المعطيات وعدم غنى التحليلات). ويوجد اليوم عدد كبير من التحليلات غير المباشرة للحالات (مثل تلك المستخلصة من المحاكم أو من الصحافة) في حين أن التحليلات الكيفية المباشرة والعميقة قليلة.

توجد حاليا دلائـل على وجـود نوع مـن الـتـوافـق الاخـتـيـاري بـين التعرض للبروباغاندا المتطرفة والتجنيد والتعبيرعن مـواقـف متطرفة وبـين ازديـــاد خطر الراديكالية العنيفة لدى الشباب، خصوصا بالنسبةلجماعات اليمين المتطرف. ومع ذلك، فإن الأدوار والسيرورات الدقيقة التي يسهم من خلالها الأنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي في سيرورة الراديكالية لا تزال بحاجة إلى مزيد من الدراسة والاستكشاف. كما أنه لا توجد أدلـة كافيةكي نستنتج وجود علاقة سببية مباشرة بين البروباغاندا المتطرفة عبر الأنترنت أو التجنيد عبر الأنترنت وبين الراديكالية العنيفة للشباب. لقد أصبح الأنترنت مجالا للقاء بين أشخاص تائهين أو باحثين عن المعنى وعنخطابات مُبنينة ترتكز على نظريات المؤامرة والأفكار المتطرفة.

يوضح الملخص التركيبي للأدبيات المتوفرة أن وسائل التواصل الاجتماعي تُشكل، في أفضل الأحـوال، بيئة مساعدة وليس قوة دافعة بحد ذاتها نحو الراديكالية العنيفة أو الارتكاب الفعلي للعنف. وتظهر المعارف المتوفرة أنه لا يوجد دليلماديثبت أن تأثير وسائل التواصل الاجتماعي يمكن أن يعمل بشكل مستقل عن عوامل أخرى موجودة في الواقع خارج الأنترنت، على الرغم من أن أبعاد العالم الرقمي وأبعاد الواقع أصبحت أكثر تداخلا. وبهذا المعنى، فإن الأنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي يمكن أنيؤديا دورا داعما، لأن الشباب المتطرفين يمكنهم حينها البحث بنشاط في النت عن محتوى يغذي ميولهم، مما يجعلهم فرائس سهلة لاستراتيجيات التجنيد التي تعتمدها الجماعات الراديكالية. ■

إبداعات

قصة قصيرة

الهامسة

ليلى بارع

كانت العاشرة، حين دفعت باب العيادة ودخلت رفقة طفلة صغيرة وتوجهت نحو الممرضة، سألتها في ما يشبه الهمس عن شيء حرصت على أن لا يسمعه غيرهما، كانت نحافتها لافتة، شعرها كثيف مصبوغ بالأشقر بالكاد يغطي أذنيها، بدا غير مرتب وكأنها نسيت تمشيطه أو كأنها استيقظت للتو من نوم طويل. شكرت الممرضة بشكل آلي وتوجهت نحو الكرسي الجلدي الأبيض وغرقت فيه منشغلة بهاتفها في حين اختارت الطفلة التي غطت شعرها بطاقية صوف تتدلى منها ضفيرتين اللعب بصندوق خشبي ملون يبدو أنه وضع خصيصا لصرف انتباه الأطفال ومنعهم من مضايقة آبائهم.

تبادلت مع صغيرتها بضع كلمات لا غير، ابتسمتا معا في نهايتها، كلمات لم أستطع فهمها، وكأنها قيلت بلغة أخرى...لم تنتظرا طويلا، سرعان ما استدعت الطبيبة الطفلة الصغيرة لأجل حصتها المعتادة لتصحيح النطق، عرفت ذلك لأنها كانت تنطق الحروف بشكل مسموع وواضح يصل إلى القاعة. هي اكتفت بتتبعها بنظراتها قبل أن تختفي خلف باب زجاجي رمادي ثم عادت للتحدث على هاتفها، حاولت سماع ما تقوله لكنها كانت تهمس فقط، خيل لي أنها نامت لبرهة أو ربما هما فقط عيناها الناعستان، شعرها الأشقر المجعد حجب عني الرؤية. خرجت طفلتها باسمة توجهت نحوها وحاولت تقبيلها لكنها لم تتحرك من مكانها، لم أفهم بالضبط ما حدث. أنا مجرد ساعة حائطية قديمة، كنت أنظم الوقت لأشخاص هامين جدا قبل أن يتخلى عني أحفادهم.. لا علاقة لي بهذا المكان وكل ما أفعله هو الانتظار، وأيضا محاولة فهم ما يفكر فيه الآباء أثناء تواجد الأبناء بمكان قريب ومغلق حيث يطلب منهم البقاء خارجا....لا أفهم البشر كثيرا.

كانت هناك غارقة في أفكارها، شعرها قصير وقبيح، لم تتوقف عن الهمس في هاتفها وكأنها تخشى أن يسمعها الآخرون ولم تبد منشغلة البال على طفلتها. جلست وكأنها في مكان لا علاقة له بالعيادة، وحين انهت مكالمتها الطويلة نامت..

بكل بساطة. مقاس حذائها 36 وقياس خصرها مثله، لم أستلطفها أبدا، لا يمكنني معرفة ما حدث في الأعلى، أنا مجرد كرسي أبيض، أصبت بالملل من كثرة مشاهدة نفس الشريط كل يوم، كان جسدها دافئا قبل أن يصبح باردا في لحظة وحين حدث ذلك كانت عقارب صديقتي الساعة تشير إلى العاشرة...أنا متأكد من ذلك.

قالت إن هناك كاميرات بكل مكان وأن علي أن أكون مؤدبة..المكان كان أبيضا بشكل مبالغ فيه، لم يكسر ذلك البياض غير كذبتها تلك، كذبتها التي ضحكنا عليها معا، لم أصدقها وهي ابتسمت طويلا، وأخفى شعرها المجعد الجميل وجهها الصغير المندس في هاتفها، ستبقى ابتسامتها محفورة بذاكرتي للأبد ورائحتها أيضا الشبيهة برائحة الصابون المعطر، كلما فكرت بأنها في الخارج شعرت بالفرح، وحدقت في اللوحة المعدنية جيدا حتى أعرف اتجاه وشكل الحروف الصغيرة...حين خرجت كان هناك ضوء قد انطفا في القاعة...ضوءها، كانت مكورة على نفسها كجنين باردة كدمية من البورسلين لكنني سمعت أنفاسها وسمعت صوتها يناديني...لم أخبر بذلك أحدا . أنا مجرد طفلة ولا ينبغي أن أتعرض لكل هذا الضغط الشديد..

لم يعلق "أنجل" بشيء، كان ينظر إلى الممرضات اللواتي هرعن حولها محاولين إفاقتها من سباتها وهلع الأطفال وذويهم. كانت الفتاة الصغيرة واقفة بالزاوية تنظر إلى "أنجل" بثبات. عرف بأنها تراه، بعض الأطفال يولدون بهذه الموهبة... الأمر مزعج لكنهم سينسون ذلك عاجلا أم آجلا...

استدعاءه إلى هذا المكان غير مبرر، ألقى بنظرة على مستقبل المرأة وشاهد خطواتها في الكثير من الأمكنة... والعوالم أيضا. هز رأسه وهمس في رأس الفتاة الصغيرة ببضع كلمات. توجهت الفتاة نحو الساعة البيضاء المخططة بالأسود وفتحت غطاءها وحركت العقارب نحو المنتصف إلا خمس دقائق...تك تك تك...بدأ العقرب الكبير في التحرك معلنا الحياة في جسد الساعة... سعلت المرأة بحدة وتراجع الأطفال خائفين في حين ابتسم الأطباء وشدوا على يديها ...سمعت صوتا يقول: "لقد تجاوزت مرحلة الخطر ستكونين بخير.."..همست بصوت يشبه صوت طفل صغير: "كنت أطفو ولم أستطع العودة إلى جسدي، لقد منعتني العقارب من ذلك...." لم يسمعها أحد واكتفى الجميع بتلك الابتسامة الصفراء التي تعقب الخوف. ضحكت الساعة بخبث وتابع الكرسي من الأسفل خفة الجسد النحيف وهو يغاده. رحل"انجل" مسرعا، ولم تفهم الصغيرة ما حدث يومها بعيادة الأطفال..كأنه حلم أبيض تضيء فيه ابتسامة امرأة نحيفة شقراء القاعة، تتكلم فيه الساعة الكلاسيكية المخططة ويعرف كرسي مقاس حذاء النساء، ويظهر فيه ملاك أبيض يعيد الأرواح المتمردة إلى جسدها قبل أن يختفي للأبد....

منشورات مدى

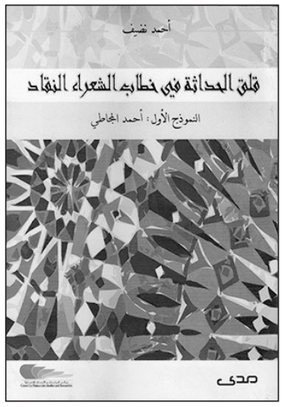

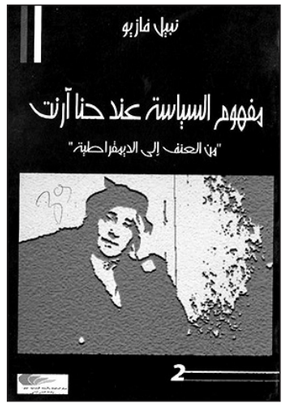

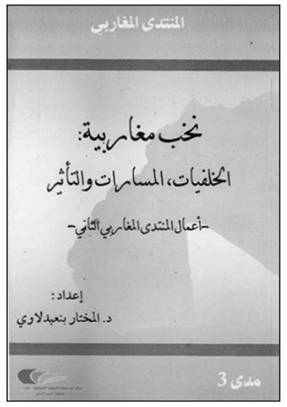

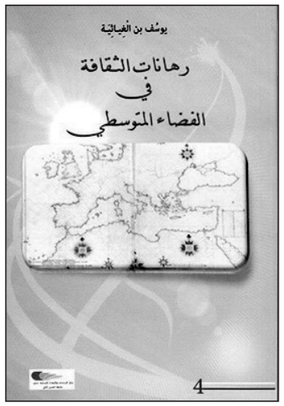

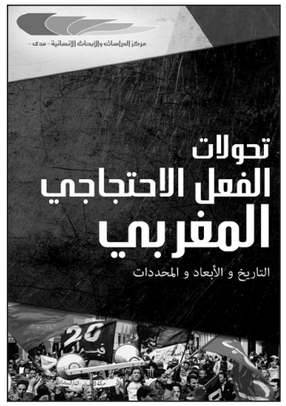

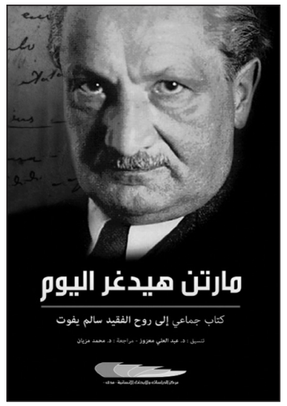

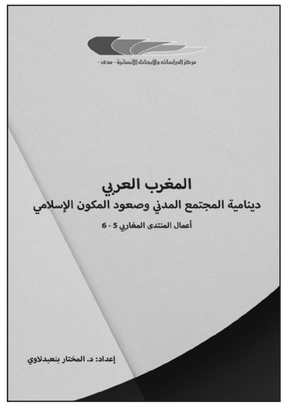

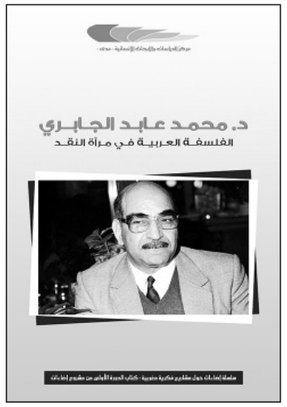

منشورات مدى

آخر أعداد مجلة رهانات

العدد 61-60

العدد 62

العدد 63

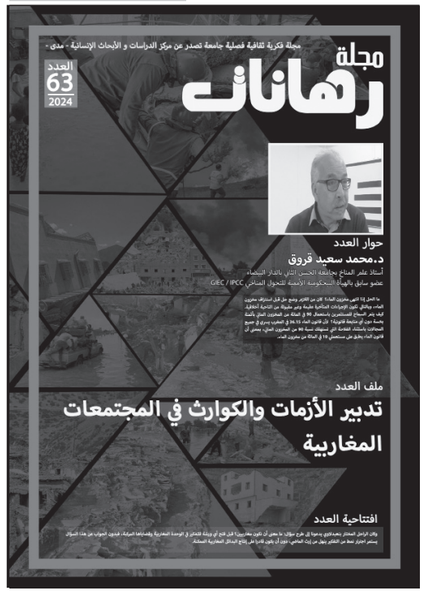
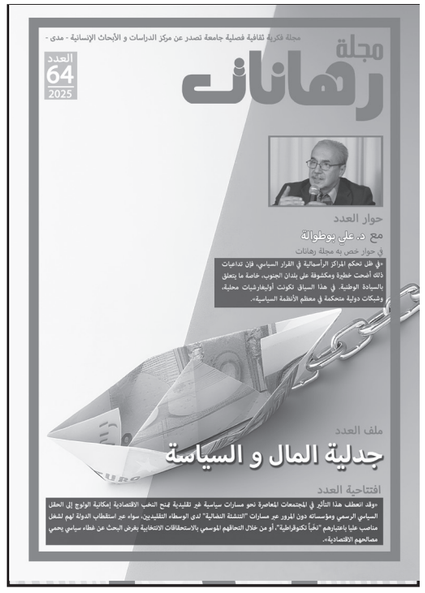
العدد 64